سثراتيس تسيركاس

المنتدى

الرواية الأولى من ثلاثية « مدن جامحة »

ترجمها عن اليونانية : صموئيل بشارة

مراجعة وتقديم : د. نعيم عطية



القاهرة ١٩٩٨

GIFTS OF 2001

THE FRIENDS OF TSIRKAS
SOCIETY - ATHENA

ستراتيس تسيركاس

المنتدى

الرواية الأولى من ثلاثية « مدن جامحة »

ترجمها عن اليونانية : صمويل بشارة
راجعها : د. نعيم عطية

القاهرة ١٩٩٨

ΕΤΑΙΡΕΙΑ ΦΙΛΩΝ ΕΡΓΟΥ
ΣΤΡΑΤΗ ΤΣΙΡΚΑ
ΜΥΚΗΝΩΝ 3 ΚΑΛΛΙΘΕΑ
T.K. 176 73 - ΑΘΗΝΑ

« فلتصبح يدى نسياً منسيا ، لو اننى نسيتك يا أوروشليم ابداً : ليلصق لسانى بسقف حلقى لو أننى لم أفكر فيك ، واذكرك حتى فى نشوة الفرح القصوى »

المزامير

أروشليم – ياأيتها المدينة بلا حاكمين
أروشليم ، يامدينة اللاجئين

جورج سفيريس

« ستراتيس ثالاسينوس عند البحر الميت »
يوليه ١٩٤٢

رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٩٨/٣٨٧٤

- ١ -

همسات نسمة ربيعية منعشة ، يفد من النافذة هسيسها بأريج أشجار الصنوبر فواحاً ، بينما مضى صوت من زمان آخر يرددن أن زهرة سوسن ذهبية كانت على أديم النهر تنشر عطرها . منذ أعوام طوال لم تشعر إيمى بمثل هذا الإحساس ، ويالها من نعمة كأن الذراعين والأعصاب بل والروح ذاتها تبزغ من الماء المقدس . النوم الذى يريح ويغذى يفارق جسدها الممدد على الفراش ، يرسو متلذذاً على آمال حياة جديدة .

ندت عن مصراع دولاب تنهيدة ، وصدر عن قفل حقيبة سفر أمر بصوت معدنى .

أحست بأنها مندسة فى بقعة مبللة . لم يحدث منذ أعوام عديدة أن سال لعابها أثناء النوم ، وكان غطاء وسادتها من الكتان الطبيعى .

- صباح الخير . أين نحن يا هانز ؟

أخبرها هانز ، بلا مبالاة ، إنهما فى بنسيون فراو روزنتال فلدمان ، بينما أدار لها ظهره ، وقد بدا كما لو كان يفكر فى أمر ما .

أما إيمى فلم تكن على إستعداد أن تتحرك .

- حسنا . ولكن أين ؟

- لا أفهمك يا فراو بمبرتسبرج

- هيا يا هانز . قل لى ، أنحن فى إفريقيا أم فى أوروبا ؟

– بل فى أسيا ، بالطبع .

حان الآن الوقت الذى سيهب واقفاً أمامها ، وجنتان ضامرتان ، نظارة ذات إطار فضى ، شعر رمادى طليق مثل الفرشاة . نموذج المسيحى ، الإشتراكى القادم من فيينا .

قال لها بلهجة جادة :

– فراو ايمى بمبرتسبرج ، أسف لابداء هذه الملاحظة ، ولكن مظهرك غير محتشم . فهذا الحى الألمانى فى أورشليم . هل تفهمين ؟

كان قميص نومها المصنوع من التل الأزرق الفاتح قد إنحسر ، وتجعّد حتى وصل إلى منتصف عمودها الفقرى ، تقريباً . كان جسدها كله من أطراف قدميها وما فوق بديعاً ، أملس مثل خزف مذهب ، واستدارات جسمها ...

ذات ليلة صيف فى غابة أشجار الكستناء فى « برايتر » تجرأ هانز ، للمرة الأولى وأقدم على لمسة غرامية وقال « أردت أن أعرف فهناك نساء يشبهن الكمثرى أما أنت فتفاحة » .

خفضت إيمى قميص النوم وجمعت بذراعها الأيمن شعره الطويل الكستنائى .

سحبت الغطاء الكتانى ذا الحواف المطرزة بمهارة ، وغطت به نفسها .

الغرفة طويلة ، ضيقة ، بيضاء . ومن النافذة الصغيرة فى نهايتها يدخل ضوء مائل الى الإخضرار . كانت الحوائط من حجارة سميكة جعلت بالإمكان إستخدام حافة النافذة رفاً تستند إليه الأشياء . كانت عروق السقف المطلية بلون غامق تنحدر بميل ، وكان الحائط الأيمن أقل إرتفاعاً

من الحوائط الأخرى .

تأملت السقف وقالت لنفسها « ها نحن من جديد أسفل سقف من القرميد » في الركـن منضـدة صغيرة ربما كانت طبلية ، مصنوعة من خشب الزان المصقول ، تستند إلى قوائم من النيكل وعليها آلة أوكرديون كبيرة أصابعها من الصدف والأبنوس ، ومن فوقها تتدلى على الحائط لوحة من الحفر الخشبي من أعمال «ديرير» في إطار أسود صغيرة الحجم . في الركن الآخر أريكة جلدية من طراز حديث وأنبوب من معدن الكروم اللامع على هيئة رقمي ثمانية مائلين ، متوازيين ومثبتين من أعلى بسيور جلدية ، دكُن لونها الهافان بسبب تهرؤها ، ومقعدان من البوص مرتفعا الظهر ، ودولاب دون مرآة مصنوع من الزان وتزينه أشكال تكعيبية .

الحقائب مفتوحة وملقاة على الأرض فوق كليم صحراوى مصنوع من شعر الماعز ، يغطى الأرضية بأكملها بينما العصافير تغرد بالخارج .

– كم من يونيو نحن اليوم يا هانز ؟

– أعتقد .. السابع ، الأحد ، السابع من يونيو .

لم يكن قد أرتدى ملابسه المنشأة بعد . كما لم يكن قد حلق ذقنه .

قالت إيمى :

– العام القادم يوافق الذكرى المئوية لوفاة «هايدرلين» .

– أعتقد إنك تخطئين .

– أنا أخطئ ؟ لقد توفى عام ١٨٤٣ ، في السابع من يونيو ، الساعة الرابعة صباحاً ، بل حلمت الليلة أنه يتحدث إلى ، وقد نعمت بنوم رائع .

كان هانز يخرج القمصان من حقيبة السفر بعناية ويرتبها فى أحد أدراج الدولاب .

- لم يحدث بالنسبة لى أن نمت نوماً مثل هذا ، رغم إنه كان لزاماً أن أروح فى النوم بعد كل هذا العناء لكننى كنت أسمع صوت القطارات . عربات البضاعة تتصادم ويتكرر الضجيج . سمعتها تتصادم عشرين أو ثلاثين مرة . كان ضجيجها يختفى ثم يعود من جديد . الماكينة تصفر . شخص ما ينادى ويطلق الميكانيكى النار . عند الفجر ، وقد غلبتنى سنة من النوم خيل لى إننى مصلوب على القضبان .

تملكه الرعب من جديد .

* * *

بالأمس إستقبلهما رجل الفندق بالمحطة ، وأبلغهما بحجز غرفة لهما فى بنسيون حيث إن فندق أستوريا مكتظ بالنزلاء الذين حتى فى الردهات ينامون . ثم أخذ الرجل الحقيبة الكبيرة ومشى بخطوات واثقة فى الظلام ، بينما راحا هما يتعثران على هذه الأرض المكسوة بالتراب والحصى والتى لا يعرفانها . ومضيا يحملقان فى الظلام ليستكشفا مواطئ أقدامهما . ثم قالت وهى تتنهد « آه ، ما أجمل هذه النسمات ! »

كان ذلك بالطبع نتيجة الأرتفاع . سبعمائة متر فوق سطح البحر وهو ما يشكل إختلافاً كبيراً بين هذا المكان وأرض الفراعنة الواطئة ! وطيلة إقامتهما بالأسكندرية كانت تشكو وتقول «هناك عقدة تأخذ بخناقى ، ولا تنفك عن عنقى يا هانز » وكان يقول لها «تخافين ، ولكنك لا تريدين الإعتراف بذلك» وأضاف «لديك إحساس غريزى بالحياة . مغروس فى العنق

إذا سمعت صوتاً قادماً من الخلف فجأة . ماذا تفعلين ؟ » ولكن الامر لم يكن كذلك بالنسبة لها . فقد كانت تهرع إلى الشرفة ما أن تسمع صفارات الإنذار تدوى كى لا تفوتها الفرجة . أما هانز فكان يبحث فى الظلام عن دولاب الأحذية وحقيبة الأوراق . وبالأمس قالت « آه ، ما هذه الرائحة الزكية ؟ » أريج أشجار الكافور والصنوبر تعبق المكان . وأضاف رجل الفندق باللغة الألمانية « ورد وأشجار الدلب » ، وراح يضئ لهما الطريق بالمصباح الكهربى ، ذى العدسة الزرقاء ، حتى يتبّينا الدرب الممتد بين الأشجار والصخور الجيرية المتراصة . وسأل هانز «ألن نستقل تاكسياً ؟» وأجاب الآخر «لا داعى ، سوف نصل بعد مسافة مائتى متر» . «مائتى متر من المحطة ؟ أهذا مركز إستراتيجي ! » أطلق هانز هذا السؤال وسكت على التو ، ثم بعد ذلك سمعوا موسيقى وسيدة تصرخ من خلف الأشجار فتسكتها طلقات بندقية آلية . توقف رجل الفندق ، وقال « توجد سينما مفتوحة بالقرب منكما . إنها دار ذائعة الصيت جداً » قال ذلك بصوت ودود نوعاً ما . عادت إيمى تجلس على الحشية . خارج النافذة ، تنتثر هامة شجرة كافور اللون الأخضر ، بينما الاوراق تلمع من ندى الصباح الذى يبللها .

– كل شئ يبدو لى مثل الأسطورة . عندى احساس أن رحلة العودة قد بدأت فعلاً وإنى أشم رائحة أوروبا . لا يمكن أن يكون الموقف سيئاً إلى هذه الدرجة . هذا مستحيل .

قالها هانز وهو يصوب نظرة صارمة إلى عنقها :

– ماذا عن غريزة حب البقاء عندك يا إيمى ؟ وهل كان الضابط الأمريكى سيقلب القاهرة رأساً على عقب بحثاً عنى لغير ما سبب ؟ إن

الإنجليز لا يريدون الإعتراف بذلك ، بل هم فعلاً قد إستشعروا الحرج ولكن الأمريكان لا يمزحون . هل رأيت السرعة التى فروا بنا بها من أماكن الحرب ؟ بالطبع ، لم يكن بإمكاننا أن نطالبهم بأن يحجزوا لنا مقصورة فى عربات النوم ! .

– ذلك أن النيوزيلندى كاد يأكلنى بنظراته . كنت أقول لنفسى يا إلهى لا تجعل وجهى يبدى توتراً بينما كنت تتظاهر بعدم فهمك للإنجليزية ! ولم أشأ تكذيبك .

قال لها زوجها وقد نفد صبره :

– فراو بمبرتسبرج ، يجب أن تفهمى إنها ليست أوروبا هنا ! إنه الشرق ، عندما تشاهدين المدينة القديمة وتعلمين مدى الكراهية والدسائس التى تحاك فى هذه المدينة التى هى مدينة مفلوتة الزمام سوف تدركين كم كان حكيماً أن ... وماذا عن البابا ! كانا قد وصلا إلى الفاتيكان مثل قديستين مطاردتين . كان القلب فيهما جعبة مليئة بالثقوب . أما العقل فلا شئ . مجرد ستار أسود . ظلا أحد عشر شهراً مختبئين فى بيت ريفى فى « التيرول » حتى عثرا علي وسيلة لعبور الحدود . بعد إنتخابه { مباشرة } منحهما البابا بيوس الثانى عشر دقائق للإستماع اليهما .

وقد ظل يستمع إليهما مطبق الفكين عشر دقائق فعلاً . ثم نطق ببضع كلمات باللاتينية مفادها إن الفضيلة المسيحية الكبرى ، خلال الاعوام العجاف القادمة سوف تكون الصمت . كانت هذه عبارة مثل ريالات مارى تيريز التى قالوا عنها فى المدرسة أنها متوافرة فى طول الأرض وعرضها بل وفى كل الازمان . أخذها هانز وهربا ، ولكنها لا يمكن أن تكون بهذه السذاجة .

عادت إيمى تقول :

– يبدو لى إن كل هذا غير معقول . لو أن الأمريكان قلقون من إحتمال دخول روميل الى الاسكندرية لوجب إن يرسلونا إلى جنوب إفريقيا أو إلى أبعد من ذلك .

وصاح هانز مستاء :

– ولكن أنا الذى طلبت ذلك ، يا إيمى ! مركزي يحتم وجودى بالقرب من الجبهة . جوهانسبرج أو واشنطون تعد منفى بالنسبة لنا أو بمثابة عقاب .

مركزه ! آخر وزراء النمسا ! الإرتباك والرعب ، أحذية النازيين ، فرق «الريفستا غ» ، اشجار القسطل الخضراء ، المستشار الذى لا يدرى ولا يذكر أى وزارة كلفه بها هل هى التعليم أم الشئون الإجتماعية .

قال هانز :

– أستطيع أن أكون مفيداً هنا ، سوف أدير البرنامج الأذاعى الموجه «النمساويون الاحرار» . وأذا تأزمت الأحوال فإننا خلال ساعتين نصل بالتاكسى إلى مطار «اللد» ، وعلى الأخص الأن ، بعد أن اجريت اتصالاتى بالامريكان ، فإن كل شئ سوف يكون على ما يرام . ها هى المساومات والتأجيلات وأمتهان الكرامة من جديد .

هناك فى الشارع ، سُمعَ جرس دراجة ، وصوت صبى ينادى مترنماً بالعربية «لبن» . ثم صرير لوح خشبى يأتى من خلف باب حجرته . خطوات شخص يهبط مسرعاً درجات السلم الخشبى . أتسعت حدقتا هانز وهزّ رأسه ، مشيراً إلى الباب ، بينما رفعت هى أكتافها دون إكتراث ، فلئن كان العالم السحرى الذى إحتواها ساعة إستيقاظها قد تلاشى ، إلا أنها كانت

تحاول أسترجاعه من جديد .

قالت :

– اعتقد أننى عثرت على سر هذا النوم الذى استمتعت به . ثلاثة أعوام مضت لم يجمعنا سرير واحد . أذكر فى روما أسرة اللاجئين المفردة ، كم أكرهها . وكنت طوال الليل تدير إلى ظهرك . اعترف بذلك . ولكن ما أن احرك أصبع قدمى الصغير كان يمسسك ...

قاطعها هانز ، قائلاً :

– إيمى إلزمى حدك .

بعد قليل ، سمعت خطوات من جديد ، وصرير اللوح الخشبى .

ثمة شخص يطرق بابهما .

– فخامة السيد بمبرتسبرج !

قال هانز بصوت خفيض :

– أنها «فراو أناه» . غطى نفسك .

ثم عاد يقول بصوت عال :

– أجل يا فراو فلدمان ، ماذا هناك ؟

– أطلب المعذرة من فخامتك ، ولكن إذا أردت الاستحمام اليوم ، فيجب أن تنزل حالاً . أما أنا فسوف أذهب كى أحتجز لك الحمام ، الذى نظفته منذ قليل ، حتى لا يستعمله شخص آخر .

– اننى قادم أيتها السيدة العزيزة ، شكراً لك .

وتوجه بالحديث لإيمى :

– كل وسائل الراحة متوفرة ! ذلك أفضل من الاضطرار للنزول إلى الحديقة .

وقالت إيمى :

– كل شئ جميل هنا .

أخذ هانز الكيس الذى به لوازم الحلاقة وكيس آخر طوى على خفه ، والتقط منشفة كبيرة من الدولاب ، فتح الباب ولكنه توقف قليلاً ، وقال :

– أغلقى الباب بعد نزولى بالمفتاح ، فهذا أكثر اماناً .

وقالت إيمى ضاحكة :

– إذهب . سوف أغلقه .

بعد لحظات طرقت فلدمان الباب ثانية ، قائلة :

– فراو بمبرتسبرج ، صباح الخير ، هل أستطيع الدخول ؟

ودخلت دون إنتظار للرد . توجهت مباشرة نحو المنضدة ، أخذت الاكورديون ووضعتها على حافة النافذة . كان رداؤها الاصفر الحريرى من نسيج ملكى ، يجعلها تبدو أطول قامة . وأكثر نحافة . لون شعرها الطويل بخصلاته الصغيرة من حول وجهها المستطيل خلياً من لونى الجزر والتبن ؟ . بينما تتدلى خصلة شعر حلزونية وتغطى جبهتها الضيقة . وبصفة عامة ، فإنك إذا نظرت إليها من الخلف بدت لك أشبه بفرشاة سقوف جديدة ، بينما لو نظرت اليها من الامام بدت لك امرأة ناضجة تفتعل الاناقة وتعانى من الحرمان .

قالت :

– الجو بديع . حضرت لأعداد الافطار .

اكتست تصرفاتها بنوع من التردد والصلابة ، أضفى عليها فجاجة وطابعاً عسكرياً . وأضافت قائلة :

– هل صحيح إن صاحب الفخامة لا يضع فى فمه شيئاً ، ولا حتى جرعة ماء ، كل صباح ؟ إذا كان الهدف من ذلك هو التوفير ، فأن ثمة خسارة تلحق ، حيث أن البيضتين فقط تكلفانى خمسين ميلز ، أى ما يعادل تكلفة الإفطار بأكمله .

جفونها حمراء الأطراف ، بلا رموش ، وعيناها مثل خرزتين زرقاوين ، قلقتان وبهما قدر من الحول . يضفى عليها مظهراً غير مألوف .

قالت إيمى وقد إحمر وجهها :

– ليس هذا هو السبب الذى يجعله يفعل ذلك . لقد إعتاد هانز منذ أعوام أن يتناول إفطاره بالخارج ، وفى وقت متأخر من الصباح ، لأنه كان يتلقى «المناولة» كل صباح .

على أنه لم يكن ثمة داع لإيضاح ذلك لسيدة تعتنق ديناً مختلفاً ولو كانت تعلم حقاً ماذا يدور حولها ، لكان لزاماً عليها أن تدرك ذلك .

وقالت فراو أناه بلهجة حاسمة :

– كما يروق لك ، ولكن أود إحاطتك علماً بأننى سأضيف إلى الحساب الذى إتفقنا عليه خمسين ميلز وهو تكلفة الإفطار .

رفعت زراعى إيمى فجأة وأشارت إلى مرفقيها المدببتين وقالت :

– يا إلهى ما أجملك . ما أجمل عينيك وشعرك وبشرتك !

إحمر وجه إيمى ثانية . سحبت الغطاء عليها قليلاً وقالت :

– كلا ، أشكرك . لقد استمتعت بنوم عذب .

قالت فلدمان متهللة :

– أليس كذلك ؟ الفضل فى ذلك للحشية ، كما تعلمين ، فعندما لا يوجد « ضيوف » أنام أنا هنا . هكذا أصف النزلاء ، لأننى اعتبر أن كلمة ، « زبائن » كلمة وقحة . اين توقفنا ؟ أجل عند سر النوم الذى يكمن فى الحشية الجيدة . وفى الغرام ، بالطبع ، إذا سمحت لى أن أقول ذلك .

هذه الحشية . من تصميم زوجى المسكين الذى إهتم بالسمك والعرض والوسائد . كما أختار مادة الصنع أيضاً .

هل لاحظت الإرتفاع عند الاقدام ؟ هناك بعض الأشخاص يضعون شيئاً أسفل أقدامهم ، أما الصواب فهو أن يتم حياكة الجزء الخاص بالاقدام على شكل منفصل . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن قطع الأثاث التى ترينها من حولك ، هى من تصميمه أيضاً . ولكن الفضيات وأطقم المائدة فقد صنعت كلها فى المانيا ، وقد أحضرت معى كل ما أسعفنى الوقت لحمله .

تلعثمت بعض الشئ لإنها كانت تتحدث بلهجة الألمان قاطنى ، «الراين» ثم وضعت يدها على جبينها ، وقالت :

– ربى . سرقنى الوقت . ويجب أن أهتم بالأخرين . بعد قليل سوف أحضر لك الإفطار . أجل . أما عن الحمام ، فقد أبلغنى صاحب الفخامة أنك لست فى عجلة من أمرك ، ولا تنوين الخروج . اتركى ذلك إذن بعض

الوقت حتى ينتهى الزحام ، فليس لدينا سوى حمام واحد لخدمة الطابقين .

قالت إيمى بلهجة إستطلاعية :

- أود أن أستمتع بحمام ساخن ، لو أمكن .

- لدينا سخان يعمل بالفحم النباتى . العلبة الواحدة تتكلف خمسين ميلز ، العلبتان مائة ميلز . وأنى أنصحك ألا تستعملى البانيو . إنى أغسله وأنظفه جيداً ، ولكن لا يعلم المرء ما الأمراض التى ينقلونها . اليك ما أفعل :

عندى قاعدة خشبية . أضعها فى البانيو . وأقف فوقها وأفتح الدُش . بالشتاء يكون ساخناً وفى الصيف بارداً . أستطيع أن أضع لك القاعدة الخشبية .

- أشكرك يا فراو فلدمان . هل تعلمين ما إذا كانت المطرانية الألمانية تبعد كثيراً من هنا ؟

أجابت ، كما لوكان السؤال خاصاً بآلة الاكورديون الموجودة بالغرفة :

- المطرانية الالمانية تستطعين مشاهدتها من النافذة .

ربى إن شجرة الكافور تضخمت ثانية . ذلك اللون الأحمر الذى يبدو من بين الأشجار هو المطرانية .

ولكن إيمى لم تنهض من الفراش . وعندما إنحنت فلدمان قليلاً للتحية ، إمتلأت الغرفة بتوهج الضوء الناتج عن ردائها الذهبى . وخرجت مسرعة تطوح خصلات شعرها حتى تعطى انطباعاً بكثرة المسؤليات الواقعة على عاتقها . وخرجت من حنجرتها ضحكة صغيرة يملؤها الدلال .

قفزت إيمى فى الحال من الفراش ، أغلقت الباب وخلعت قميص نومها وتركته يسقط على الكليم المغزول من وبر الماعز ..

يالهذا الهواء المعطر ... لم يكن بالغرفة مرآة . ومن جديد يتملكها ذلك الإحساس ... حياة جديدة حافلة ولكنها خفيفة الحمل . أخرجت المرآة الصغيرة من حقيبتها « ما أجمل عينيك ، وشعرك ، وبشرتك » هذا ما كانت قد قالته ميتسى .. البشرة من صنع « مم » ومساحيق «جرابن كاميه» .

جلست على الأريكة وراحت تتأمل نفسها « ميتسى ، ميتسى ، قلت انت ذلك عن بشرتك » ... كانتا زميلتين بذات المدرسة ، واصبحتا صديقتين فى نفس العام الذى تمت فيه خطبة إيمى لهانز .

كانت ميتسى تعمل فى محل « بالى » لبيع الأحذية أمام شقتها فى عمارة « كارل ماركسهوف بهلجستات » . هكذا شاءت المصادفات ، وانضمتا إلى فريق كرة سلة للأنسات تابع للحمر بطبيعة الحال . وفى مساء يوم من أيام السبت فى غرفة خلع الملابس قامت ميتسى بمداعبة ظهرها العارى المليئ « بحب الشباب » سألتها «ما هذا ؟» ثم أضافت « إن فورانك سوف يدمرك . لماذا لا تفعلين شيئاً ؟ »

– مثل ماذا ؟ دهانات . علاجات ... جربت كل شئ . يقول الطبيب أنها ستزول بفوات السن .

أطلقت ميتسى تلك الضحكة البلورية ، وقالت « لماذا لا تطلبين من سكرتيرك ابداء رأيه ؟ » وسألتها إيمى ما دور سكرتيرها فى ذلك ؟ لقد كانت

له تخصصات أخرى !

أمسكت ميتسى بأيمى من وسطها ، وأخذت الفتيات الأخريات في مداعبتها . على أن ميتسى أجلستها على دكة وقالت « دعك منهن ، سوف ينتهى الأمر بهن إلى الانصراف » .

وهذا هو ماحدث بالفعل فبعد لحظات غادرن المكان وهن يرددن أغنية «الأحد المظلم» تاركات الصنابير مفتوحة ، والحمامات تقطر ماء . عادت ميتسى تسألها « خبرينى . ذلك الفتى ذو الياقة المنشاة . أهو خطيبك أم لم يخطبك بعد ؟ أننى لا ألومك أنك لم تتولى تعريفى به . أفهم ذلك . إن السياسة تفصل بيننا . أنت محايدة ، ومن حقك هذا . ولكن قولى لى عندما تخرجان فى الامسيات ماذا تفعلان ؟ » كانت إيمى تحاول التخلص من الإجابة ، ولكن ميتسى تخلت عن لهجة المداعبة ، وبإصرار وبلا حياء أصرت أن تعرف ، وفى النهاية تحقق لها ما ارادت ولم تكن ثمة أشياء هامة . ذلك ما قالته لها إيمى وعندئذ أخذت ميتسى تشرح لها ، خالطة فى شرحها بين الكيمياء والبيولوجيا والصحة وازدهار الشباب والعلاقات بين الهرمونات وجمال البشرة النسائية . ثم خفضت صوتها دون أن تكف على أي حال عن دعك ظهرها .

شرحت لها ما يجب أن تفعله كى لا تضيع منها حتى أقل نقطة . إحمر وجه إيمى حمرة شديدة ، فقد كانت تخجل لدرجة كبيرة ، ولكن قلبها كان مع ذلك يرقص بفرحة متوحشة .

قامت ميتسى ووقفت أسفل الدش . وبدأت تصفر لحناً . « هل تعرفين ذلك ؟ » أجابت إيمى بسرعة « أجل » .

أنها مقطوعة من « الناى السحرى » لموتسارت . ثم إنتفضت واقفة وراحت الأخرى تنظر اليها نظرة ماكرة . أستمرت فى مداعبتها حتى رقبتها . فهمت فجأة . غرقت فى حمرة الخجل حتى رقبتها « آه ، يا ميتسى » ثم صاحت بأستياء كما لو كانت توبخها . ضحكت ميتسى . ثم ضحكتا بصورة هيسترية وجلسنا على بلاطات الارضية المبللة وانخرطنا في الصراخ . جرت عاملة النظافة فراو دوكتور ، فى الحال نحوهما وهى ترتدى رداء أبيض « ماذا حدث يا بنات ؟ »

كان هانز يدير مقبض الباب ، وقد عيل صبره .

قالت له « لحظة . » كان رداؤها المنزلى معلقاً فى الدولاب منذ ليلة أمس . وبالطبع ما كان ثمة شبه بينه وبين رداء فيلدمان الملكى . قال هانز بأشمئزاز :

– يجدر أن تشاهدى ما يحدث بالطابق السفلى . أنه برج بابل حقيقى . هناك أربعة حجرات تحتوى كل منها على أسر واطفال وعجائز وجنود ولاجئين . ذلك المكان تحت لا يخص فراو أناه ويجرى تأجيره ، كما علمت ، حجرات منفصلة . هل تتخيلين أن كل هذا الحد بالطابقين الأسفل والأعلى وترك طابق فنحن نستعملان حماماً واحداً ، دون وجود مطبخ !

أعتقد أن فيلدمان ليست على وفاق معهم ، فهى تتعامل معهم بغلطة ،

ولا يرتبط ذلك بالدين ، فهناك يهود أيضاً بالطابق الأسفل ، ولكن خبريني . ماذا عن الأفطار ؟ بالأمس اتفقنا على اربعمائة ميلز للحجرة شاملة الأفطار .

قالت إيمى وهى تخرج رداءها :

– ما أهمية ذلك يا هانز ؟ الأيجار رخيص جداً ولا يعادل نصف ما كنا ندفعه فى القاهرة .

– هل تقارنين فندق شبرد بسفينة نوح هذه ؟ لا وجه للمقارنة . ولا تنسى أيضاً ما قالته لى اليوم « كم من الزمن ستقضى فخامتكم معنا ؟ » ولما اجبتها « بضعة أيام ، أسبوعاً على الأكثر» قالت لى « فقط ؟ ان السيد اندريانو أخبرنى أنكما ستمكثان أكثر من شهر وبالطبع دفعت له العمولة على أساس هذه المدة » هذا طبيعى . وقعنا فى أيدى يهود ، هذا ما أعرفه ومن هذا السيد اندريانو هذا ؟ لم تسألينى ، يا إيمى .

– ها أنا أسألك ، يا هانز .

– إنه الشخص الذى إستقبلنا بالمحطة ويعمل رئيساً للخدم فى استوريا ، وهو فى نفس الوقت جارنا أيضاً ! يسكن الحجرة التى تقع أسفل حجرتنا مباشرة . رأيته يخرج منها مهندماً ، متأنقاً ، كما لو كان خارجاً من عند الكواء تواً ، وقد رأيت زوجته أيضاً إمرأة صغيرة القد ، سهتانة مثل القطط .

– أنك تصور الأمور كلها على نحو درامى . أرجوك ، كف عن ذلك . لا

ترهبنى فكرة الاقامة هنا لفترة طويلة ، فهذه فرصة لخلق مناخ منزلى على الأمل ، وفى المساء سوف نحتسى بعض الشاى سوياً . وفى حالة المرض ....

– أرجوك يا إيمى ! سبق أن قلت لك ، نحن هنا مجرد لأجئين !

– لكننا افترقنا عن العالم يا هانز . أعوام كثيرة امضيناها وحدنا ، بلا أصدقاء ، بلا أحد ، افتقدنا الدفء والملامسة .

اغرورقت عيناها بالدموع . أما هانز فكان يسرع فى ارتداء ملابسه . وقال :

– سوف نعود لمناقشة هذا الموضوع . إنى أنصرف الآن ، ومن هناك سأحاول العثور على مكاتب الادارة . أين سنتقابل ؟

– حوالى الثانية لتناول الغذاء . المشكلة هى عدم وجود تليفون فى هذا البنسيون .

- ٢ -

لم أكن أعرف أن العزلة تحتسى رشفة رشفة ، أو أنها بمثل هذه المرارة . وما كان بإمكان فمى ان يتعود على مذاقها . كل ساعة اجرع منها قدحاً ويصعد تأثيرها إلى رأسى . الناس من حولى يتشدقون بالكلام ، ويتخاطبون بأسلوب علمي . ممدداً على اريكتى أو جالساً ، أسمعهم يتحدثون عن ذات الاشياء دائماً . كلمات مصبوبة فى ذات القوالب ، كلها ، مثل رؤوس مقطوعة .

وتمشى الشمس ببطء على عجلة تجر عربة تركية وتلهب السقف الصغير الذى يشبه قلنسوة قوطية . وفوق رأسى يدور الثعلب النحاسى بذيله الممدود مشيراً إلى اتجاه الريح مطلقاً آناته المكتومة . الأصعب من ذلك كله هو الغروب . أخافه أنتظره طوال اليوم . وعندما يأتى ، اجاهد لضبط اعصابى ، وبلا حراك أكابد معاناة المقاومة . ومنذ اللحظات التى يدق فيها جرس الكاتدرائية ، وتنحدر الشمس مختفية وراء الجبال ذات الصخور الرمادية والهالة الترابية الحمراء المحيطة بأشجار الزيتون وطريق حيفا الذى يمضى ملتوياً كالثعبان من تل إلى تل يتملكنى الشيطان ، ويدفعنى أن أنزل ! . الظلام الدامس يغطى أوراق الشجر ولكن ضوء النهار مازال يلوح على قمم الهضاب الشرقية بلونه البنفسجى . وقد يكون الخروج فى الحال تصرفاً طائشاً . لن أدفع ثمنه تواً ، ولكن بالتأكيد سوف ادفعه يوماً ، إذا إعتدت عليه .

لا أذكر منذا الذى شبه مجئ الليل هنا بفتاة تمشى الهوينا حافية القدمين فى هدوء عائدة من النبع . الأمر حالة نفسية . وعندما وصلت إلى هنا بدا الى المكان أول الأمر كما لو كان ينطوى على شئ من كتاب « العهد القديم» ، ولكن فى ذلك الوقت لم يكن الجمود قد أنهك بعد أحاسيسى ، أما الأن فهو يذكرنى بدلال ممثلة تتلكأ فى الظهور على المسرح .

وعندما يوغل الظلام ، انزل ، ورأسى تطن بشكاة الثعلب . أمشى بخطوات ثقيلة على تراب الطريق حتى أنشط قدمى . ظلام من حولى . الضاحية هنا مليئة بالمنازل الفاخرة والحدائق . ويمتثل سكانها القليلون لأمر القيادة العسكرية بشأن أطفاء الأنوار . ورغم انهم مجتثون من أوطانهم فإنهم يظلون ألمان . إننى اعرف الطريق ، فلا داعى لإشعال مصباحى الكهربى ولكن غالباً لا أعرف لنفسى مكانا معينا أذهب اليه . بداية أهتم بالمرور خارج منزل المسنين ، متخذا لنفسى مسحة الذاهب الى عمله فإذا كانت نوافذ حجرة النوم مواربة فلا مشكلة . سوف أتناول طعاماً ، ونشرب قدحاً من العرقى ، ونثرثر باليونانية مع إناس من بنى جنسى ، ويمضى الوقت ، فإذا هجعا إلى فراشهما أنصرف الى المدينة القديمة وأجوس الهوينا فى ازقتها المعتمة ، وأمر تحت العديد من البواكى . وكان أكثر ما يجتذبني هو الحي العربي وحتي بعد منتصف الليل أجد في اسواقه المغطاة بعض الدكاكين مضيئة ، أشم رائحة الزحام ، والبهارات ، والشواء . بينما تستمتع عيني برؤية الحرير والنحاس ، اقتل الوقت ، أشرب الشاى أو النعناع على صوت خافت من مذياع فى مقهي صغير سهران . ولم تستطع السلطات أن تعمل فى شأن المسلمين تعليمات حظر بيع اللحوم بضعة أيام كل أسبوع . ولهذا كان تداول الضأن بالنسبة

لهم حراً لا قيود تموينية عليه . ولهذا فعندما كان يتعذر علي أن آكل لحماً في مطعم حاجى فاسيلى ، كنت املاء بطنى فى الحى العربى . كنت أطلب طبقاً من الكباب والكفته كما أطلب سلطة الطحينة أو فجلاً أحمر ، وأتناول البقلاوة فى النهاية . وعند أحضار الحساب ، كنت أتمالك نفسى حتى لا أصيح « فقط ؟ ياله من سعر رخيص ! » . وكأنما ليست هناك حرب قائمة . إن شهوة الكسب غير المشروع لم تمسسهم بعد . بينما كل مرة ألقى بى إلى مطعم يهودى كنت أنهض جائعاً ، حتى لو كان ما قدم إلى هناك وجبة من اللحم . ولا اتحدث عن الغلاء فقد كان اتحاد العمال اليهود يتمسك بأجور عالية للعاملين بالمطاعم مما كان يرفع الأسعار . أحاول بقدر الامكان ان أتحاشى الحى المسيحى . والقبر المقدس ذاته لم أزره ، ولا أعتقد أننى سوف أزره . وقالت السيدة ماريغيتولا عندما سمعت عن ذلك « حرام عليك هذا » واضافت قائلة «اذهب واشعل شمعة حتى تحافظ نعمة الرب عليك . انك فى الغربة يا بنى ، فلماذا هذا الكلام ؟ إنك لو زرت القبر المقدس فلن يستطيع أحد إيذائك . وفضلاً عن هذا فإن ليليكا ستسعد بذلك ، فروحها فى السماوات ترانا من الاعالى وترثى لحالك .» كانت هذه المرة الأولى التى أسمع من ينادى جدتى بأسم «ليليكا» فقد كنا نعرفها بأسم «فاسيليكى» لكننى لم أذهب .

تبقى المطاعم الروسية والأرمنية . ونادراً ما أمر من هناك . وثمة بقال إسمه «لويزيدس» يبيع جبناً بلقانيا ، وخباز يصنع خبزاً أبيض ، يدس فى عجينته بعضاً من حبات الزبيب كما لو كان يخبز «كيكاً» ولكنه يطلب فى أرغفته ثمناً غالياً .. خبز ، وجبن ، وبيض مسلوق ، وبعض الطرشى أشتريها للغذاء . الفها جيداً ، وأضعها تحت إبطى ، وأحملها معى طوال

الليل أينما ذهبت . أما القهوة والسجائر ، فقد أقلعت عنهما . عند الفجر أشترى صحيفة ، «فلسطين بوست» من بائع الصحف الواقف عند بوابة صهيون . أما أيام السبت فأشترى الصحيفة الأخرى ، ولكنها ليست على ذات المستوى . ثم أهجع إلى فراشى لأنام .

فى الأونة الأخيرة تضع «الغراب» سريرها تحت السلم ، وتتظاهر بالنوم . أصعد الدرجات ، محاولاً ان اتفادى السير على ألواح الأرضية الخشبية حتى لا تئن تحت خطواتى . ذلك أنه لو بدرت منى أية جلبة فإنها تعتبر نفسها مسئولة عن سؤالى « أهذا أنت يا سيد كالويانوس ؟» مستخدمة فى ذلك لغتها الفرنسية الفظيعة . وعندما لا أجيب فإنها تعاود السؤال بصوت أعلى حتى تكاد توقظ كل من بالمنزل ، كما لو كانت تقول «انت ترى كم أنا ربة منزل صالحة ؟ لا يغيب عنى أى شئ» (أو ربما تريد أن تقول «لا تشغلنى بأمورك فلا أريد أن اعرف أنك تختبئ هنا ! ») ولا أحتمل أكثر من هذا فأجيبها : « عفواً يا سيدتى . لم أرد أن أوقظك . لا زال الوقت مبكراً»

لا يهم ما إذا كانت خصاص نوافذ حاجى فاسيلى مواربة أو مغلقه . فإن المشكلة التى تحلها أولا تحلها هذه النوافذ تعتبر من الأمور الثانوية ، فهذه مشكلة عزلة ليلة واحدة . وليس هذا بالنسبة لى مشكلة على الاطلاق ، فبإمكانى أن أبقى فى قلايتى شهوراً بل سنيناً ، أو أى وقت يكون لزاماً علىّ أن أبقاه ، أليس باسكال هو الذى قال « إن كل الكوارث التى تحل بنا سببها غالباً إننا لم نتعلم البقاء فى غرفنا ؟» ومثل هذه العزلة هى التى يخشاها أولئك الذين يتحدثون مثل « الرؤوس المقطوعة» ، فما أن يخلدون إلى العزلة يفرغون من كل معنى ، ولكأنهم اصبحوا لا يوجدون . فإذا ما

شاهدوا انساناً أخر يقفزون إلى «منبر الواجب» ويبدأون فى الخطابة . ان القلق الذى يتملكني عند حلول الغسق يرتبط بعزلة أخرى ، أكبر بكثير من كل ذلك . لا زالت المشكلة ذاتها مستمرة كما كانت منذ شهور عدة . ولم أعد استطيع القول إنها فى طريقها إلى الحل . وأفضل عدم الخوض فى ذلك . بالطبع أفكر فى الأمر ، ولكن ليس طوال الوقت بل فى وقت محدد وبأسلوب منظم وشبه موضوعى لأننى إن لم أفعل ذلك ، فإن تلك المشكلة ستسيطر على ، وتدمرنى .

فى بيت «حاجى فاسيلى» تثير المشغولات اليدوية واللوحات ذكرى الابنة التى توفيت منذ سنين . وما عاد أحد ينبس بأسمها سوى الأم العجوز وعندما أسمع أسم « أماليتسا » يخيل إلى أنها تتحدث عن أمى ، بل وأتخيلها أمامى : هى تجرى إلى شرفتنا فى «كيفيسيا» تخلع نظارتها ، وبنظرة قلقة خلال أشجار الحور والبلوط النابتة على جانبى الطريق النازل من «كيفالارى» تقول : « ألكى ، أخذ الدراجة من جديد . ألا تنهره أنت أيضاً بما أنك تكبره سناً ؟ » .

ثم نجلس تحت الكرمة . تتحدث بصوت خافت مثل جيران ينعمون بنسمات الهواء . ويروى العجوز عما شاهد وما سمع . ثم فجأة ينفتح طريق ضيق خفيض الضياء . أسأل . تتساقط حبات مسبحته الكهرمان ببطء فى راحته ويمضى يدعكها بقوة بكفيه الأثنين ، ويتشممها . وتأتى إجاباته مقتصداً فيها . ينغلق الطريق ولندع الأمر للقاء آخر .

منذ ان توقفت علاقتى «بالرؤوس المقطوعة» (ماعدت أسمعها إلا فى كوابيس يقظتى) أشعركمن فقد توازنه . أحاول أن أتشبث بأى شئ بينما تتناثر حياتى مثل حبات مسبحة انفرط عقدها ، ولم يعد لها تماسك أو

ثقل . فيما مضى كانت الأفكار والأفعال تسير جنباً إلى جنب نحو هدف مشترك شديد التشبث بالنظام ، هذا مؤكد ، ولكننى كنت أشعر أننى أحيا ذاتى . وأننى شخص متجانس . كنت أعلم من أين اتيت والى أين أذهب ، ولم تكن تنتابنى أوهام ، كنت مثل حجر صغير فى لوحة من الفسيفساء علي وشك أن تكتمل وقد ذكرنى ذلك بالكلمة التى قذفنى بها أحد «الرؤوس المقطوعة» . وعندما هممت بالانصراف من الاجتماع قال لي « منذ الأن ، أنت مجرد حصاة ملطخة بالبراز » ولكن إين الصواب ؟ وما دمت على حق ، فلماذا أشعر انني مثل ...

أما الأن فإليك الجانب الإيجابى . وربما لم يتأت ذلك إلا بسبب حالة من الدعة اتيح لى فيها الوقت كله كى أنبش وأتعمق ، وعلى أي حال ، فقد مكننى البقاء بمفردى ان التقي بالإنسان من جديد ، وان أحس احساساً أعمق بما يعانيه من بؤس ومخاوف وما يصادفه من سعادات صغيرة . وأفهم على نحو أفضل معنى المهانة واليأس الذى يكابده .

ربما مكنتنى أحوالى الخاصة أن أفتح عينى . عندما تعيش بأسلوب جماعى فإنك شئت أو لم تشأ ، تشارك رفاقك فيما يتحمسون له وما يتعصبون ضده . انك تبصر بعيون كثيرة . ترى كتلا ومسطحات ولكن تغيب عنك التفاصيل الدقيقة . يقولون العدو يقولون الحلفاء . ولكن ماذا يعنى ذلك على وجه التحديد ؟ رفقاً واناة ! و«الرؤوس المقطوعة» و«الغراب» وهل بالإمكان التخلص من المشكلات بألصاق شعاراً بالناس ؟

ليس بمستبعد أن تكون حالة « التوهان » التى أكابدها نوعاً من العصاب ، نتيجة العزلة التى القيت اليها . هل لو وجدت فى أثينا ، حتى بطريق غير مشروع ، أو على قمم الجبال مع المتمردين ، كان سينتابنى ما

أنتابنى الأن ؟ أيكون الذنب ذنب البيت ذى الجو الغريب الذى أقيم فيه ؟ كل هؤلاء الناس ، ضحايا المحنة التى تضيق الخناق على العالم كله ، الذين بدلاً من أن يقرب بينهم الشقاء الذى يشتركون فيه يفرق ذلك الشقاء شملهم ويباعد بينهم ، كما لو كان كل منهم يخشى أن يصيبه الآخر بعدوى أشد وطأة من الشقاء الذى يفتك به . ممشى واحد وغرف على كل من جانبيه ، وعندما ينفتح باب أى غرفة منها ، ذو الضلفة الواحدة ، تستطيع العين المتطفلة أن تكتشف أشد أركانها خفاء . ويكثر فتح الأبواب الآن وقد اشتدت حرارة الجو . ومع ذلك فكل منهم يحيا مطوياً داخل أسطوانة من العزلة ، واينما ذهب ذهبت معه ، كما لو كان يلبس « رداء نيسوّ» .

هم بمفردهم وبمعزل عن العالم وعن أوطانهم بل هم على هامش حتى تلك المدينة الخارقة أورشليم . ليس بالنزل تليفون . وهو ليس من المستلزمات العملية بقدر ماهو رمز .

وانى لمتأكد أنه لو كان فى البيت تليفون لتغير زبائن المكان وعلى سبيل المثال ، فبالنسبة للبولنديات اليهوديات وأولادهن فأن بيتاً بتليفون يعتبر نوعاً من الترف لايقدرون عليه وذلك لأعتبارات اقتصادية . ونظراً لشدة الطلب هذه الأيام على بيت بتليفون ، فإن السمسار كان سيعتنى بهذا الأمر ، وليس ذلك حفاظاً علي مصالح المالك السيد كوهلر ذلك الأسطورى ، الذى جاء مع عائلته كلها منذ أربعين أو خمسين عاماً ليحضر بشخصه قيامة السيد المسيح الثانية ، وأسس مع المان آخرين هذه المستوطنة ، وهم الأن يرقدون تحت هذه الأرض الجرداء ، بينما زج بأحفادهم إلى معسكرات الاعتقال لعدم الولاء .

ان البولنديات اللاتى لايتأتى لهم سداد حتى الإيجار الحالى بإنتظام

كن سينتقلن للإقامة فى الحى اليهودى . ، أو يرتضين الدخول فى كيبوتس أو لعلهن كن يقررن تغيير ديانتهم . أما جارتهن الرومانية فإنها بعد عشر دقائق من خروج زوجها تمشط شعرها وترتدى ثيابها ، وتتزين ثم تغادر المنزل . يمشى زوجها فى الشارع الذى على يسار المنزل حتى يستقل الأتوبيس ، أما هى فتمشى فى الشارع الذى على اليمين تدق الإرض بكعبى حذائها فى عصبية . ينتظرها عشيقها بعربته الجيب عند المنعطف ، إننى اراهما من نافذتى الصغيرة ولدى الاحساس بأن ما من أحد يتصور أنى أقيم عالياً هناك ولا أعتقد أن هناك إنساناً يهتم بمن أكون وكيف أنام انهم نادراً ما يروننى . ربما بأستثناء رابيسكو ، وبالطبع «الغراب» . وقبل إنتهاء وردية الرومانى فى «أستوريا» بنصف ساعة تعود الشحرورة مسرعة ومتوهجة ، ثم تتخلص من زينتها ، تخلع ثيابها وتجلس على كرسى بجوار النافذة تقلم أظافرها ، وتطل بين الحين والآخر إلى الشارع لترى ما إذا كان زوجها قادماً ..

يصل فى الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر ، يهز من على مسافة بعيدة ، حقيبته التى يملؤنها له فى الفندق . تستقبله بإمتعاض ، ثم تدخل لإعداد مائدة الطعام . أما جارتها التشيكية ، فهى بدورها لا تريد التليفون . وقد قالت ذلك «للغراب» ، فهى تعمل على الآلة الكاتبة فى مكتب من مكاتب الحلفاء ، حيث يرهقونها بالعمل ، وعندما يحل المساء تعود إلى غرفتها متخبطة . لا تريد شيئاً سوى أن تخلع ثيابها وتنام ، وسيان بعد ذلك أن تنام فى حضن أحد أو تنام بمفردها ، كل ما تبغيه هو أن تشبع نوماً . ولو كان فى المنزل تليفون لعملوا على إيقاظها فى منتصف الليل وعلى وجه السرعة يستدعونها إلى المكتب ، كى تكتب لهم برقية أو أكثر . هناك حل بديل على أي حال ، وهو أن يستقلوا سيارة أجرة يهرعون بها

إليها ، ولكنهم كانوا يعتبرون ذلك تجاوزاً ، فيتلمسون التأجيل لليوم التالى . على الرغم من أنهم فعلوا ذلك مرتين ، ولحسن الحظ فقد وجدوها بمفردها وبغير صديقها ، ذلك الجندى الكرواتى .

وفى الغرفة المواجهة لغرفة التشيكية يقيم زوجان يهوديان ، هما سيفارديم وحرمه ، وهما لاجئان من اليمن ، حديثا العهد بالزواج ، وأقرب الى ان يكونا طفلين يتصفان بالنحافة والرشاقة . لون بشرته قمحى أما هى فبشرتها خمرية . انا سمراء لكننى جميلة ، ابنة أورشليم انا . يمسك ذراعها وهما يسيران ، ويلتصق كل منهما بالآخر ، ويتبادلان القبل صامتين . لا يعرفان أحداً ، فما حاجتهما أذن الى التليفون ؟

على اليسار بالطابق الأول حجرة كبيرة ذات لون أزرق فاتح ، وهى خاصة برابيسكو ولا حاجة بها الى التليفون ، إذ تعلم إن كل المحادثات التليفونية يجرى مراقبتها مما يعنى انه فى هذه الحالة كانت ستضطر أن تتحدث بشكل مبهم أو رمزى أو ربما بشكل أسوأ من ذلك . أنها تعرف من الذين يراقبون المحادثات التليفونية ، فهى معجونة من نفس عجينتهم . إنهم لن يكتشفوا أسرارها من محادثة ، ولكن سيكون ذلك بعد التدوين الآلى وفحص معانى ما تقوله مما يتيح اكتشاف هذه الأسرار . فعندما لا تملك تليفوناً فأنت تحمى نفسك من الآخرين . ويقرر هؤلاء فى النهاية عدم التفكير فيك ، ويسقطونك من ذاكرتهم ، وهكذا ، على ، حد قولهم . تقل مشاكلهم بواقع شخص واحد هو أنت . وهى لا تستعمل حتى تليفون البقال وإن كانت ترسل فى بعض الأحيان «الغراب» لتتحدث فى التليفون . وأعتقد انها تتخذ من ذلك ذريعة للتخلص منها خاصة عندما تصيبها ثرثرتها بالدوار .

توجد أمام حجرة رابيسكو الحجرة التى بها آلة الاوكرديون . وحركة

الذهاب والاياب أمامها كثيرة ، والى جوار تلك الغرفة يقطن فى المشى أحد ضباط «السلاح الجوى الملكى» ولا أحد يراه أو يسمعه وإن كانت قبعته العسكرية معلقة على مسمار بحائط الممشى . وخارج حجرته زوج من الأحذية السوداء .

أما أنا فأقيم فى الحجرة العلوية ، لا يوجد بها تليفون وهذا أفضل ، كما قال حاجى فاسيلى ويخيل لى أنى لا زلت أسمعه يقول : « هذه العنزة لديها كراسة بالية تدون فيها الأسماء . أى اسم تذكره لها . وهى سيدة أصيلة المحتد ، ولذلك تعتبر أنه من المهين أن تطلب منك ابراز بعض الأوراق ، وبين فترة وأخرى ، فلنقل كل شهر مثلا ، يحضر شرطى يركب دراجة ويقفز منها أمام النزل ، ويشرع فى المناقشات معها ، فتقول له هذا ليس بفندق ، ولا استقبل فيه زبائن ، فلماذا تعذبنى ؟ .

وفى النهاية تحضر الكراسة . يزمجر الشرطى غضباً ويسأل : «اين جواز السفر ، التاريخ ، المكان ؟ أين كل هذه البيانات ؟» تتمالك نفسها وتعده أنه سوف يجد فى المرة القادمة كل شئ مكتوب . وتدس له بعض النقود فى يده ، فينصرف ثم بعد فترة يظهر من جديد . عندئذ يجب عليك إلا تبدو أمامه لأنه من الممكن فى هذه الحالة أن يلعب الشيطان دوره ، فيطلب منك ابراز البطاقة . وإذا كنت موجوداً فى حجرتك ، فلا تقلق ، ولكن يمكنك على أى حال القيام بالتجربة وعندئذ يمكن ان تقول إنك جئت من طرف سبينى ، محل البقالة الكبير بطريق يافا ، ويجدر أن تستخدم حيلة أخرى تبرر بها خروجك الليلى : فلتزعم مثلاً أنك ميكانيكى أو جرسون أو عامل بدار عرض سينمائى . لا تقل لها ذلك ، لأنها ستسألك أى دار هذه ، وقد تطلب منك تصريحاً مجانياً لدخول السينما . من الأفضل أن تقول لها

إذاً إنك تعمل بالاذاعة حيث تختلط الأشياء ، والإدارات وأمانات السر ، ولا تجد لذلك نهاية ...»

عجوز شهم ! عمل فيما مضى ترجماناً ومهرباً بعض الوقت ، لذلك فهو يعرف اناساً كثيرين وأموراً كثيرة . والدليل على ذلك إنه مرت ثلاثة شهور دون أن تعرف الغراب شيئاً عن زياراته وعندما غادر ابنها المنزل مع بداية الربيع عرضت عليها أن أترك غرفة الأوكرديون وأذهب إلى الجحر الذى كان ينام فيه ، وذلك للإقتصاد فى التكاليف .

رحبت بالفكرة فقد خفضت لي الايجار لكنها ربحت بذلك غرفة . فلا أحد يصعد إلى هذا المكان بأعلى المنزل ، وآمل أن ينسانى المستأجرون رويداً رويداً . أما بالنسبة للساكنين بالطابق الأدنى منى ، فقد رتبت أمورى على أن أذهب إلى الحمام فى أوقات بعد الظهر . وما لبث أغلب المستأجرين أن أصبحوا لا يعيروننى إلتفاتاً . وقد طلبت منى الغراب أن اتوارى عن العيان ، بل إنها شطبت إسمى من كراستها لأنها . كما تقول : لو ان المراقب جاء ، فكيف يمكنها ان تعترف له أنها تأوى أحداً فى جحر الفيران هذا ؟ أنهم سوف يغلقون لها النزل . على إننى أعتقد إنها شطبت إسمى لأنها تدفع الشرطى بحسب عدد الرؤوس . وقد رأيته مرة وحيدة . جاء بسترته الرمادية وسرواله القصير ، وكانت الريح تعصف فى الخارج بشدة . أما هو فلم يرنى . ولو كان فى النزل تليفون ، فسوف كانوا يزيدون من مضايقتها . وكانوا سيضطرونها الى ان تطلب من النزلاء أوراقهم .

- ٣ -

أواه يا «أناه» يا من نشأت فى كولونيا المشهوره بالغزالين والمصرفيين ورعاة الفن والأدب . كانت تلك أياماً أخرى ، أما الآن فإن تلك المرأة السليطة ستفقدك عقلك وتقصف عمرك وتجعلك تلحقين بأسلافك قبل أوانك . أمرتك بإحضار الطشت الكبير . فأحضرته لها ، طلبت ماءً ساخناً فأحضرت لها ثلاثة دلاء ، صعدت ونزلت بها درجات السلم . متحاملة . على نفسك ببطولة إن عظمتها كما ترين لا تقبل الإستحمام حيث تغتسل إمرأة من «الروزنتال» . بالأمس لحق بالأريكة بلل . قلت بتحفظ الأجدر إخراجها إلى المشى . قالت شامخة الأنف بغطرسة . هذا الأمر لا يخصنى ياعزيزتى ... كيف تقدم أميرة بعمل مثل هذا . أواه يا أناه ، يا من كانت لديك المربيات والوصيفات والطاهيات والخادمات والسائقون والحراس والبستانيون ، ابتليت الآن بمكنسة وممسحة وأميرة . فقاقيع هواء . جاءت بيبسكو وبوبيبسكو لوبسكو وفاكارسكو ، والآن ها هى الأميرة رابسكو تجئ من باريس عن طريق أنقرة ودمشق . للأميرات أساليبهن . ما أجمل هذه الأريكة ذات اللون الأزرق الملكى . أريدها فى حجرتى ، فهى تريح البصر . بكل سرور . سوف نحضرها لك ، وسوف تسمى غرفتك من الآن الغرفة الزرقاء . ولكن ها هى اليوم تقلل من شأنها فهى كما تقول ليست بأصيلة . إن التصميم واللون أقرب إلى إدوارد مانيه ، انه بورتريه لزوجة السيد مانيه وربما لو كنت زرت اللوفر لأدركت ذلك . ولماذا لا يكون السيد مانيه قد نقل العمل عن فنان من عندنا فى كولونيا ، وقد ألفنا إستقبال وافدين فرنسيين هناك . تقول لك كلا . بل إن الدولاب والأريكة الجلدية والمنضدة الزجاجية

كلها من تصميمات فرنسيس جوردين ، إبتدعها حوالى عام ألف وتسعمائة و ...... ما عدت تذكرين بالضبط . تعرفت به فى أحد المؤتمرات . وكان سيشبه المسيح لو أن المسيح عاش لسن السابعة والستين ، ولكنهم صلبوه فى سن الثالثة والثلاثين . ترى هل قابلت بذات المؤتمر السيد مانيه وتقول لك كلا ، هذا الأخير مات عام ١٨٨٣ . يالها من كاذبة . كل هذه الأكاذيب من صنع خيالها حتى تقلل من قيمة فيلدمان وتنتقص من موهبتها فى التذوق .

بقيت الأريكة في مكانها . لم يكن بإمكانك نقلها بمفردك . وحتى لو كنت قد جرجرتها لأيقظت الميجور و .... وأخرجتك إلى المشى حيث ظللت تنظرين إلى نفسك فى المرآة الكبيرة التى علقتها عند بابها حتى يتسنى للجميع إستعمالها . سمعتها تستحم وتغوص فى الماء . فى نهر الأردن يتم عمادهن للمرة الثانية بملابسهن . انحنيت تنظرين من ثقب الباب ، وكنت على أهبة ، الدخول عليها لتأنيبها . ضبطتك جارتها النمساوية فى حالة تلبس . دخلت لتأخذى الصينية ، وبدأت المزاح ، قلت لها أميرة رومانية أنت . وددت أن أعرف من أى خامة تصنع أميرة بينما إحمر وجهها وصدقت ذلك المزاح . الويل لنا لو فكرت الجارة الأخرى فى الأستحمام داخل الغرفة بدورها . إنها ضيقة ربما أسفل لوحة «ديرير» ولكن ياله من كذاب ، يا ألهى . المعمارى الكبير بفرانكفورت . أول معبد يهودى على الطراز التكعيبى فى العالم ، الثراء والعبقرية . أسرة روزنتال فلدمان . أحضر لك عملاً «لدرير» إحتفالاً بعيد ميلادك وكان هذا العمل مجرد مستنسخ ، إحتفظ بالأصل أعواماً كثيرة فى بيته . ، حبه الكبير ، كل شئ ظهر على حقيقته بعد . المكالمة التليفونية حينما كنت تغسلين سام « ماذا تقولين ، ماذا

تقولين ، هنا يا فراو أناه ، هنا . لمقدمات خطاباتها والمفاتيح والرهونات والديون . كيف يحل الظلام فجأة وتنطفىء الضياء . أنا لك فى الحياة وفى الموت . كيف يغزلون هذه الكلمات ، كيف يتمسكون بها . يجب أن أرحل مع سام إلى مكان لا يعرفنا فيه أحد لنبدأ حياة جديدة ، أرض الميعاد . الشعب المختار . فقاقيع هواء ، شخص يدعى «جرونسبان» قتل «فونرات» ، وها نحن قد حل بنا الخراب . أواه يا «أناه» من ذلك الشخص الذى يعمد إلى الإختباء . أيمكنك رتق جواربه بدلاً من البقاء ممدده على فراشك تنهشك الهموم . متى يغسلها . متى تجف . إنه نظيف على الدوام ، فانلتان ، سروالان ، بيجامة ، ثلاثة أزواج من الجوارب ، كلها مشتراة من هنا ، صدرية صوف ، قفاز ، لا يملك معطفاً ، أيقضى الشتاء بلا مدفأة . لابد إنه سيتجمد من البرد ، ما من كلمة ينبس بها . إستغنى عن وجبة الإفطار من قبيل الإقتصاد فى النفقات .

يفتح باب التاكسى . إنهما إثنان . أنت نائمة ، يا أناة ، سوف تضايقهما أسئلتك . نامى إذن . إنها جميلة ، على قدر لا بأس به من الحماقة . الدانوب الأزرق . إقتصاد فى النفقات يتكلف الأفطار ٢٠٠ ميلز ويتكون من بيض وزبد ومربى وقهوة ولبن وخبز وسكر . كانا يرغبان أن يتناولاهما الإثنان إفطاراً لشخص واحد فقط . حسناً فعلت ، تركت فخامته يخرج ، ثم أحضرت الصينية . أضفت ٥٠ ميلز كعقاب لهما . الآن سيفهمان إنك تعاملينهما كربة للقلعة . إنهم يعلمان إن إضافة ٥٠ ميلز سببها غلاء الخبز ، بينما الغلاء عاد فأصاب اللبن والبن مرة أخرى . كيف يمكنك أن تتدبرى الأمر اذاً .

ها هو تاكسى أخر . بالفرنسية مساء الخير ، طابت ليلتك ، لا تأتى بهم

إلى فوق حتى لا ترينهم . عندما تترك بابها موارباً تبدو فى المرآة الغرفة بأكملها سوف ترينها تخلع ثيابها ، ولكن يفصلك عنها طابقان ، وقد انتابك التعب ، فغلبك النوم . أواه ، يا أناه سوف يتأخر مجيئه الليلة أيضاً . متى تنامين فى النهاية ملئ جفنيك . عيناك ملتهبتان طوال النهار . تتثاءبين وتترنحين . لكنه يريد ذلك . وهو بحاجة الى الأحساس بأن ثمة من ينشغل به كما لو كان فى أسرته إنه يتعمد السير علي لوح الخشب الذى يطقطق تحت قدميه عندما تقولين له طابت ليلتك ، ينام هادئاً لأن ثمة من يسهر عليه . أواه يا أناه إنه ذو كبرياء ولهذا فقد كف عن تناول الإفطار ، فقد عرف كم يتكلف . كم كان سيكون الأمر رائعاً لو أراد ... كان سهلاً عليك ان تطردى «سام» منذ شهر مارس ولكنه لن يقبل ابداً ابداً .... أواه ، يا أناه ما دام مستمراً فى الدفع فهو راض عن نفسه ، لا أحد يعرف لماذا يختبئ . بكاء . لا بد إن الولد الصغير يتألم أو ربما يشعر بالجوع فحسب . إنهن بالأسفل يفسدن مدخل الدور الأول حيث يبدو كمغسل للثياب . يا للهول عندما تغسل الكنة حماتها العجوز تاركة الباب مفتوحا علي مصراعيه . أين تجد الشجاعة أن تتحدث عن كل هذه الأشياء ، تتحدث عنها وتضحك وهى تدعك بقطعة الإسفنج والصابون جسدها بينما يجلجل صوت العجوز بالضحك ثم يدلق الإناء ويطوح بما به من ماء سيلاتش ، وتضحك زوجة الإبن أيضاً وتسأل حماتها بالعبرية ما إذا كانت تريد المزيد وتجيب العجوز بما لا تسمعين ، ولكنك على أى حال رأيتها تقبل يدها . أواه يا «أناه» لا زال الوقت مبكراً ، والأفضل أن تنامى . وتصورى لو أن حماتك كانت على قيد الحياة وتفعل ذلك ....

ينخرط فى البكاء من جديد . لو أن أحداً يستطيع أن يطردهن . رب

المنزل إختفى . ربما لو أنك دفعت سام الى أن يقول للآنسة باميلا أن تكلم أخاها . هراء ، أنها تحميهن . سام أخبر الآنسة باميلا لتكلم أخاها ، ولكنها تضفى عليهن حمايتها ، حركة العلم المسيحى ، تعنى تجارة . وفى النهاية سوف تدخلهن المسيحية ، وستدخل سام أيضاً . وسوف ترين .

ولكن ما زال عمره إثنتى عشرة سنة أو ثلاثة عشرة بل إثنتى عشرة سنة وبضعة شهور . ترى هل تريده .. لا يبدو ذلك . إنها فى الخامسة والثلاثين بل وأكثر من ذلك ، إذاً ، لماذا يقولون .. نداء الرب ، الرسالة . هراء ، ولكن عينيها والحق يقال تشعان نوراً وذلك عندما تتحدث عن .. هنا يا أنسة باميلا باتلر ، القوة ياعزيزتى ستجدينها بداخلك قولي إنها كانت صفحة سيئة فى سجل حياتك وإفتحى فصلاً جديداً .

صوت حذاء . إنه المشعر رجل الشارمكية إنها الليلة الثانية . سوف يتأخر يا أناه ، افهمى ذلك ، انت تنامين . أول الأمر ذهب إلى الحمام . الليلة جاء متلصصاً كان عليه ان يستقل الأتوبيس من حيفا . ماذا لو أكتشفوا أمره . ربما وجد وسيلة للعودة قبل مطلع الفجر إستعمل السيفون ، إنها محظوظة ، تعلم ذلك . لا ارجوكم لا تتفوهوا عن ذلك بكلمة . إنها السعادة الوحيدة الباقية لى . إذا فقدتها فسوف أفقد آدميتى .

سعادتها الوحيدة أن يروى جوانحها طوال الليل أثناء نومها . يحدث سريرها الحديدى جلبة تصل الى حائط المبكى . ثم يقول لها انت تنامين . استيقظى . يجب عليك أن تغتسلى فتخرج لاتسترها سوى منشفة . وتجرى توا الى الحمام . فى حظائر العم كارل جلبوا للمهرة البكر ذكراً أصيلاً من عند الجيران . وقد كان الأمر أشبه فى هذا اللقاء بالصدمة الكهربائية . راحت الخياشيم ترتعش وهى تصهل ولكنها لا تحرك ساكنا ولا تريد مغادرة

المكان ، والعجوز يدعوها بحركات يديه أن تأتى إليه وبعد ذلك ياله من نهر تدفق . ثم أمسك بلجامها وركض بها عبر المروج الخضر . بينما مضى العم كارل يصيح به رفقاً ، رفقاً ، ولماذا الآن تركض . ياخال . وكان الأجدر بالتشرمكية الان الا تركض .

أختلط عليك الأمر يا أناه ، إنه الميجور ، أنت غير نائمة . إنها ليلة جميلة يا ميجور فاران كيف : آه ، أجل ليلة بلا قمر ، كيف . لعلها أشجار الكستناء . ما الأخبار . أقصد ما الأخبار من الجبهة . إنه مخمور من جديد . ماذا تريد منهم أن يفعلوا لك هؤلاء المساكين ولكن الأفضل عدم السؤال . طابت ليلتك ياميجور «فارن» ونوماً عذباً . نسيت ان تخبريه بتكالف تنظيف خوذته العسكرية وسوف ينسى ذلك . سوف أخبره غداً . وغداً أيضاً ستتنادين الخادمة وتحملان الأريكة إلى غرفته . معذرة . ولكن الميجور طلبها لغرفته ، فهى جد عارية من الأثاث . العلك تذكرين الأستاذ الذى كان يسكنها قبل مجىء الميجور يالهم من إناس . ويا لغرابة الأمور التى يراها المرء عندما يستضيف أغرابا عنده . أواه ، إنه كان مهذب الطباع ذلك الاستاذ جاء من جامعة أكسفورد ، وكان يتباهى بذلك . كان كلاسيكيا ، ملكيا ، وكاثوليكيا على حد قول ت.س. ايليوت أيضاً . ومن يكون ايليوت هذا لو سمحت لى أن أسأل يا سيدى البروفيسور ريتشارد . أنه ليس بشخصية ذات بال ، كل ما فى الأمر إنه أكبر شعراء العالم . ليس بالطبع أكبر من جوته ، إنه أكبر من شاعرنا شكسبير ، إذا كان هذا يدخل العزاء على قلبك .

كان يعرف كيف يتحدث دون أن يحرج ، كان يشحذ شفتيه كما لو كان سينطق بكلمة هجاء ، وإذا به يقول كلمة مجاملة ، أواه ما أجمل طقم الشاى

هذا يا فراو روزنتال . فيلدمان أقصد هذه المجموعة من بورسلين ليموج ، عندما أكل فى الطبق الذى رسمت عليه طيور الببغاء ، تصبح العصيدة أحلى مذاقاً ، أما إبريق الشاى فهو تحفة حقاً ، على الرغم من إنه لا يجعل الشاى للأسف أفضل نكهة . أرجو الا تأخذى هذا على محمل سيء . فقد كان من السمات المميزة لبطلات مستر فورستر إعداد الشاى الجيد . كان شخصية ظريفة مضحكة ، ببشرته المتوردة ووجنتيه الممتلئتين ، وشعره الأشقر المفروق ، وفمه الذى انطبعت عليه مسحة من الحزن . أشبه بطفل كبير لقى التعنيف . كان الوقت شتاء وكان يرتدى منامة حريرية ومن فوقها بلوفر أصفر بلون الكناريا . يمشى على أطراف أصابعه ، يجرجر قدميه ، يقفز مثل الأطفال الذين يؤدون حركات ... أواه ، يا أناه ما الذى بإمكانهم أن يتناقشون فيه كل هذا الوقت ، باليونانية . لم يكن قد صعد بعد إلى الغرفة العلوية ، وكان يقيم فى الغرفة المجاورة حيث الأكورديون . قال ريتشاردز إنها مبارزة نفسية . وقال الآخر بين الفلسفة والسياسة وقلت له أنت أنه معجب بك . خذ حذرك أذن لو حدث أن جذبك الى غرفته . فإجابك فعلاً لم أتنبه إلى ذلك فهو يبدو مهذباً ، وعلى غاية من الثقافة . وقلت له انت أنه سيوقع بك الخراب حيث أنه يريد الإحتفاظ بالمدفأة موقدة طوال اليوم . ما أن يغلق على نفسه الباب . يخلع ملابسه ، يرتدى سوتيان وسروالاً من حرير مزيناً بالدنتيل وينام هكذا ، لكنه لا يؤذى احداً ، على أى حال . وقال ياله من عالم مسكين . كم ينطوى على مآس . وكنت تريدين ولكنك لم تقولى له ماذا قال عنه . كانت ستكون فرصة ولكن ربما كان سيأخذ الأمر على محمل سيء ويرحل دون رجعة . أواه يا أناه . كانت الساعة الخامسة مساء وكان ريتشاردز يرغب فى أنيس لتناول الشاى معه .

هبط الظلام وكان المطر ينهمر . أين هو . فى عمله بمحطة الإذاعة . اسمعى يا فراو روزنتال – فلدمان . إنى أعاف أن أدس أنفى فى شئون الأخرين الخاصة ، ولكن قد يكون من الأفضل أن تكونى على بينة من الأمر ، فقد يأتى الوقت الذى تحتاجين إلى ذلك . لا أعرف ما إذا كان اسمه كالويانوس حقاً ولكن الذى أعرفه إنه لا يعمل بمحطة الإذاعة . أنا كما تعرفين مدير البرنامج اليونانى . ولست أذيع بذلك سراً كبيراً ، وأستطيع أن أقول لك الآن وقد نقلت إلى القاهرة ، قلت ربما كان مهندساً هناك أو شيئا من هذا القبيل . وقال كلا ، لأنه لا يوجد يونانى بين الفنيين ، وقلت ربما لا يكون يونانياً وقال أوه ، مستحيل ألا يكون كذلك فهو أكثر اليونانيين الذين عرفتهم أصالة . إن لديه الأحساس بالاعتدال والحس التراجيدى بالحياة . وكنت ترتعدين ، وفهم ريتشاردز وتحدث عن الشرطة سوف تواجهين متاعب. الأفضل أن تشطبيه من دفاترك. لا أعرف لماذا يلجأ إلى الإختفاء . لا يبدو هارباً من الميدان . وعلي مستوى الأفكار ، نحن مختلفان فى آلاراء مثلما يختلف النهار عن الليل . وربما فى قرارة نفسه يعتبرنى عدواً . أما أنا فلا أستطيع أن أبادله هذا الشعور . هناك شئ يجذبنى إليه يا فراو روزنتال فلدمان لديه بعض من الصفات الثمانية التى يتصف بها الإنسان حسب رأى المستر إيليوت . إنه على المنطق المجرد يفضل الحس المشترك وهو ليس متطرفاً على الإطلاق بل منفتح على آراء الآخرين وهو ليس من المتزمتين ولا أحادى النظرة . أنه على قدر كبير من الثقافة والمرح ودماثة الخلق . وهو يتحاشى التعنت ويفضل الإعتدال فى الرأى ، بل وثمة شيء فيه ربما نسيه المستر إيليوت ألا وهو إستشراف العدالة فى أفضل صورها ، ألا وهما الاحسان والرحمة . وما ليس فيه أسكت عن ذكره لأنك لو شهدت على ، ولا أعرف يا عزيزتى فراو فيلدمان كم ساعة تستطعين

الإحتفاظ سراً بمقابلة عادية ، سوف يعتقد إننى تحدثت عنه بما لا يسر ، لقد خلق المرء على النحو الذى حتى لو امتدحنا مآثره يعتقد أننا نذمه لأننا نغفل الخصال التى ليس فيه .

أنتهى العرض السينمائى فى دار الخيالة . من الغريب أن تكون جد قريبة بهذا الشكل ولا تسمعها . ربما لأنك بالطابق السفلى أما هو فلا بد أنه بالطابق العلوى ولكن كيف يسمعها مادام غائباً بالليالى ، أين يذهب ، مع من يتآمر ، هارب هو وقد أخطأ ريتشاردز . فراولين بوهم . الملازم اليونانى المغرور حاول الاعتداء عليها بالغرفة التى بها الأوكرديون . كم كان سيفيدها ذلك ولكن . مدرسة اللغة الإنجليزية فى ليسيه القديس يوحنا الصليبى . ترتدى ميدعة زرقاء موشاة ياقتها بالدنتيلا وتقوم بأعمال الغسيل والكى وتنشية الملابس . كانت تبدو لك جميلة حتى اليوم الذى إكتشفت إن ظفر إبهام يدها اليسرى محدودب مثل منقار الببغاء وكانت تطليه هو الاخر باللون الأحمر ، وتذهب كل ليلة إلى الحفلات لرفع معنويات قوات الحلفاء . فقاقيع . ، بينما تسرع فى الصباح حتى تلحق بالدراسة قبل دق الجرس ، فهم يتصفون بالحزم الشديد فى المدرسة ، تترك القصرية ملآنة ببول الليل أسفل السرير ، فتفرغين محتوياتها على شجرة الكافور ، بعد مغادرتها المنزل مباشرة ، وهى تتظاهر بعدم الفهم وتدير رأسها نحوك وتبتسم ، تعرف عليها المغرور وطلب منها أن تعطيه دروساً فى اللغة الإنجليزية . إتفقنا وليكن ذلك كل مساء . سوف أترك بابى مفتوحاً يا فراو أناه ولكن فى يوم من أيام الأربعاء بينما كان الجميع غائبين بالخارج . وذهبت أنت الى حفل الشاى الاسبوعى الذى تقيمه الأنسة باميلا طرحها على الفراش ، ومزق بلوزتها بينما راحت هى تركله وتستغيث طالبة

المساعدة . كان الآخر لا يزال فى الغرفة العلوية ، وكانت الليلة ليلة مقمرة من ليالى شهر مايو . سمعها ولكنه لم ينزل إليها فهو يعلم من معها ، فقد كان قد سألك عن سبب مجيئه ، ماذا يفعل عندها هذا الجندى المغرور بالأمسيات ، لحسن الحظ سمعتها العجوز ، فأرسلت زوجة إبنها إليها . يا إلهى ، كانت قد إفترسته . أمسكت به من وسطه ، طرحته أرضاً ، ضربته بحذائيها فى وجهه حتى أدمى ثم أعطته كثيراً من اللكمات والركلات ، فتدحرج نازلاً درجات السلم كلها ، أحضروا له القبعة والقفاز بينما كان الآخر يتظاهر بالنوم فى حجرته المغلقه ، كما لم تكن فراولين بوهم تريد إظهار نفسها لوجود خطيبها بالجبهة ولأسباب أخرى . فقاقيع .

سمع جرس المطرانية . طوال عشر سنوات لم تستطعى متابعة توقيتاته المرأة الوافدة من فيينا تريد الذهاب الى هناك . فى البداية يردن جميعاً ذلك ثم يشعرن بالملل . شجرة الكافور . كم يتأخر بزوغ الفجر . كالويانوس ، كالويانوس إرحم « أناه » التى تجاهد حتى لا يغلبها النعاس .

خفّت سرعة الريح ، وهذا شئ نادر الحدوث . الثعلب الذى يعلوه الصدأ ، يئن مع هبات الريح ثم يصمت . تنتابنى الرغبة ان اتناول الكتاب الذى أعارنى إياه حاجى فاسيلى (الكتاب المقدس ، مترجم عن النص الأصلى للجمعية البريطانية للكتاب المقدس) وأذهب به أسفل الكوة الصغيرة أبحث فى « نشيد الإنشاد» عن الفقرة الخاصة بالثعالب الصغيرة .

يتغير لون السماء من الزمردى إلى الأزرق . ويبقى هذا لونها حتى الفجر ، نجوم كثيرة ، كبيرة تبعث ضيائها الماسية مثل نياشين ثمينة تزين صدر مارشال سوفيتى . يبهرنى ذلك السحر الرائع ، وأمضى أشاهد تلك المناظر الباهرة ترسم بحبر صينى فوق الحوائط التى يعلوها الأفق المعدنى الأزرق .

أريد الجلوس تحت الكوة المضيئة ولكنّى لا أقدم على ذلك . أقف خلف الباب المغلق وأحاول التصنت ربما أسمع شيئاً مما يحدث بالممر . لا شئ ، هدوء . قالت الغراب بالألمانية إنها سوف تنزل الأن إلى الحديقة . كى تقتلع جذور الأزهار التى إحترقت من حرارة الجو . تحوط غريب .

ربما قامت إيمى بإصطحاب الضيف الذى جاء بغير دعوة إلى حجرتها . ربما جلس على الأريكة الجلدية ؟ ... الباب بلا شك ظل مفتوحاً ولكنى لا أستطيع سماع شئ من هذا المكان العالى شئ غريب ، لماذا لم تجلسه فى الممر رغم وجود شاى جاهز وبعض الشطائر . لا يبدو إن كلا منهما يعرف الأخر من قبل . قالت له بالإنجليزية للأسف بمبرتسبرج لن يأتى قبل الثامنة ، فأجاب النقيب الأمريكى بالالمانية بأنه حضر من أجلها شخصياً . لم أتبين ما اذا كانت قد

إضطربت لسماع ذلك ، ولكننى سمعتها تسأل هل حدث شئ ما ؟ تدخلت بينهما الغراب بهيئتها الفكاهية ، أما أنا فكنت قد أطللت ما إن سمعت صوتاً يطلبها وشاهدت الزى الحريرى الكتانى فتعللت بأنه لدى بعض الكتابة على أن أسارع إلى إنجازها ، وأغلقت بابى على عجل .

أتساءل عما إذا كان هذا الجيشان ، أو فلأسميه هذا التوهج ، الذى سرت دماؤه فى عروقى من جديد ، هذا الأقبال على الحياة ، هل له علاقة بإيمى . منذ اليوم الذى تعرفت عليها فيه انتعش عقلى وبدت لى الدنيا حلوة من جديد . أنتظر ساعة الشاى هذه . « ياللخسارة – هكذا كن يقلن عندما أنهض للإنصراف – ألا تستطيع البقاء قليلاً ؟ بينما أفكر فيما إذا كان لدى حاجى فاسيلى شئ جديد يبلغنى به ، وأشعر بالذنب لإهمالى فى التبكير بمعرفته . ربما كان هذا الشئ هو ما أنتظره منذ شهور « حزين أنا ، لأنى أفقد الصحبة الجميلة ولكنها التعليمات ، كما تعرفن » اتحدث حديثاً مبهماً عن الحرب والخدمة ، وانصرف مثقل القلب . أجد نوافذ العجوزين مغلقة ويبدأ هيامى فى الشوارع حتى الفجر .

حسناً فعلت عندما لم أوبخ الغراب فى المرة الأولى لأننى الآن كنت سأشعر بالندم . كنت أسمع جلبة كما لو كانوا يجرجرون قطعاً من الأثاث فى الممر وثرثرة بالألمانية . وكنت أتساءل كيف أنجح فى النزول إلى الحمام ، فعلى أن أحلق ذقنى ، فى لحظة اختفيت عن العيان وراء الحائط الزجاجى فى الأغوار حيث أفلحت الغراب فى تحويل المكان إلى مطبخ ومخزن للمخلفات . انتهزت الفرصة وتسللت مسرعاً وإن كنت قد لمحت الأريكة الزرقاء ومنضدة مصنوعة من الزجاج والنيكل أخرجتا من حجرة رابسكو . عندما فرغت مما نزلت من أجله ومضيت أصعد درجات السلم ، سمعتهن يتعاملن من الملاعق وأباريق الشاى . قلت لنفسى فلأخفض رأسى ولا ألقى على أحد التحية ، لعلى أمر دون أن ينتبه إلى أحد .

– أوه ، ياسيد كالويانوس ، تعالى كى أقوم بواجب التعارف . كنا نقول توا

إن متعة الشاى لن تكتمل إلا بصحبة رجل ظريف .

سولت لى نفسى أن أطبق يدى على عنق « الغراب » واخنقها ! تأجج وجهها بالتحمس لإجراء التعارف ، وعلت ضحكتها صاخبة دون أن تخلو من التردد أيضاً .

ألتفت كى أبدى عذراً من الأعذار ، فرأيت إيمى . كانت تجلس على الأريكة ، والإبتسامة على شفتيها وقد وضعت ساقاً على الأخرى وارتدت ثوباً قصيراً فوق الركبة . عيناها حبتان من العنب المسكى بلون الذهب والعسل قلت :

– لحظة واحدة أود أن أضع هذه الأشياء جانباً وأرتدى سترة .

نهضت إيمى واقفة ، مطوحة بشعرها وقالت :

– تعال كما أنت ، فهنا كل الرجال يتجولون بالقمصان قصيرة الأكمام .

لم أكن منذ أمد طويل قد سمعت لغة فرنسية بهذا النقاء لا شرقاً ولا غرباً ، خالية ، من اللهجات البربرية .

قامت « الغراب » بإجراء التعارف . وبينما كنت أقول لنفسى « هذه يد معبرة وأصيلة » سمعت الغراب تقول :

– كان زوج فراو إيمى وزيراً فى حكومة شوسنيج ، أما الأن فهما فى أورشليم لأنه عين بمحطة الإذاعة

تجمد الدم فى عروقى ! لم أكن أعرف ماذا يمكن أن يكون قد قال لها عنى ولهذا جاء حديثى بشكل غير محدد . قلت إن إدارات الإذاعة منفصلة عن بعضها إنفصالاً كبيراً ، حتى إنه قد يمر عليك شهور ولا تتعرف الى غير إثنين أو ثلاثة من العاملين فى إدارتك . ظلت عيناى مسمرتين على الإناء الفضى وعلى الغطاء الكتانى المنشى الموضوع على المنضدة والمزين بنقوش أشجار السيكلمان .

وقالت إيمى :

– بالطبع ، فزوجى لا يشغل نفسه بغير النمساويين الأحرار ، والآن ها أنذا قد تعرفت على يونانى ! . كنت أقول لفراو «أناه» عن رغبتى الكبيرة فى ذلك منذ صباى ... منذ أيام المدرسة .

تورد وجهها قليلاً . نهضت « الغراب » لتحضر لى قدحاً وملعقة وبدت كأنها ترقص فى مشيتها .

– إن السيد كالويانوس انسانى النزعة ، ويقدر كثيراً شعر مستر إيليوت .

ما هذا الهراء الذى تقوله ؟ حاولت الدفاع عن نفسى ، وإنخرطنا فى المناقشة الأدبية ونسينا كل شئ .

ملئ إبريق الشاى بالماء الساخن مرتين . كانت إيمى تملك أسلوباً جذاباً فى صب الشاى بينما عيناها تنظران إلى شفتى منتظرة فى هدوء وصبر كلمة «شكراً» حتى تتوقف عن صب الشاى فى هدوء وإنصياع . ثم تبتسم لتسأل من جديد ، « هذه المرة باللبن أم بدون ؟ » أدركت منذ الوهلة الأولى إننى لم أتعلم بعد كيف أفضل الشاى .

دار الحديث عن هولدرلين وشرعت فى إلقاء بعض الأبيات من شعره وتظاهرت بعدم فهمى للألمانية ، فهذا ما كنت أخبرت به « الغراب » من قبل . وقامت إيمى بترجمة ما أنشدته :

« الأرض محملة بالكمثرى الصفراء وبالورود البرية » .

ولكنها توقفت عن الترجمة قائلة فى احباط .

– كلا ، إنى أقتل بذلك هذه الأبيات . هى بالالمانية شئ أخر ...

وفجأة سألتنى عن الشاعر الذى يستحضر أمامى اليونان إستحضاراً أكثر

تدفقاً بالحياة .

قلت لها :

- هناك صوت لا يقارن بأى صوت أخر بالنسبة لى الآن على الأقل .

صعدت إلى شفتى أبيات البحر حبى الدائم ! فى قصيدة لڤارناليس ورحت أنشدها مصارعاً ذاكرتى الخئون . ثم قمت بالترجمة . فرجتنى أن أعيد الأبيات باليونانية : «الى أن يأتى اليوم الذى ستأخذيننى فيه أنت ، ياساحرة ، بين خلجانك المزهرة كى تقتلعينى من هذا الجحيم الأسود كى تحملينى بعيداً عن هذا السواد الملعون» .

قالت :

- أشكرك . إمتلأ يومى بالجمال . !

راحت الغراب تقلب النظر بيننا . تارة تنظر الى إيمى . وتارة تنظر إلى ، وتهز رأسها ، وقد تخضبت سحنتها بالدقيق . كنا نركن إلى الصمت وقد أستبد بنا الإضطراب . سيطرت على انفعالى ، وأكملت القصيدة .

قطعت الغراب الصمت بلا مقتضى ، قائلة :

- لم تقل شيئاً عن قطع الحلوى الرائعة التى جلبتها لنا فراو بمبرتسبرج . لم تكن بحاجة سوى الى ثلاثة أيام فحسب كى تدرك أن الحلوى عند زانديز أفضل منها عند فريد ، دون أن أقول لها شيئاً .

لزمت إيمى الصمت . وددت أن اقول شيئا ، ولكن ما كان يرد إلى خاطرى لم يكن مناسباً أن أقوله . فى آذاننا لا زال يطن قول الشاعر عن السواد الملعون ، وفجأة شعرنا من وراء الستار الداكنة التى بسطناها لتفادى الضوء ، محيطاً يغلى حمماً . كان العالم يحترق .

قالت إيمى :

- الشئ الوحيد الذى لا أستطيع أن أتعود عليه هو الخبز . إنه أسود مملوء بحصوات صغيرة ، وهو على الحال ذاته فى المطاعم أيضاً .

قالت «الغراب» موضحة :

- هذا خبز التموين . لا حظوا إننى أستخدم أيضاً بطاقة إبنى ، وأصرف حصته من التموين ، ومن غير ذلك ما كان بإمكانى أن أدبر احتياجاتى . ربما لو رجوت الميجور فاران فإنه يحضر لك بين الحين والحين رغيفاً من الخبز الأبيض من كانتين «النافى» ، ولكن سيادة الوزير يستطيع أن يجلب مثل هذا الخبز من كانتين الاذاعة أيضاً .

ردت عليها إيمى قائلة :

- أوه ، إنك لا تعرفينه .

كان يجب على أن أقول شيئاً كى أسبق «الغراب» قبل أن يمضى بها منطق الحديث فتستدير إلى الآن .

بل وربما أنتابتها الدهشة من عدم إقتراحى عليها ذلك .

- سمعت عن مخبز يبيع خبزاً أبيض بأسعار ليست مرتفعة . سأحضر بعضاً منه لتجربته .

وهنا نهضت . نظرت الى ساعتى . لو إن حاجى فاسيلى ترك نافذته مواربة فلا بد أنه الآن يجلس على جمر مشتعل .

صعدت . إرتديت رباط عنق وسترتى كما أخذت مصباح الجيب ونزلت . كانت نظرات إيمى وإبتسامتها تبعث الى بالتحية ، وضاءة ودافئة .

قالتا مع السلامة ، وأتكأت كل منهما بمرفقيها على مسند السلم .

كانت نوافذ بيت العجوزين مغلقة ولكن وفد بعض الأصوات من تحت الكرمة . كان حاجى فاسيلى يقول شيئا من تحت أسنانه بلهجة مكبوحة ومستاءة بينما كان ثمة شخصاً أخر يرد عليه بصوت عال وبلهجة سوقية غير مبال بالجيران ، ربما كان «أدم» . كانت أشجار الكافور فى الطريق العام تتمايل . ومن خلف الحظيرة وفد خرير الماء يسيل من الصنبور فيملأ الحوض ، شرع ضفدع يسمعنا نقيقه فى ظلمة الحديقة الرطيبة . بادرت بالإنصراف مهرولاً .

غيرت خط سيرى حتى لا أمر من جوار دار السينما ، إنتظرت فترة من الوقت عند محطة الأتوبيس . من فيلا يسودها الظلام وفد صوت بيانو . كان ثمة شخص يعزف « موتسارت » ، ومثل موجة غمرنى الحنين إلى فيينا ، وإن لم أكن قد ذهبت إلى هناك قط . وعندما كنت أسمعهم يتحدثون عن جمال فيينا كنت أتخيل شيئاً شديد الحلاوة والعذوبة ، شيئاً لذيذاً مثل « القشدة الشانتيه » مما كان يثير شهيتى وتتقلب له أمعائى . ولكن ها هى إيمى الأن تثبت لى إن تصوراتى تلك كانت صبيانية . ولكن ما أدرانى ، وكيف كان بإمكانى أن أحكم على الأمور بتلك السرعة ؟

وصلت فى سيرى أمام بناية برج داود الصماء ، إنحرفت يساراً متجهاً إلى الخباز بالحى الأرمنى . إنتابنى الخوف من أن أرغفة الخبز الأبيض ستنفد ولن يتسنى لى اللحاق لشراء شئ منها ، قالوا لى إن الوقت لازال مبكراً وعلى أن أعاود المرور بعد ساعة . قلت لنفسى على أن آكل شيئاً ، وغصت فى الحى العربى . وفى حوالى الساعة الحادية عشرة عدت الى المخبز . أخذت رغفين ساخنين يفوحان برائحة شهية . ثم واصلت السير إلى الحى الروسى . وفى اجتيازى الميدان الصغير المفروش بقطع الحصى الصغيرة والمنزوى بين المستشفى الانجليزى والمستشفى العربى والمحاكم ، سمعت ورائى صوت أحذية تغوص فى الحصى الرفيع وأقبل على ظلان لم يكن بمقدورى أن أميز صاحب كل

منهما ، فأوسعت الخطى وصاح فى أحدهما سيمونيدس ، هيه ! سيمونيدس ! .

كان هذا غارلاس . عرفته من صوته . ولم يكن قد رآنى قط فى ملابس مدنية . كما إننى غيرت تصفيفة شعرى ، وحلقت شاربى . كيف عرفنى ؟ كان صديقاً طيباً ذا روح حلوة . هل أقف ؟ ولكن من هذا القادم معه ؟ رأيت أن أتعرف عليه فى ظل سراى المحكمة بينما يمر هذان الإثنان تحت المصباح الازرق لمستشفى الصليب الأحمر . أدرت رأسى . رأيت جندياً بصحبته مجندة متطوعة كان يجذبها من ذراعها حتى تسرع هى بدورها قليلاً . من الأفضل أن يبقى فى شك من أمرى . هذا ما قلته لنفسى . وكلما قل ما تعرفه « الرؤوس المقطوعة » عن تحركاتى كان هذا أفضل . هرولت مسرعاً وخرجت من هذا الحى المحاط بالأسوار . قررت ألا أنتظر حتى الفجر كى أعود «للغراب» فلن يكون ذلك حصيفاً . كنت أسير مرهفاً أذنى حتى أسمع ما إذا كان هناك من يتبعنى . وصلت الى الحى الألمانى دون أن تصادفنى مشاكل . وكان بيت «كولير» غارقاً فى الظلام . شاهدت نافذة إيمى . يعكس الزجاج ضوء القمر بينما شخص ما قطع الأغصان العليا من شجرة الكافور التى كانت حتى الأمس تحجب الرؤية . فكرت فيما سأقوله عن عودتى مبكراً . فتحت باب الحديقة ورغم حرصى الشديد إلا أن ألواح الخشب أصدرت صريرها مع ذلك . ولكن الغراب لم تنطق بكلمة وتظاهرت بأنها نائمة .

فى اليوم التالى ، نزلت فى المساء مبكراً وقدمت لهما الخبز فأعربا عن سرورهما وإن كانت الغراب تتكلم كثيراً . حاولت أن تكون عبارة تفصح بها عن البيت وكيف إنه أصبح أكثر جاذبية ، لكننى تظاهرت بعدم الفهم ، وإبتسمت لها كما تبتسم لرفيق سفر يحول صخب القطار دون أن تتبين ماذا يقول . ومر الأمر بسلام . كانت ترتدى الرداء المنزلى الأصفر ولكنها كانت قد غيرت من تصفيف

شعرها ويبدو أن موضة رابيسكو قد أضحت قديمة وحلاوتها عفا عليها الزمن . إنها تريد الآن أن تقلد تصفيفة شعر إيمى ولكنها ذات شعر قصير لا يصلح تضفيره فيبدو كريش نابت على مؤخرة دجاجة عجفاء .

نهضت بعد قليل وذهبت إلى غرفة إيمى ، وعندما خرجت من هناك إكتست مشيتها مسحة رسمية ، يداها ممدودتان ووجهها علاه الوقار ، وعيناها الزرقاوان مسمرتان على آلة الأكورديون . أخذتها وأسندتها على ركبتى .

– إعزف لنا لحناً ياسيد كالويانوس . فراو بمبرتسبرغ تتوق لسماع عزفك .

كانت إيمى تجلس غائصة فى الأريكة مفتوحة الذراعين . أومأت برأسها بالموافقة وإبتسمت لى ، تذكرت الألحان التى كنت أعزفها فى حانة «أدريانوس» بمونبرناس فى تلك الأيام التى توقف أبى عن ارسال معونته المالية وكان على أن أحاول المضى فى تدبير نفقات معيشتى دون أن أتوقف أيضاً عن إكمال دراستى . وقد كان ما أعرفه من ألحان أنذاك لأستنفد ، وكانت الغراب تهب واقفة وتطلق كلمات الإعجاب لما أعزف قائلة :

– ما أجمل هذا اللحن . إنى سمعته من قبل .

قاطعتنى إيمى وقالت .

– لما لا تعزف لحناً يونانياً ؟

فبدأت أعزف أغان شعبية من روملى وكريت موريا .

– وماذا عن الكلمات ؟

وعندما ترجمت الأغنية التى تقول :

يامن تقودين الرقص وتفوقين العروس فى جمالها .

نهضت إيمى وأقبلت نحوى تقبلنى . أقسم على ذلك . وفجأة أخذت وجنتيها

بين كفيها . كانا شديدى الحمرة . أدارت لى ظهرها وجرت مبتعدة وفى إثرها إنصرفت الغراب ، رافعة ذراعيها للسماء .

لم أتوقف عن العزف والغناء بصوت خافت . خرجت رابيسكو من الغرفة الزرقاء ، أغلقت الباب ثم نظرت إلى نفسها فى المرآة . هذبت من جدائلها . مرت أمامى شامخة الأنف ومضت مخلفة من ورائها أريج عطر ثقيل . بعد قليل عادت إيمى والغراب . كان العطر الذى جلباه أشبه بنسمة فى ليلة صيف حار . عادت إيمى تبتسم من جديد وعيناها تلمعان بوميض ذهبى . قلت لها عبارة «هايدرلين» بالألمانية .

« كل شئ على مايرام » .

ولم لا ؟ أجل كل شئ على ما يرام . تتعاقب الفصول والساعات والأيام والليالى والزهور والثمار . هذا هو القانون ، وهذا هو النظام . أما غير ذلك من الآم وويلات ومصائب وحروب فإنها تتخذ فى النهاية مكانها فى الإنسجام الكونى والسكينة . إن بهاء الانسان لا يموت ولا يزول إلا بزوال الحياة ذاتها من الأرض .

ندت من الغراب أقصى درجات الدهشة وقالت :

- أخ ! ولكنك تتحدث الألمانية أيضاً !

وأجبتها بالألمانية :

- أجل ، أجل .

وأومأت لها برأسى بينما إنطلقت أصابعى على أوتار الأكورديون فى لحن جنونى من الحان الرقصات القوقازية ، وكان يجب أن أفرغ من كل هذا ، كى أنصرف . ترى ماذا كان يقول أدم أمس للعجوز .

حدث التفاهم بينى وبين إيمى . تقبلت عبارة هايدرلين بهدوء ، كما يتلقى

الملاكم العتيد أعنف الضربات من خصمه ، دون أن يفصح بشئ . وقد كان اليوم دورها أن تفاجئنى هى . ومن يدرى ما الذى ستفاجئنى به . ولكن الحرب جاءت وقطعت علينا كل سبيل . ترى متى سيرحل عنا الامريكى ويتركنا لحالنا . كان الغسق ينزل على الكون . « أمسكوا بالثعالب ، الثعالب الصغيرة التى تخرب الكروم ، حيث أن كرومنا قد اينعت » .

— ٥ —

ليست المسافة بين بوابة دمشق وبوابة حيفا مسافة بعيدة . ولو أنك إخترقت المدينة القديمة وخاصة لو أخذت حذرك حتى لا تضيع فى متاهة الأزقة الصغيرة ، ولا يفقدك الضوضاء والزحام والعثرات والرائحة العطنة والحمير المحملة التى تدفعك جانباً حتى تشق طريقها – لا يفقدك كل هذا هدوء أعصابك ولا ترعبك الجمال التى تبرك فجأة وتقذف من خطمها لعاباً مجمداً وهى تطلق حمحمتها وتشق طريقها فى إصرار . لو أخذت حذرك من هذا ولم يرهبك شئ من ذلك فإنه يمكنك أن تقول أيضاً إن الطريق حسن لأنه يتميز فى الأصياف بظل وارف . على أن إيمى إتبعت الطريق الآخر الذى يكاد يحاذى الأسوار من الخارج ولكنه ملئ بالمرتفعات ، وعر وخال من الأشجار . كانت تتلمس الهدوء حتى تستطيع التفكير . وقد قالت لبينى الذى عرض أن يأخذها بسيارته برفق وحزم « كلا ، أريد أن أسير بمفردى » .

كانت الفيلا التى يسكنها الأمريكى عند أخمص التل الصغير أمام بوابة دمشق محاطة بأشجار ضخمة عجوز ، أشجار توت وتين . وجدت إيمى نفسها فجأة فى لهب الظهيرة . الشمس تقذفها بأسهم نارية ، والسماء الرمادية التى تعمى الأبصار تضفى على المنازل الحجرية والتراب الأصفر على الأرض المحيطة بها لمعاناً شديداً لا يطاق . أخرجت النظارة السوداء من حقيبة يدها لتحمى بها عينيها ولفت رأسها بالإيشارب كما غطت به عنقها أيضاً . لا يقف أحد على درجات السلم الرخامية . وسعت الخطى .

فى حلقها طعم لحم ضأن وكبريت . تلفتت حولها . لا أحد هناك . بصقت

وأطلقت صيحة خافتة محدثة نفسها « ياله من شئ مقزز ! » ثم فكرت وقالت « كلا ، لقد راق لك . لا تنكرى ذلك » كانت تسترجع ما حدث . تضغط على نفسها وتتوسل إلى ذاكرتها أن تنظر إلى ما حدث وكأنه عرض من العوارض البغيضة التى يستطيع الزمن على أى حال أن يخفف من وقعها متخذة فى مسيرته مواقعها الصغيرة مثل ومضات خاطفة لا تلبث أن تنطفئ فى خضم الحياة الجديدة التى استشعرتها بشدة ما أن وصلت الى هنا ، حياتها المضطربة فى هذه المدينة التى لا حاكم لها تؤلها لأول مرة . ويجب أن تحل هذه التعقيدات جميعاً خلال ساعة أو ساعتين . « إعتدت على تصنيف أمور الدنيا الى نوعين الحسن والقبيح ، إلى سار وبغيض ، والآن عليك أن تحسمى أمرك وتحددى ما الخير وما ليس كذلك » كانت تمر بأزمة ، هذا كل مافى الأمر وكشف تغيير مفاجئ فى الأضاءة شيئاً مخيفاً . كان هانز يرتدى قناعاً . الزوج الذى إرتبطت به فى هذه الحياة بل وفى الحياة الأخرى كما يقولون لم يكن ذلك الذى كانت تظنه ولا هو الذى كان يتركها تتصوره . وتساءلت «أليس بإمكانه هو أيضاً أن يقول الشئ ذاته عنى» .

فى الثانية كان ينتظرها فى مطعم أستوريا . كيف ستواجهه اليوم أيضاً وهل ستقول له ما تعرفه ؟ وما الذى سيحدث بعد ذلك ؟ كان العرق ينساب خلف أذنيها مبللاً «الايشارب» . أشعلت سيجارة لتطرد المرارة التى تملأ فمها . الى جوارها سيارة «فورد» قديمة تصعد المنحدر مغروزة فى الأرض محملة بعربان وأقفصة . رأها شخص وهى تدخن فرماها بكلمات إحتقار . وعند المنحدر غطى ضجيج ألواح الصاج المتهالكة على قهقهة السائق ومرافقيه . إستدارت نحوها عشرة وجوه ذات بشرة قمحية غطتها التجاعيد وثبتت أنظارها عليها ساخرة دون أن تتفوه بشئ بينما توهجت عيونها بالرغبة فى الاستحواذ . توقفت إيمى وقد تملكتها الحيرة فهى على الدوام إزاء عدوانية الناس الغير متوقعة تبدو غير مستعدة ومنزوعة السلاح .

مضى الطريق الأسفلتى الآن ماراً وسط أشجار زيتون قديمة ، عريضة ومخوخة الجذوع . أمسكت إيمى بخيط من عقدة أفكارها المتشابكة ومضت تشدها .

«بينى كورتمير من أو . دابليو . دابليو ، وأعتقد إنك تعرفين ما هذه المنظمة» هكذا قدم نفسه إليها .

لم تجد حاجة إلى أن تقدم له مقعداً ، ألقى بمعطفه على المنضدة وأنهد جالساً على الأريكة الجلدية . مدد جسمه . رفع ركبته ووضعها على مسندها المعدنى . كان يرتدى جورباً قصيراً مطوياً فبدا ساقه غليظاً غزير الشعر . وكان شعره مسنداً الى قميصها الداخلى المنسى على ظهر الأريكة . بادرت إيمى فلملمته . ثم جلست عند حافة السرير ، بينما بقى الباب مفتوحاً خلف ظهرها .

أجابت قائلة :

– أظن إنها تجمع بين عمل المخابرات والرعاية الترفيهية لأفراد القوات المسلحة بالجيش الأمريكى .

– فلتقل إنها شئ من هذا القبيل . لا أهمية فى ذلك .

يبدو أن مايك لم يشرح لك إختصاصاته جيداً .. إحمر وجهها .

كان مايك نيكلسون فتى أشقر ذا قوام ممشوق مثل شجرة أرز حمراء جرى تحطيبها من غابات ايداهو تواً . كان مغرماً بها . يجلس فى بار شبرد صامتاً ويمضى ساعات طوال فى الشراب مختلساً إليها النظرات مثل كلب خائف . أصبح بالنسبة لها كابوساً . أصابعه التى تتحرك فوق رخام البار ، دون توقف ، تشعر بها على ظهرها تحصى فقراتها . ذهبت إلى غرفته ، ثم إعتادت الذهاب اليها بعد ذلك . وقد أصابتها هذه التجربة بالأحباط .

وقال بينى :

- رأيته فى القاهرة منذ أسبوعين . بدا لى على غاية من الإرهاق ، فألمحت له بإحتياجات البرنامج النمساوى فى أورشليم . وافق الانجليز كما ترين ولكنى كنت أتوقع فحسب أن أجدك فى أستوريا أو فى فندق كنج دافيد .

نهضت إيمى قائلة :

- أيها السيد النقيب ، أعتقد إنه يجب أن تتصرف فوراً .

كانت تحاول جاهدة أن تتحدث بصوت خافت حتى لا يسمعها اليونانى المقيم بالدور العلوى ، فلم يكن من الضرورى أن يعرف مثل هذه الأمور . ولكنها كانت تنادى بكل قوتها الروحية فراو أناه كى تأتى . حك «بينى» ، ذقنه بشدة ، فك أزرار قميصه الحريرى الكتانى وتحسس شعر صدره . قالت إيمى لنفسها ، أنه من أولئك الذى يغطى الشعر ظهورهم مثل القردة . وإحمر وجهها من جديد . ظلت فى مكانها واقفة . قال لها بأسلوب هادئ مستفز :

- أجلسى يا سيدتى الشابة . لا تثورى . أعرف إنك تتوقعين زيارة من العقيد ديفيز ، ولهذا فإنك لا تصدقيننى كل شئ رتب بتدبير من مايك .

عادت إيمى تجلس قائلة :

- كل شىء ؟ حتى إنسحاب الجنرال ريتشى على الجبهة الليبية ؟

- بالطبع ، ولكن هذه هى الحجة التى تذرع بها الهر بومبرتبسبرج عندما طلب منا أن نرسله إلى واشنطن .

- أكاذيب ! أنتم ايها الأمريكان الذين كنتم تريدون إرساله بعيداً لكن زوجى إختار أورشليم حتى يكون بجوار الجبهة .

- ربما هذا ما قاله لك ، ولكن الحقيقة هى إنه بمجرد علمه إن الانجليز عينوه

هنا إعتقد إنهم فعلوا ذلك لإبعاده عن رئيس الاساقفة «تستا» المندوب البابوى بالقاهرة فتملكه الخوف ولجأ إلينا طالباً الحماية فأوضحنا له إن نقله الى الاذاعة كان بناءً على تعليماتنا فهدأ روعه ولكنه طلب أن نوفر له مكاناً فى قطار النوم وفندقاً للإقامة ففعلنا كل ما نستطيع . وتعلمين انت الباقى .

- إنها حكايات لأطفال صغار . إدارات بأكملها تنقل ، أفراد عن وظائفهم يبعدون ، برقيات ترسل ، إسراف وتبذير . من أجل ماذا ؟ من أجل إشباع نزوة لنقيب فى «الأودبلو دايلو» ؟ وروميل يكاد يطرق أبواب مصر ! مثل هذه الأشياء لا تحدث فى ساعات مثل هذه ! .

- ومن أجل ماذا تقوم الحروب فى نظرك ؟

أسقط فى يد إيمى ، فقد كان الرجل يبدو مؤمناً بما يقول فهو إما مجنون وإما مرسل إليها بهدف الإيقاع بها فى حبائل مؤامرة غير مفهومة . أو ربما تظلمه فقد كان عيبها على الدوام الوصول إلى استنتاجات متسرع فيها . فللأمريكان عقلية غريبة . ومن خلال حديثها مع مايك تساءلت مراراً عما ينتظره الأمريكان من هذه الحروب فقد كانت إيمى تلمح هوة فاصلة بين ما أعلنه روزفلت من مبادئ وبين تصرفات الأمريكان فى مصر .

- كانت لدى صديقة فى أيام الطفولة هى ميتسى بولاك ...

قاطعها بينى قائلاً :

- يهودية بالطبع !

- ولكنك أنت أيضاً يهودى ، كما أعتقد .

- أوه ، انى أمريكى . هناك فرق .

نظرت إليه إيمى من جديد فاغرة الفم . وربما كعادة من عاداته دس يده بين

فخذيه وراح يضغطهما لا شعورياً .

أصابها ما يشبه الدوار ، نهضت ، وخرجت إلى الممر حيث الأريكة والمنضدة الصغيرة والشاى المصبوب فى الأقداح الذى أضحى بارداً .

كانت حرارة الجو لا تحتمل . شعرت إيمى بإرتياح عندما إكتشفت أنها تقترب من أشجار حور وسرو خارج الدير اليونانى الجديد . ولكنها لم تتوقف فقد كان ثمة شخص أوروبى متقدم فى السن يوليها ، ظهره ، منفرج الساقين ويكاد يلتصق بجذع شجرة . وعندما أقتربت منه فعل ما كان يستحيل لرجل محترم أن يفعله . من خلف نظارتها السوداء إستطاعت إلتقاط تفاصيل مثيرة . نقلت أنظارها بسرعة إلى الأحجار السوداء الكستنائية فوق الهضاب البعيدة المحترقة ، وتساءلت عن التعليقات والمقارنات التى كانت ستجريها «ميتسى» لو كانت قد رأت هذا الرجل .تمالكت نفسها حتى لا تنفرط فى الضحك . وسألها «بينى» فى الغرفة حيث يوجد الأكورديون ، دون أن يغير من جلسته :

– ماذا كنت تريدين أن تقوليه عن صديقتك ؟

– كانت تكرر القول إن الوضع مع دولفيس أفضل على أى حال من الوضع مع هتلر ، ومع ذلك فقد قتلتها قذيفة لأنصار دولفيس أمام بيت والدى ، عندما حضرت للأستفسار عن أخبـارى ، وقد كنت آنذاك مسافرة فى رحلة شهر العسل .

– عمل زوجك سكرتيراً للمستشار ، أليس كذلك ؟

صاحت إيمى :

– لا توجد أى علاقة ! سبق أن قلت لكم . فقد تزوجنا قبل أن أعرف من هو فى الحقيقة «دولفيس» وعندما وقعت أحداث مارس كنا ببودابست .

قال بينى ، وقد إكتست ملامحه مسحة غريبة :

– بالطبع . وماذا يعتقد الآن عن ذلك الدكتاتور ضئيل القدر ؟

– هذا يخصه هو ! أما ما أستطيع أن أقوله انا ، فهو ما أعتقد أنا عنك . وهو نفس الشيء عن «دوفليس» أيضاً !

قال بينى بالأنجليزية ، وهو يكز على أسنانه :

– يا أيتها الراديكالية الصغيرة العطنة ! إن لم أكن مخطئاً ، كان أبوك عضواً فى «السوتزبوند» . اليس كذلك ؟

كانوا يعلمون هذا أيضاً ! «كلا ، كلا ، إتركوا كبار السن فى حالهم » هب صوت بداخل إيمى متوسلاً بذلك من أعماقها . كانا يعيشان الآن وحيدين فى غرفة بواب «بفلورينسدورف» ، أملنا فى رؤيتك ثانية هو ما يبقينا على قيد الحياة . هذا ما كتباه فى خطابهما الأخير المرسل من خلال الصليب الأحمر ، وقد تسلمته منذ بضعة أشهر فى القاهرة ، وهو آمل بنسبة واحد فى المليون لو أن هتلر كسب الحرب عاجلاً ... ولكن حتى فى هذه الحالة ، كان من المشكوك فيه أن يسمح لها أن تعود إلى وطنها .

نهض بينى ، وبدأ يتسكع فى الغرفة حتى توقف أمام لوحة خشبية من أعمال «ديرير» . الموت والجوع والحرب والوباء هم الفرسان الأربعة لسفر الرؤيا . سألها لماذا لاتنتقلان للإقامة بأستوريا . لا أرى المكان هنا لائقاً بكما .

قالت إيمى بسخرية :

– لكنك لم تقل لى بعد كيف سترغمنى أن أفعل شيئاً مثل هذا . ؟

إقترب «بينى» منها وهمس فى أذنها :

– ما رأيك لو قرأ الإنجليز الرسائل التى يرسلها زوجك إلى البابا ؟

دهشت :

– هانز ؟

أشار بينى لها من النافذة إلى المطرانية الألمانية التى تشبه قلعة من قلاع العصور الوسطى تسطع من بعيد فى غروب الشمس بضياء برتقالية .

كانت فراو أناه قد طلبت تشذيب أغصان شجرة الكافور .... يبدو المشهد الآن أشبه بكارت بوستال . هذا ما قالته لإيمى ، وهى تطل من النافذة زائغة النظرات . قال بصوت خافت لا تتحدّوا الأمريكان ! وفى انحنائة نحوها لمست شفتاه الزغب على بشرتها خلف أذنها ، «عن طريق تركيا ، وفى أنقرة يتلقاها فون بابن» ورددت إيمى السؤال :

– هانز ؟

وإستدارت نحوه حتى تراه على نحو أفضل . احمرت عيناه ، واتقدت أنفاسه ..

– أجل هانز ، لدى الإنجليز مجرد شكوك . يريدون أن ينتحلوا عذراً ويرسلون به إلى أنقرة ، وسوف يضعونه تحت المراقبة ، ليتبينوا ما إذا كان سيقوم بالأتصال بأحد .

قالت إيمى بصوت خافت مثل صوته :

ـ أنتم الذين حرضتم على ذلك .

راحت تنظر من قميصه المفتوح إلى الشعر الذى يغطى صدره ، بينما راح وريده ينتفض بشدة مما يوحى بأن قلبه يدق بجنون . قال بينى :

– كلا ، أقسم لك .

ثم عاود الجلوس ، متخذاً وضعه السابق ، وأردف قائلاً :

– وعلى الرغم من ذلك-فإننى أعترف بأن هذا الوضع يناسبنى كثيراً .

ركعت ببطء . أزاح يده الحبيسة بين فخذيه .. إيمى ! إيمى ! إنتفضت وأسرعت إلى الردهـة . لا زال اليوناني يغلق على نفسه باب غرفته العلوية الضيقة . كان الليل ينزل بتراخ . عادت إلى غرفتها شاحبة ، وغير قادرة على إتخاذ قرار .

قالت :

– يجب أن تنصرف . لو كان عندك مكان للقائنا ، على ألا يكون فندقاً ، سنستأنف مناقشة الموضوع هناك .

نهض بينى راضياً ، وقال بالإنجليزية :

– انت بنت طيبة !

أخذ قبعته العسكرية من على المنضدة الصغيرة وقال لها أنه ذاهب إلى فيلا عند بوابة دمشق ولم تفهم مقصده . سوف تضيع ، إنها تشعر بالخوف . أتفقا على أن ينتظرها بسيارته أمام مبنى جمعية الشبان المسيحيين . لم يطلب منها أن تسمح بأن يقبلها ولم يمسس يدها بتاتاً . وإنصرف قصيراً ، ممتلئاً ، يتفجر حيوية وشراً . يغطى الشعر الغزير جسمه . ألمانى من أصل يهودى و « الأو دبليو دبليو » خليط بين المخابرات و ... إيمى ، إيمى ..

كان الزحام تحت بوابة حيفا لا يوصف ، نهر زاخر بكافة أنواع المركبات والمخلوقات والبشر بأزيائهم المختلفة ، يتدفق على غير هدى فى خضم سحابة ترابية ذهبية اللون . شعرت إيمى بالدوار . توقفت عن السير وأسندت يدها على حائط غير مغطى بالطلاء . إندفع نحوها شحاذون يحوطونها . إقتربت منها صبية جريئة النظـرات وجذبتهـا من ثوبها ثم أطلقت لساقيها العنان . أحست إيمى من جديد بأنفاسها حارقة المرارة وبرائحة حيوانية تزكم أنفها . انحنيت

قليلاً وبصقت .. تراجع الشحانون من حولها ولمحت عجوزاً يمتطى حماراً صغيراً ويلف رأسه بلفافة خضراء يمضى مبتعداً وقد إستدار مثبتاً أنظاره عليها . كان يبحث عن عينيها وراء زجاج نظارتها السوداء . وعندما عثر عليهما بصق بشدة وأدار رأسه عنها ، وقد إستشاط غضباً .

قالت إيمى لنفسها « لا بد إن شيئاً ما يحدث ، ليس ذلك من قبيل الصدفة . تفحصت نفسها بدقة . كلا ، لا شيء مستفزاً فى مظهرها . لا بد إن ثمة واقعة لا تتعلق بها تثير مشاعر الجموع من حولها . «الأحد ١٤ يونيه يجب أن أذكر هذا اليوم ، فربما عرف السبب فيما بعد . على الأقل لو ان رجال المدينة المقدسة لا ينظرون إلى كل إمرأة إلاّ على أنها زانية عندئذ فإن ما ينتظرنى هو الموت رجماً بالحجارة » بدا لها ذلك طريفاً مسلياً . ولكن مالبث هانز ان اقتحم عليها تفكيرها فإنتابها الإكتئاب وعاودتها نوبة الدوار فأمسك بها أحد من ذراعيها .

– هل تحتاجين مساعدة يافراو بمبرتسبرج ؟

يهودية ، بدينة ، فى منتصف العمر ، راحت تبتسم لها ، انها الغسالة البولندية التى رأتها أمس محنية على الحوض ، حينما فتحت خطأ الباب الجانبى المؤدى إلى الحمام عند بينى .

– أشكرك ، لا شيء كل ما هناك أن الجو حار .

وسألتها فى حيرة :

– ولكن كيف تعرفين إسمى ؟

– نحن جيران فى منزل كوابر . نسكن الدور الأرضى ، مع الأولاد . إنك تلقين علينا التحية ، ولكن لا بد إنك لم تنتبهى الينا .

لا زالتا تحت البوابة ، فكرت إيمى قائلة «ياله من بلد قدرى . سيبقى فى ذاكرتى دوماً » أمسكت بذراع الخادمة .

– أعتقد إننى يجب أن أتكئ عليك قليلاً يافراو ...؟

– خلياسكا ، روزا خلياسكا .

كانتا تمشيان فى صمت ، وبعد قليل كفت إيمى عن الإتكاء عليها ، ونظرت إلى الساعة .

– هل تعرفين مكاناً خلوياً نتناول فيه مشروباً منعشاً ؟

أجابت خلياسكا :

– فلنذهب إلى محل عربى إذا أردت مشروباً منعشاً . أعرف محلاً فى طريقنا له حديقة بها نافورة .

عندما إنصرف الأعرابى بعد أن أحضر شراب الليمون فى كوبين طويلى العنق ، أخرجت إيمى جنيهاً من حقيبتها ، وحاولت أن تدسه فى راحة يد روزا . وقد إحمر وجهها وإرتعشت أناملها .

بسطت روزا الجنيه بيدها ، سوته ضاغطة عليه بيدها فى بطء .. ثم أخذت حقيبة إيمى وأعادت الورقة المالية إليها وقد إرتسمت على شفتيها إبتسامة مريرة.

– لن تتصورى كم أنا بحاجة إليه ، ولكننى لن أخذه . أنا التى يجب أن أرجوك الا تقولى شيئاً . سوف يطردنى صديقك لو علم إننى عرفت شخصيتك . سأفقد العلبات وقطع السكر التى أجلبها لأولادى والعصائر لحماتى . هل تفهمين ؟ كنت أريد أن أساعدك فحسب . أحاط بك شحاذون وأيضاً مرضى بالجذام . كانوا يريدون أن يلمسوك . كنت أحدثك وانت ما كنت تسمعيننى إلى أن أخذتك بين زراعى وابتعدت بك . يمكنك أن تتكرمى على ببعض الملابس ، وسأغسلها بعناية وأخذ منك ما يأخذه الكواء ، وسأكون فى غاية من السرور لذلك .

أسندت إيمى نظارتها على الرخام ، وأخرجت منديلاً صغيراً ، وقالت روزا فى مرح :

– لا تتلفى عينيك . إن الأمر لا يحتاج منك كل هذا العناء .

أفرغت كوبها فى جوفها ، ومسحت شفتيها بظهر يدها . ثم دفعت إلى الوراء بمقعدها .

وأخذت تربت برفق على كتف إيمى ، التى كفت عن البكاء ، وأخرجت مرآتها .

– بالله كم هى جميلة أهدابك . كنت أعتقد أن الدموع ستفقدها رونقها ولكن ها هى تنتعش مثل عشب ندى . لا بد أن فراو أناه تحسدك على أهدابك هذه . ألا تعيرينها بعضاً منها حتى تستطيع أن تغرى بها اليونانى ؟

أرهفت إيمى السمع لما يقال ، ولكن الأخرى كفت عن الكلام .

– أى يونانى ؟

– ذلك المقيم فى الغرفة العلوية .

– وهل هى واقعة فى حبه ؟

– كبلهاء مجنونة ، منذ أن جاء وهى تكسر سيقاننا من فرط الوقوف نستمع الى تأملاتها . ألم تريها ممسكة بالمكنسة مثل ياور القيصر ؟

قالت ببراءة دون أن تستطيع أن تغالب الضحك من هذه المقارنة :

– هذا لا يعنى شيئاً . ربما كان الأمر مجرد مصادفة . كنت أقول بعض الهراء لكى أجعلك تضحكين أما بالنسبة لما أقول عن فراو أناه فأنا متأكدة مما أقول وسأخبرك لماذا أنا متأكدة من ذلك . فى بيت خلف السكة الحديد بجوار مصنع الثلج كل يوم أربعاء تجمعنا واعظة إنجليزية وعندما لا أكون مشغولة

بعمل شيء أذهب إلى هناك . شاى ، بيتى فور ، وثرثرة ثم تحكى كل من الحاضرات عن حياتها ...

– أرجو الا تكررى هذا القول ، فهو شديد الوطأة على المسكينة وان بأعماقها قلباً من ذهب .

– ليس إلى هذا الحد . إنك لا تعرفينها حق المعرفة بعد . ولكن الوقت متسعاً أمامك إن فراو أناه تلوك سير الزبائن كلهم ، أما اليونانى فلا تنبس عنه بكلمة واحدة . لا تعودى فتقولين عن ذلك صدفة ، لأننى عندما أبديت لها هذه الملاحظة شحب وجهها شحوباً شديداً مثل ليمونة ، وإصطحبت فى المساء إبنتى الصغيرة معها إلى السينما .

– ٦ –

يجب أن أخلى المكان . إنهار المخبأ الذى أمضيت فيه ثلاثة أشهر وكأنه صنع من ورق . عثرت عليه « الرؤوس المقطوعة » أعنى « الرأس المقطوعة » أو «الرجل الصغير» لأننى لو وضعت الأخريين فى ذات السلة فإننى أظلمهم ، وكأنه لم يكن يكفينى هذا فقد حضرت أيضاً رابيسكو لزيارتى فى اليوم التالى ، ثارت الغراب فى وجهى معترفة بأن ريتشاردز كشف لها منذ مارس الماضى أننى لا أعمل بمحطة الأذاعة ومع ذلك فهى تخبئنى عندها مقسمة إنها لم تخبر أحداً بذلك . ولكن ما الذى يجعل أيمى إذاً تتحاشانى ؟ إرتاب فى الأمريكى . لا بد إنه قال لها شيئاً ألقى الرعب فى قلبها . تغير مسلكها منذ أمس . لا تبقى فى البيت طوال النهار تتجول بالخارج . فى ميعاد الشاى أفتح الباب قليلاً وأطل . لا أحد . لا وجود لغير الأريكة والمنضدة الصغيرة . حالفنى الحظ ، والتقيت بها على السلم . كيف حالك ؟ أهكذا يهجرون الأصدقاء القدامى ؟ «من فضلك ، لا تقترب منى ، لن يلحقنا من هذه العلاقة إلا كل سوء» كانت تتحدث مسرعة وببرود ، وتختلس النظر إلى أسفل . تنحيت جانباً وتركتها تمر .

وعلى حد قول بلاغات «فيرماخت» يزداد الطوق إنطباقاً ، ولكن من هم الذين يعرفون أين أختفى ؟ أولاً : الرؤوس المقطوعة ، ومن المحتمل من بعدهم ، الشرطة العسكرية اليونانية . على حد قول «الرجل الصغير» لا قائمة لمثل هذا الخطر فى الحاضر القريب مادام ان الأصدقاء من القيادة هنا قد نجحوا فى تمرير إسمى إلى سجلات القاهرة وهناك يختلط الحابل بالنابل . ربما . ولكنهم بذلك يحكمون قبضتهم على . وما أن يستقر قرارهم بشأنى ، تكفى كلمة واحدة من القيادة بأورشليم و ... ينتهى الأمر . ثانياً : ريتشاردز ، ومن بعده المخابرات والقيادة

الانجليزية أو الشرطة ولكن هذا غير محتمل . أعرف الرجل . إنه صاحب رأى معارض ولكن الوشاية ليست شيمته .أمضينا ساعات طوال نناقش سوياً موضوعات تثير إهتمام كل منا . قال لى ذات مرة ، « إن المعنى بالإنسان مثلى يفضل ساعة الحسم أن يموت إلى جوار أصدقائه على أن تعلو هذه أو تلك من الشعارات » ولو إننى أخبرت ، «الرأس المقطوعة» بما يجعلنى أضع ثقتى فيه لنعتتنى بالجنون أما حاجى فاسيلى فسوف يفهم ولكن وقتى لم يكن يتسع لأخبره بذلك . ثالثاً : الغراب ، وثمة احتمال من بعدها الشرطة ، ولكن هذا مستحيل إلا إذا وجهت الشرطة إليها تهديداتها ، وإنخرطت فى نوبة من ثرثراتها الغير مقصودة لكننى درستها جيداً . تخشى أن أترك لها المكان . إنه موضوع أخر . رابعاً : ميشيل ، أقصد رابسكو ، إمتداد محتمل ، غير معلوم عنها شئ ، وهى أكبر لغز . خامساً : إيمى ومن بعدها الأمريكان ، مستحيل ، أو بالعكس . ربما الأمريكان هم الذين قالوا لإيمى .. هل قالوا لها حقاً ، وكيف عرفوا ؟ وإذا كانوا يعلمون فلماذا لم يقبضوا على ؟ إنها لمشكلة .

وعلى أى حال فلتعاود من جديد . ربما ترشدنا جزئية صغيرة . كنت أقف تحت طاقة النور أقرأ الفقرة الخاصة بالثعالب الصغيرة . قلت لنفسى « إنى متأكد إنها تقصد الضباع» وعندئذ سمعت أصواتاً فى الحديقة . صعدت على المقعد ورحت أراقب خفية ما يجرى . كانت «الغراب» تتحدث إلى الأمريكى الذى كان يمسك الباب على أهبة الإنصراف . وتساءلت متوتراً «ما الذى يجعلها تستوقفه . إن الشاى سيبرد» وعندئذ رأيت الرجل الصغير يمر بخطوات بطيئة بحذائه الثقيل وقلنسوته العسكرية ! تظاهر بأنه ينظر إلى الناحية الأخرى . يالها من مصادفة مخيفة أن يوجد فى أورشليم بدلاً من معسكر «كفريون» ما الذى جاء به إلى هنا ، بل الى الشارع الذى أسكنه وحق الجحيم ! وعلى مبعدة قليلة حيث ينتظر عشيق مدام أندريانو كل صباح . وقف يشعل لفافة تبغ . ثم عاد بخطى بطيئة يمر أمام البيت وبعد ذلك رحل . لم يكن الليل قد أرخى سدوله بعد . أفسد

كل هذا مزاجى ، ولم أعد أرغب فى التحدث مع أحد . تركت الباب موارباً . «الغراب» تجمع الأطباق بمفردها ، وفيما بعد وقفت أمام باب غرفة إيمى وصاحت تسألها عما إذا كانت تريد أن تصحبها إلى السينما حيث يعرض فيلم من النوع العاطفى جداً . لم أسمع الرد ولكن الغراب قالت . «كما ترغبين ، طابت ليلتك ، وأعتنى بنفسك» تركت بعض اللحظات تمر . من المفروض أن يكون بمبرتسبرج قد عاد الآن . نزلت مسرعاً . تلفت حولى لأتحقق ما إذا كان أحد يراقبنى . إخترقت الحديقة ثم قفزت من السور الخلفى ووجدت نفسى فى الفناء ذى اشجار الكستناء . وقفزت من جديد من سور محمل بزهر ذى عطر فواح ومن هناك مضيت بحذر إلى حاجى فاسيلى ولحسن الحظ كان القنديل مضيئاً خلف خصاص النافذة الموارية .

قالت العجوز :

– أخيراً ! أعتقد إنك نسيتنا . تعال ، طبخنا بامية ، وأحضرنا زجاجة صغيرة من الجعة .

كنت آكل بغير شهية وقلت :

– عاد أدم من جديد . أليس كذلك ؟ خيل لى إننى سمعت صوته منذ بضعة أيام .

وقال العجوز :

– جاء ثم عاد فغرب عن وجهنا ، هذا الصعلوك . يالوقاحة هذا الرجل ! أراد أن يجلب إلى هنا إلى بيت المرحومة ، إمرأة متزوجة أرمنية أغواها ولعب بعقلها فى حيفا . قلت له إننى سأذبحهما لو جاءا .

كان العجوزان قد أهديا البيت إلى «أماليتسا» كبائنة زواجها لكن الأوراق لم تكن قد حررت على وجه سليم ، ويقول الأرمل إن البيت ملكه هو الآن ، وسعى إلى

الإلقاء بالعجوزين إلى قارعة الطريق . ناقشنا الموضوع من جانبه القانونى وأخبرتهما بما يمكنهما أن يفعلا . ثم أخبرتهما باللقاء الذى حدث اليوم . من المستحيل أن يكون غاريلاس قد أمكنه أن يتعقبنى دون أن أنتبه إلى ذلك . كيف أستطاع هؤلاء إذاً أن يعثروا على ؟

وسأل العجوز :

– من هؤلاء ؟ إشتراكيون ؟

– هـم شىء أكثر من ذلك .

– كان يجب ان تبادر الى قول ذلك ! إنهم عرفوا بأمرك من اليهود . لا بد أن أحداً اشتبه فيك وأخبرهم عنك .

وأوضح لى العجوز إن هناك الافاً من القوى السرية تحكم هذه المدينة مفلوتة العيار . دعك من السلطات القائمة دعك من الحلفاء ومن البدو والعرب الذين لهم منظماتهم بدورهم . دعك من البروتستانت والكاثوليك والأرمن واليونانيين والروس ومختلف الإرساليات من كل صنف التى تتناحر بالسكاكين من أجل كسب أرواح لهم فى العالم الآخر . إن الأفضل تنظيماً هم اليهود . لقد آلوا على أنفسهم بكل جدية أن يجعلوا فلسطين ملكاً لهم . هم النيليون أبناء هارون وهؤلاء أحلوا القتل ، والهاجانا والأراجون الذى يجمعون السلاح لمرحلة ما بعد الحرب والزفاى ليومى ، والأرثوذكس أتباع زابوتينسكى ، والهداسا الذين يجمعون من أمريكا سفناً محملة بالدولارات والهستدروت الذين يسيطرون على العمال جميعاً بل والصهيونيون والأحزاب والكشافة والشيوعيون الذين يطوفون الآن بالمقاهى ويقولون للناس أن يرتدوا الكاكى ويحاربوا هتلر . ومع ذلك لا تخشى أن يسلمك يهودى إلى السلطات ، فالغريب عن الديار مصان . الم تقرأ فى سفر التثنية « أحبوا الغريب وأرعوا حقوقه لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر » .

قلت له :

- كل هذا حسن ، ولكن يجب الآن أن أغير محل أقامتى حتى يفتح أمامى طريق وقد نفدت نقودى .

هز كل من المسنين رأسه منكفئ الوجه على طبقه .

أخرجت من جيب سروالى التميمة التى كنت أحتفظ بها وفضضتها بسكين صغير .

صاحت السيدة مارغيتولا :

- إنه خاتم أماليتسا ! حرام عليك يا فاسيلاكى أن تفرط فيه . إنه تذكار ! كانت قد حضرت حفل زفاف والدتى فى الاسكندرية وابدت إعجابها بهدية العريس الذى حاول بمثل تلك الأشياء أن يبهر جدتى حتى تسمح له بإصطحاب إبنتها إلى اليونان . وحضرت أيضاً حفل زفاف أماليتسا الأخرى ، ابنة مارغيتولا التى تركتها أمها قرابة أربعة سنوات فى رعاية جدتى لعلها تنسى ذلك الشيطان المدعو أدم . ولكن ما كان لذلك جدوى ... خلال الحرب الأخرى إستطاع الهروب من إيدى الاتراك فى حمص ، والتسلل على ظهر مركب من بيروت الى قبرص ومن هناك لبورسعيد . وفى يوم من الأيام ، لمحته «ليليكا» يتجول ، مثل لص ، خلف أشجار التين الشوكى فقالت للمرحومة «أنت يا صغيرتى أليس هذا الذى يرتدى قلادة ذهبية هناك هو أدم ؟ » « لا أعرف يا جدتى ، ليته هو » « أه المكتوب على الجبين يا بنتى ، ستراه ... »

أثناء أصغائى لها ، إستحضرت من الضباب المخيم على ذكريات طفولتى هذه القصة : كنا فى كيفيسيا ، فى الخريف وكان رذاذ المطر يتساقط على أكوام أوراق الشجر الذابل وشخص ما كان يحكى تلك القصة (ربما الجدة ؟ أو الأم ؟) بينما كان يشع كل شئ من حولنا ببريق شجنى حلو . ذلك الحب الكبير

الذى لم يرهب لا الموت ولا الأخطار ولا العواصف ظل باقياً وبقيت ايضاً سلسلته وقد تدلت منه ساعته وأدم الذى راح يطوف العالم ... أصبح شخصية أسطورية مجسماً البطولة والوفاء والإخلاص . وها أنا أسمع هنا الصياغة الأخرى للقصة : ماتت «أما ليتسيا» مصابة بشلل نصفى ، بلهاء ، يسيل لعابها مثل طفل . عيناها فحسب ظلتا متقدتين بشهوة لا تلقى إشباعاً . «كان آدم يعطيها منشطات ، وكان يتعطاها هو الأخر وإنتهى به الأمر إلى أن أنهكها وحطمها . لا تسول لنفسك خيالات – هذا ما قلت له – اعرف كيف أغويت عشيقتك الأرمنية ثقيلة الأرداف . سأذهب إلى البطريرك وأكشف له كل شئ . سوف أفضح أمرك فى أورشليم كلها ....» كان العجوز يغلى بينما يختنق صوته من شدة الغضب . ثم قال لى «لعلك فهمت الآن . تسمع الناس أشياء ومعجزات عن الأرض المقدسة كما سمعت أنت عن آدم . وعندما يجيئون تكشف لهم هذه الأرض الحقيقة المجردة» . وهكذا ايضاً ، عبر الحكايات التى رواها الرجل الصغير عن دكتاتورية ميتاكساس وعن الحرب الأسبانية تخيلت ذلك «الرجل» محاطاً بهالة من النور ، وها أنا قد إكتشفت من هو . إنه مجرد آدم جديد . أزاحت أرض كنعان عن وجهه القناع .

وضع حاجى فاسيلى الفص الماسى فى كفه وأخذ يحملق فيه بإعجاب .

– لا بد إن هذا الخاتم الصغير يساوى اليوم مالاً مثيراً . خمسمائة ، سبعمائة ،، إترك الأمر لى ، فلدى شخص موثوق فيه .

إتفقنا على أن نشترط دفع الثمن بالجنيهات الذهبية ، وسوف تلف كل عشرين منها فى لفافة مستقلة . ونهضنا لنرى فى أى مكان بالحديقة سيدفنها . يجب أن أكون قادراً على العثور عليها ، لو ذات يوم تعقبونى، وأحتجت للدخول فى غفلة من آدم . أرانى العجوزان سترتى العسكرية ملفوفة فى ورق مقوى وملقى بها فى غرفة الغسيل مدسوسة وسط كومة من خشب وحديد .

قال العجوز :

– لن نقفل الباب بالمفتاح . ربما إحتجت إليها فجأة . يمكنك حتى الإختباء هنا بضع ساعات لو لم يكن ثمة مكان آخر تلجأ إليه .

بعد ذلك بقليل انصرفت . وكما تفعل العجوز دائماً باركتنى وقبلتنى .

قضيت الأمس كله منكباً على طاقة النور . ولم يقربنى النوم إلا لماماً . فى الساعة العاشرة شاهدت إيمى تخرج . عادت الساعة الثالثة بصحبة أندريانو . ربما أتيا فى ذات الأتوبيس . تتحدث ببهجة وعندما وصلت إلى الباب رفعت عينيها ونظرت سراً إلى أعلى . إستوقفتها في المساء على السلم . مضى وقت الشاى دون أن ينادى أحد . عندما قالت لى ألا أقربها ، تركتها . لم يظهر ، «الرجل الصغير» . طوال اليوم كما أختفت الغراب عن العيان ولم يسمع لها صوت . تملكنى التوتر مرة أخرى . أثار تغير مسلك إيمى تجاهى ثائرتى . كما كنت ضيق الصدر . أنتظرت اخباراً عما فعله حاجى فاسيلى بالخاتم وما توصل إليه بشأن الغرفة الجديدة ولكنى أنتظرت حتى يوغل الليل قليلاً كى أنزل . لا أحد هناك . عند نهاية الزقاق سمعت صوتاً ينادينى :

– مانوس .

توقف عن السير ، قلت له ،

– ماذا تريد منى الآن ؟

ضحك .

– هيه هيه . لا أريد من أجلى شيئا . أريدك من أجل مصلحتك أنت !

قال إننى أضخم الأمور وإن الأمر ما عاد يتعلق بمجرد نزوة ، وأنه بالنسبة للوقت الراهن فإن الرفاق رتبوا الأوضاع ولكن لو أنى تراخيت فإننى سأتعرض لإتهامى بالهرب من الخدمة ، أجبته بأننى فكرت فى الأمر منذ البداية وإن هذا لا يروعنى فى شئ .

– علمتنى التجربة أن من كان منا وكان ضابطاً يحمل على صدره وسام الجبهة الألبانية عليه واجب ثورى أن ....

قاطعته قائلاً :

– دعك من هذا ، مللت كل هذا الألاعيب . هل لديك شىء آخر تريد ان تقوله لى ؟

لا يجدر بنا البقاء هنا . توجهنا الى منطقة نائية . عبرنا خط السكك الحديدية وواصلنا السير . وفد إلينا من مكان ما صوت بومة أفزعته . وصرخ فيها من بين أسنانه ، «أخرسى» وعلى روحينا جثم من بعيد الجبل الملعون . التقط الرجل الصغير انفاسه وبنبرة خفيضة قدم لى وجبة من الكلام الدسم .

قال :

– جئت القاك بمبادرة شخصية منى ، متخذاً قراراً حاسماً بأن نبنى بيننا جواً من التفاهم والإحترام المتبادل والإرتقاء بما يكفل لكفاحنا أن يشع ضياء بما يشرف اليونان وأبنائها المغتربين .

إنتظرت حتى يكمل حديثه ثم قلت له :

– على ما أفهم ، فقد كففت عن أعتبارى حصاة ملطخة بالأوساخ .

– هاها ، هذا يتوقف على إرادتك وإستعدادك للنضال ، وفى النهاية انت ورفاقك ستحكمون على ما إذا كنت قد إستعدت الحق فى العودة الى صفوفنا .

ما الذى يجعلنى أضع الأمور على المستوى الشخصى ؟ كانوا بحاجة الى . وددت أن أقبل فوراً ، وأن أهرع من جديد إلى حيثما ينتظرنى العمل و ... الى الجحيم بالجزئيات ! ولكنى تماسكت ، وطوال عام كنت أكز على أسنانى وتحملت كل شىء على أمل أن أكون قدوة له وأن أصلح من أحواله على نحو أو آخر

وانتهى بى الأمر أن فهمت إننى صرت شريكاً متواطئاً معه وإننى بصفتى كنت أحميه . إنتحيت به جانباً كى أتحدث إليه بقلب مفتوح عن كل عيوبه ، وعن كل محاسنه . «لو إننى تحدثت على هذا النحو أمام الأخرين سوف يعتقدون إننى اقصد ان أحدث صدعاً . (وربما سوف ينشأ هذا الصدع من تلقاء نفسه) . ليس هذا ما أسعى إليه وأعرف أخطار ذلك . إنى أتوجه إليك وحدك أجبنى بذات الصراحة : فيما أنا مصيب . وفيما أنا غير مصيب بالنسبة لك ؟»

كان يريد أن يجيبنى فى الحال . ولكنه عاد فقال . «إعطنى أربعة وعشرين ساعة كى أحظى بالرضاء عن إجاباتى إليك» . مضى أسبوع ، ولا شيء . وسألته « وماذا بعد ؟ » . «سوف ترى» . ذات ليلة دعا إلى إجتماع وبإعتباره المقرر لهذا الإجتماع تحدث فيه أربع ساعات . وإتهمنى بالتحايل على الديمقراطية . وأعاد ترتيب إقترحاتى فى الإتجاه الذى يناسب إتهاماته لى . وفى النهاية خلص قائلاً « لقد عرضت عليكم الأشياء بأمانة وبكل تفاصيلها . ليس لدينا وقت للثرثرات ، سوف يكون لكل متكلم عشر دقائق ، ثم طرح إقتراحاته على التصويت فلقيت الموافقة وتنازلت عن العشر دقائق التى كانت متاحة لى . وما الذى كانت ستنفعنى فيه هذه الدقائق العشرة ؟ وعاود الحديث مدة ثلاث ساعات حتى تنقضى الليلة دون أن يتاح لى الوقت كى أدافع عن نفسى . بل أنه أعطى فى كلمته عرضاً للموقف الدولى . أما الآخرون جميعاً فقد بقوا ساكتين . ومامن أحد عنّ له حتى أن يقول « لحظة من فضلكم ، إن الرفيق لم يتكلم بعد ، فكيف تدينونه جزافاً إذن ؟ » ومادام لم يستشعر أحد الحاضرين الإلتزام بالتدخل لوقف هذا العبث ، ماذا بقى على أن أفعل ، شعرت إننى أضيع وقتهم وإنصرفت . وهذا ما إعتبرته عدوانا شخصياً على!. وكيف كان بإمكانى أن أعتبره غير ذلك ، إذن ؟ .

وبعد برهة لزمت فيها الصمت ، غير الموضوع .. لا بد إنه كان قد اتخذ لكل

شيء عدته . أخبرني إن احد .. اقترحاتي . القديمة بشأن الضباط قد أخذ به أخيراً ، وانه دخل إلى حيز التطبيق فعلاً . كنت قد قلت في ذلك الحين إنه ما كان يجب أن يشجع الجنود على التبجح وعدم الطاعة لأنه من جراء ذلك لن يكون لدينا جيش تحرير بل كنا سنواجه مجرد غوغاء . وقد كان إقتراحي قد رفض لأني أسأت تقدير عامل الضمير الطبقي . واجهت المشكلة من زاوية شخصية .

– هل أذعتم علانية إن قراركم الذى عدلتم عنه كان خاطئاً ، وهل أجريتم نقدكم الذاتي لهذا القرار . هل الضباط على بينة بهذا التعديل ؟

– كلا بالطبع . يجب المحافظة على هيبة القيادة .

انصاف حلول . هذا أفضل من لا شيء ، في النهاية يتأخر التوصل إلى النتائج الصحيحة ، ولكن بإمكان التجربة أن تعمل على تصحيح الخطأ دائماً ولم يكن ثمة من هو أكثر مني دراية وإتزاناً يستطيع أن يقنعهم بذلك .

– إذن ماذا تقول ، هل ستأتي ؟

– إتركني بضعة إيام . أريد أن أفكر في الأمر .

ثم قال متظاهراً بأنه يغير موضوع الحديث .

– كنت سأنسى . ما الذى كان يحكى لك ماكريدس عندما كان يجئ لزيارتك ؟

ياله من جنون ! لو إن « ماكريدس » الملازم الفاشستي بشرطة المدينة كان على صلة بي فما كانت حاجتي إذن أن أختبيء ؟ تنبهت للتهديد الغير مباشر . كانت هذه هي اللطمة المهينة التي يدخرها لي لو كنت من المنشقين . وإستطعت ان استنتج أيضاً ان معلوماته قد استقاها من احد ساكني الطوابق السفلية . ذلك إن نزلاء الغراب جميعاً يعرفون ان ماكريدس يأتي من أجل مدرسة شابة للغة الانجليزية وقد راودها على نفسها وبطريقة مشينة ذات مساء ، وكان البيت كله

خالياً من سكانه حينذاك .

– دعك من شغل المخبرين هذا . كان ماكريدس يأتى من أجل صبية يهودية .

ضحك ثانية وقال :

– وأنت لا تضيع وقتك مع الفتيات اليهوديات . أحصيت هناك أربع جميلات حقاً . وما الذى لديك تفعله غير ذلك ؟

لم المس إمرأة منذ الغزو الألمانى فى ابريل ٤١ . دفنت المومسات قتلانا فى «سيريس» مثل أمهات يدفن أبنائهن ويكين عليهم أكثر مما لو كانوا إخوتهن . ثم سحبونا من ذراعنا « تعالوا لا تخجلوا . إننا نفعل ثواباً » ، من أجل خلاص أرواحنا ، كنا قد خلعنا شارتنا والقينا فى الأبار ببنادقنا ورحنا ننتظر مجئ الألمان ليأخذونا إلى الأسر . والأن يأتى إلى هذا النذل الذى ملأ الدنيا بوسخاته فقلت له :

– إنك رجل فاسق ، ياهذا ، وعندما يتسلل إلى زعامة حركة إناس فاسقون فإنها إما ان تفسد برمتها ، وإما ان تتقيأهم ، وتلقى بهم بعيداً عنها وإنى أعرف شعبنا . سوف يتقيأك ويقذف بك بعيداً .

عاد يقول لى :

– تعال اعمل معنا من الداخل حتى يتأتى التطهير بسرعة .

كنت أعرف هذه المعزوفة جيداً . أربع ساعات له وعشر دقائق لك ثم يأتى التصويت لغير صالحك . وكل سنة وانت طيب .

قلت له :

– سوف يكون هذا وقتاً ضائعاً . لا بد أن يكون ثمة طريقة أخرى .

– ولكن هل تتبين المسئوليات التى تأخذها على عاتقك ؟ وهل تعرف ماذا

نفعل بأمثالك ؟

كان قادرا على إتيان أى شىء ولكن ليس بمفرده . سوف يستخدم الأخرين لأغراضه كما يحدث دائماً .

لم أنطق بكلمة .

لم يعد هناك إمكانية للتفاهم . إستبد بنا الشجار . هم ان ينصرف وحده . ولكنه كان سيضل طريقة فى العراء . صحبته إلى المحطة وتركته . كنت أشعر بالجوع . لكن لم تكن بى رغبة أن أذهب إلى العجوزين أو الى مطعم - لم اكن أريد أن يرانى أحد . سرت قرابة الساعة . وعلى عربة صغيرة وجدت تفاحاً أصفر من لبنان . إشتريت نصف أقة . ومضيت آكل سائراً فى طريقى .

عدت فى موعدى المعتاد . ولكن لم أسمع صوت الغراب يكلمنى . أطللت . لم يكن السرير الذى تنام عليه عادة موجوداً فى مكانه . ترى أى غرفة خلت وتنام فيها الليلة ؟ أكانت غرفة إيمى أم غرفة الميجور ؟ صعدت درجات السلم ، على أطراف أصابعى . لمحت باب غرفتى موارباً لفحتنى رائحة عرقى نفادة . ثم صوت رابيسكو تقول لى بخفوت وبالفرنسية :

- إدخل . إنه أنا . ولن آكلك .

دخلت وأضأت النور . كانت حافية القدمين . ولا ترتدى سوى قميصها الداخلى . تجلس بهدوء على المقعد . على المنضدة الصغيرة زجاجة من العرقى سعة اللتر . وقد نقص منها النصف . وعلى الكتاب المقدس وضع كأس للشمبانيا من الكريستال والنظام يسود الغرفة . ولو إنها كانت قد نبشت محتوياتها لأذهلها ما كانت ستجد .

قلت . لا بأس . مامن أذى سيصيبنى من وجودها .إنها لن تأكلنى بكل

تأكيد ! ولكن ما الذى كانت تبحث عنه أميرة مثل هذه فى غرفتى فى مثل تلك الساعة . نظرت إلى ولوحت بيدها فى حركة تنم عن الضيق ، كما لو كانت تريد أن تنحى جانباً كل سبب للنقاش . الأغانى الباريسية التى لم تؤثر فى إيمى هيجت أحاسيسها . ذهبت وأغلقت الباب . جلست على الإريكة العريضة وبدأت تتحسسها بيديها وقالت :

– أرجوك إطفئ النور . هلاّ سمحت ؟

تركتها تخلع ثيابها قبل أن أطفئ النور كما قالت لى .

كانت طاقة النور تشع ضياء وردية وخضراء بألوان الفجر . ما ان لمستها . حتى شرعت تطلق صيحات صغيرة . فكممت فاها براحة يدى والقيت بنفسى دون أن أرسم علامة الصليب فى البحر الخضم المليئ بالدومات الذى كان ينادينى اليه إلا أن ذهنى ظل على أى حال مشغولاً . آثارتنى المناقشة مع ذلك الرجل ، كثيراً . ما الذى كانت تتوقع ، أقصد رابيسكو ، أن تنتزعه منى ، الطعم مألوف جداً . ثم شعرت بجسدها كله ينتفض كما لو كانت ترقد على موجة وتطلق صرخات يكتمها كف يدى الذى كانت تعضه . قلت لنفسى كلا ، هذه المرأة هنا تمارس الجنس من أجل الجنس .

ووصلت ساعة الخلاص مثل عاصفة تصحبها بروق وصيحات نوارس ورياح قوية تجلب معها أريج أشجار السرو المطلة من أعالى الجبال والورود وأشجار الدلب والنارنج . ومض البرق عاد من جديد وجرى الماء رقراقاً وأغرق كل شىء المخاوف والقلق والعزلة . رقدنا جنباً إلى جنب على الإريكة العريضة نسترد أنفسنا مثل غرقى ، وقالت لى بالفرنسية :

– إنك ممتاز حقاً . هل تعرف ذلك ؟

وقلت لها :

– وانت على أحسن ما يرام .

وأجابتنى بالفرنسية :

– هذا لطيف منك .

– لهجتك تجمع بين لهجة مونترو ولهجة مونبرناس

قالت بالفرنسية :

– هذا مدهش . نادر من يستطيع أن يميز ذلك .

– ولكن ألم تولدى فى « سينيا » ؟

قالت لى :

– أوه . هل أنت من البلاهة أن تصدق هذه الخزعبلات التى أقولها لتلك الشريرة ؟ لا بد إنها أسرت لك أيضاً إننى جاسوسة . أنا باريسية لحماً ودماً إصطدت فى سن السادسة عشر أول زبائنى بشارع « فافين » أمام تمثال « بلزاك » . كانت السماء تمطر ولم يكن لدى جورب ولكنهم كانوا قد أعارونى معطفاً ضد المطر وكان يناسبنى جداً ثم إشتغلت موديلاً للفنانين فى الجراند شومير . وهناك جن جنون رابيسكو كى نتزوج . قلت فلنرى ، ولم أكن أصدقه . فى بوخارست ، إغتاله الحرس الحديدى . خلال ستة أشهر ترملت ، ودخلت مجال الصفقات الكبيرة .

– ماذا تعنين ؟

أجابت بالفرنسية :

– دعك من هذا السؤال . وهل سألتك أنا ماهى مهنتك ؟

كانت على حق فى هذا . لم تكن تسألنى من أنا أو ماذا أعمل . حانت الآن

اللحظة . ولكن لديهم آلاف الوسائل كى يعرفوا دون أن يسألوا بعد قليل أطبقت شفتاها على شفتى . وطوقتنى بساقيها القويتين وقالت بالفرنسية :

- تعال فلنعاود من جديد سوف يستيقظون بعد قليل .

- كم كانت الساعة ؟ بعد قليل ستبدأ الحرب لدخول الحمام .

بالخارج كانت الطيور تغرد وكان الجو منعشاً .

عواء الثعلب يعلو كلما خفت صراخ المرأة مفلوتة العيار كأنه أصداء لتنهدات الأريكة . دب النور فى عقلى . أصبحت حراً على الأقل لبضعة أيام لن أحتاج إلى الإختباء فيها . كيف لم أفكر فى هذا ؟ إن «الرجل» قد إكتشف مخبئ وهكذا لن أشغل بالتحايل لإخفائه . لن يبحث عنى بوليس المدينة وهذا حسن جداً وللآخرين سأبرز بطاقة كتيبتى لو إستوقفونى وسأقول لهم إننى فى اجازة خاصة وعلى أسوأ الأحوال سوف يرسلوننى إلى القيادة للتأكد من ذلك . وهناك سوف ندبر أمورنا تنفست الصعداء ، وبدأت أشعر اننى أخرج إلى السطح . سوف أستطيع التجول بالمدينة فى وضح النهار سوف أصطحب إيمى إلى بيت لحم والبحر الميت . إيمى ؟ « لا تقترب منى ، لن تحقق علاقتنا إلا كل ضرر » طوق من القلق يطويها . هم على وشك أن ينتزعوها منى وبدأت أنهار .

بعض اللوحات . «سقوط الشيطان» ، جناحان سوداوان مثل جناحى خفاش والرأس منكس إلى أسفل ، مخالب مسنونة وقرون نافرة والمسيح هناك بأعلى الهاوية محاطاً بإكليل من نور .

لوحة أخرى «إيكاروس» من لحم وعظم ، جسد عار ، أجنحة بيضاء ملائكية والهواء ملئ بالزغب والشمس هناك عالية ذهب مذاب .

لطمتنى الصاعقة قبل أن يبتلعنى بحر إيجة فى مياهه التى تموج أسفلى زبداً وموجاً . إنتزعت نفسى من شفتيها ودفنت وجهى فى شعرها الأسود العطر

وصرخت فى أذنها بأسم إيمى كما لو كنت أمزق . لماذا ؟ وبالفرنسية قالت لى :

– إسكت ، إسكت يا حبيبى ...

وضمتنى إلى صدرها بشدة أكبر وبالفرنسية عادت تقول :

– كلا ... كلا .. نادنى بإسمى ، ميشيل .

– أشكرك يا ميشيل ، أشكرك .

إرتدت قميصها الداخلى ومضت إلى الباب ، حيث تمهلت وقالت بالفرنسية :

– مامن أحد رأى ، ما من أحد عرف . اليس كذلك .

– إتفقنا .

ذهبت تأخذ معها زجاجة العرقى ثم أحجمت وتركتها .

– إنى أتركها لك للذكرى فإذا ثقلت عليك الهموم يوماً فليس بين يديك فى هذه الغرفة شئ على الأطلاق ولا حتى سجائر . كيف تستطيع إذن العيش هكذا محروماً من كل شئ وليس لك من رفيق سوى الكتاب المقدس ؟

أخذت معها الكأس وقبلتنى كما لو كانت تستمتع على شفتى بطعم شئ أجهله وقالت لى بالفرنسية :

– حظ طيب .

ولم أكن بإستطاعتى أن أتمنى لها المثل فهى لم تفصح لى لحساب من كانت تحارب . ولم أقل شيئاً .

- ٧ -

كان الجو فى مطعم أستوريا الكبير ، غريباً وكئيباً . المراوح تدور ببطء فى السقف كصقور تحلق فوق فريسة وتسبح فى الأدخنة من خلال الهمسات الهواء يفوح برائحة أطعمة مقلية وجعة وسجائر إنجليزية . فجأة قررت إيمى الا تقول شيئاً لهانز ، اليوم أيضاً .

عندما كانت تشق طريقها وسط العسكريين والمدنيين الذين كانوا يتوقفون عن تناول الغذاء لمشاهدتها لمحت أندريانو يومئ لها . فمضت قدماً بخطوات إزدادت وثوقاً بنفسها . إنحنى وأتى بحركة من يده كما لو كان يحى حشداً غير مرئى فى طريقه وقال :

– الهر بمبرتسبرج فى إنتظارك بالقاعة الصغيرة .

– ما الأخبار يا هر أندريانو ؟

– إذا كنت تقصدين بذلك الأخبار العسكرية فهى سيئة للغاية ومع ذلك إنظرى كيف يأكلون ! عندما أخبرونى بإعلان برلين قلت لرئيس الطهاة .. ضاعف الكميات ولم تخب توقعاتى قط .

وسألت إيمى وهى تدخل القاعة الصغيرة :

– موكب بحرى جديد ؟

على النوافذ ستائر من الفوال الأصفر يحجب أنوار الشارع ، أصص كبيرة من نخيل الزينة داخل أوانى معدنية وضعت بين المناضد وفى الاركان . رغم عدم وجود مراوح بالمكان كان الهواء فى هذه القاعة أكثر نقاء . لو إن أحاديث

الحاضرين كانت أكثر خفوتاً مما هى عليه لخيل للهواء إنه فى صوبة زراعية . وقعت أنظار إيمى على مجموعة من التجار السوريين ضخام الأجسام بصحبة زوجاتهم متوردات الوجنات . كانوا يثرثرون بصوت رخيم ويومئون إلى الوافدين دون أن يكفوا عن الطعام وقد تلوثت شفاهم وأصابعهم بالدهون . وعلى منضدة أخرى جلس ثلاثة عسكريون يونانيون مضوا يتحاورون وهم على أهبة الشجار . وراحوا يشربون القهوة . وأجاب المتردوتيل بلهجة حيادية :

– كل فى صحرائه .

وجذب كرسياً كى تجلس .

كان هانز قد نهض صامتاً . أمامه على النضدة زجاجة من النبيذ الفلسطينى الأبيض ، فواحة الرائحة ، نصف ملأنة . يبدو أكثر شحوباً فى سترته الداكنة . ومضت من وراء نظارته بريق عينيه . قالت له إيمى :

– سامحنى ياهانز لأننى جعلتك تنتظر كل هذا الوقت . يبدو أن الأخبار اليوم ليست على ما يرام .

وضع رئيس السقاة قائمة الطعام أمامهما وإنسحب فى كياسة .

وقال هانز :

– أعرف أين كنت .

– أين كنت منذ الصباح ؟

– من العشرة حتى الواحدة .

ظل مثبتاً انظاره على العشاء . القت إيمى برأسها إلى الوراء ثم حاولت ان تأخذ يده فى راحتها ولكنه بادر وسحبها منها ، تناولت رشفة من قدحه . بدا لها النبيذ مسكراً .

على مائدة العسكريين يجلس ملازم نحيل أسمر مثل البدو . يلوح بقبضته ويصيح « طبرق ، طبرق » بينما يجيبه ضابط آخر بهدوء «توندة» وكان ثمة رائد ذو شارب وخطه المشيب يجلس قبالة إيمى . راح يستمع إلى حديث زميليه مستمتعاً وفجأة غمز لها بعينيه .

قالت وهى تتكب على قدحه :

– كيف عرفت يا هانز ؟

– من أصدقائنا الإنجليز ، بالطبع .

خلا صوته من كل نبرة ويبدو إنه كان يجاهد بشدة حتى يكبح جماح غضبه .

– أوه ، كم أنا أسفة يا عزيزى هانز غمز لها الرائد بعينيه من جديد بكل وضوح هذه المرة كما كان يربت على شاربه . أشاحت بوجهها عنه مستاءة فإلتقت نظراتها بنظرات أندريانو الذى كان مقبلاً بتؤدة وتكلف . إقترب منها وإستحوذ على الاهتمام ، ناصحاً بأن يتناولا من الفاكهة بعد الشواء بطيخ يافا . ثم مضى مبتعداً وعند واحدة من الآنية المحتوية على نبات الزينة توقف وزحزح الإناء فإختفى الرائد ذو الشارب الذى وخطه المشيب وراء الأوراق الخضراء .

وقال هانز :

– طالما كانت نزوات جسدك لا تؤذى مستقبلى السياسى كان بإمكانى أن أغض الطرف عنها

قاطعته مبتسمة محاولة أن تسترضيه :

– بل كانت نزواتى فى الأيام الخوالى تحظى برضائك .

– أجل يا إيمى الى ان جاء يوم امسكت فى عينيك بريق الانتصار وتعرفت فى هذا البريق على ...

– علاما تعرفت يا هانز ؟

– الشيطان أقول لك ما دمت تضطرينني إلى أن أخبرك !

بعد برهة صمت قالت إيمى :

– ياصديقى المسكين من يدرى ماذا غرس فى رأسك ذلك الكردينال المجنون عندما تلقى إعترافاتك فى روما ؟ لو لم تكن منهار الأعصاب تماماً ما كنت قد أعرت . هذه السخافات التفاتاً ثم إن هناك على الدوام حلاً : طفل ، طفلين ، ثلاثة .

– أترين ؟ عفواً لكننى لا أجد كلمات أخرى ، أترين بأية سطحية تحلين المشاكل ؟ وهل سأقبل أنا أن ألقى بمخلوق برئ فى جب الأسود هذا ؟ انت جميلة ولكنك غير قادرة على تحمل المسئولية ، مثلما كنت منذ أن بدأ تعارفى بك ولحسن الحظ فقد ولدت كاثوليكية لقد أنقذك العماد مرة . لدينا متسع من الوقت . والتوبة يمكن أن تنقذك من النار الأبدية وإلا .... لجننت .

وكأمرأة دنيوية لا تستثيرها ما تومئ إليه الطقوس المحوطة بها من رموز ، أحنت إيمى رأسها ولزمت الصمت .

هانز هذا يحبها حباً من منظور جنونى للحياة ، منكراً حتى وجوده العرضى . وسألته بهدوء ، متأكدة من ان هذا سيسرى عنه همه وقالت :

– ألا تريد أن تقول لى كيف أخبروك بالأمر ؟

ولكن الساقى مالبث ان عاد الى الظهور ومن ورائه رئيس السقاه وقد حدس هذا الأخير ان عليهما المسارعة بالإنصراف .

وفى هذه اللحظة ظهر أحد السقاة وقال بالإنجليزية : ان ثمة من يطلبه على التليفون .

وسأل اندريانو :

– أهو الشخص ذاته ؟

– هو الشخص ذاته . هذه هى الساعة التى يطلب فيها .

– انى قادم ...، كلا ، قل له إنك لم تجدنى .

فتح زجاجة نبيذ أحمر وصب منها فى الأقداح

– يحدث لى شئ غريب . كل يوم تقريباً فى الساعة الثانية والنصف أو الثالثة يطلبنى شخص ما على وجه السرعة بالتليفون وما ان يسمع صوتى يضع السماعة . لم تستطع عاملة التليفون ان تعرف من هو ذاك الشخص .

قال هانز وعيناه على إيمى :

– لا بد إنه شخص مختل العقل ، بكل تاكيد . الا يقال ان أورشليم إما ان تقتل أو تبعث على الجنون ؟

وفى القاعة الكبيرة إرتفعت نبرة الأصوات والصخب . سارعت إيمى إلى السؤال وقد انتزعت نظراتها من نظرات هانز :

– هل يجرى شئ هناك ؟

– إعترفت إذاعة لندن بما اذاعته برلين هذا الصباح .

إنصرف الساقى . تراجع رئيس السقاة خطوة ثم توقف . كرس بضع لحظات ليعطى الزوجين الإحساس بأنه فى خدمتهما وحدهما . وجاء ينضم إلى مجموعة الضباط مدنى ناضج السن . وعرفت فيه إيمى فى التو الرجل الفاسق الذى إلتقت به عند الدير اليونانى الجديد . ومن خلال جفنيه المنتفخين رماها بنظرة نسر نعسان .

قالت إيمى متظاهرة بعد الإكتراث :

– هر اندريانو . قل لى من هذا الرجل الذى يرتدى الثوب الرمادى ؟

قاطعها هانز فى حيرة .

– إيمى

أجاب رئيس السقاة :

– الأمر يبدو غير معقول ، ولكنه الوحيد الذى ليس غريباً عن الديار . إنه يونانى من فلسطين ، منذ ثلاثة أجيال أو أربعة توطن أسلافه هنا ، وهو شخصية غير مرغوبة كثيراً ، وإن أقول لك إسنه لأنه يراقبنا . له إسم يشترك فيه أسلافنا جميعاً .

وعندما إبتعد اندريانو جاء أدم . وضع أصيص النخل فى مكانه ، فقال له الرائد بإرتياح « شكراً »

وقررت إيمى ان تتجاهلهم تماماً .

– قبل أن تطلعنى على الأنباء السيئة الوافدة من الجبهة أريد أن أعرف ما الذى قاله لك الانجليز . أتوسل إليك ياهانز . هذا يأتى فى المقام الأول من الأهمية

تنهد زوجها . كان يطعن الشواء بشوكة كما لو كان يعذب عدواً .

– ما ان دخلت إلى مكتبى هذا الصباح حتى استدعانى الجنرال وأخبرنى ان مهمتى فى أنقرة قد ووفق عليها . وان على أن آبادر الى التنفيذ فوراً . وقلت له ... إنى على أهبة الإستعداد ولكن ضابط الإنتقالات لم يتلق بعد أوامر بخصوص زوجتى ، فأجابنى بلهجة قاطعة بأن الأمر يتعلق بمهمة سرية ، ويجب أن تبقى فى طى الكتمان . وإعترضت على ذلك ، ليس فحسب لأن كلماته كانت

تومئ إلى أنهم لا يثقون فيك بل لأننى شككت فيما إذا كانوا سيحتفظون بك رهينة على نحو أو آخر ، وهو ما يعنى إنهم كانوا يشكون فى ولائى . رفع الجنرال عينيه عن أوراقه « لا شئ من هذا كله ، أردنا فحسب أن نوفر عليك مشهداً غير مستحب . لأنه من المحتمل جداً أن زوجتك ترفض ان تتبعك ووفقاً لما لدينا من تحريات فإن الإقامة قد طابت لها فى أورشليم ». « ماذا تقصد بذلك ؟» «أقصد إنها تخالط دون علمك ضباطاً من الـ أو دبليو . أما إذا أردت مزيداً من التفاصيـل فيمكنك أن تسأل الرقيب «وينتر» ولكن إسرع لأنه على أهبة الإنصراف » .

تمهل هانز برهة ثم تنهد من جديد .

- إن وينتر حسب قوله يقتفى آثر «كيرتماير» ويتابعه كظله . خيل له يوم الجمعة إنه ذهب إلى فيلدمان من آجل مدام رابيسكو ولكن هذه نفت بشدة . وبالأمس رآك تدخلين فيلا بكير - آغا القديمة . واليوم قبل انصرافى أخبرنى تليفونياً إنه رآك تخرجين من هناك تواً .

إختلجت أرنبة أنف إيمى وقد إمتلأت بالحقد عيناها ، وصوبت نظراتها إلى الأغوار نحو القاعة الكبيرة .

- كنت قد قررت آلا أقول لك شيئاً ولكن الحال تغير الآن . أخشى يا هانز يا حبيبى المسكين ان يكون كل منا دمية تحركها أيدى إناس لا يعرفون الرحمة ، وقد كانوا يستغلون عواطفنا لحسابهم .

- عواطفنا ، يا إيمى ؟

- عواطفنا ، طموحاتنا ، سم ذلك ما شئت . ما الحاجة إلى تبادل المراسلات مع فون بابن ؟ ألم تكن انت الذى قلت لى إنه هو الذى أعد ، «الأندسلوس»؟ .

رأت الشحوب يكسو وجهه ، والارتعاشة تسرى الى شفتيه ، فقالت له مرتعبة :

– إهدأ ليس لدى الانجليز سوى مجرد شكوك ، ولهذا فهم يرسلونك إلى انقرة سوف يتعقبونك هناك بعيداً عن الألمان !

– ولو لم أكن قد فتحت فمى بالكلام هل سوف كنت تتركيننى ألقى بنفسى فى حنك الذئب ؟

– كلا ياهانز كنت أبحث فحسب عن الوسيلة التى أنبهك بها دون أن أكشف لك كيف أحطت علماً بما جرى وعند الضرورة القصوى كنت سأهمس لك فى أذنك بالأمر لحظة وداعك .

– لقد أدركت جيداً ان الجنرال قد أساء فهم تدخل الامريكان فى شأن نقلى إلى أورشليم .

– ومع ذلك كنت تروى لى حكايات عن نقلك ، وكنت أصدقك ! إنهم شديدو البأس . من يدرى ياهانز مالم يكن تنافسهم هذا من اجل تسهيل الإيقاع بك فى الفخ ؟

قال هانز وقد عاد الشحوب إلى وجهه من جديد ان الأمر مورث لليأس أخطأت إذ لم أتحدث اليك منذ البداية . يجب أن نوحد قوانا كى نخرج أحياء من هذه التيه .

أمسكت إيمى يديه .

– أجل يا هانز لا أستطيع ان أمضى قدماً وهناك مالا أعرف كيف أقوله لك . لا أريد أن أكون عميلة لهتلر .

– لهتلر ؟ هل انت مجنونة ؟ بأكاذيب من هذا القبيل تمكن الأمريكى من

الاستحواذ عليك ؟

إحتقن وجه إيمى وتركت يده :

- أرجوك ياهانز ليس هذه هى المشكلة .

- وهل دار بخلدك يوماً إننى عملت حتى يستقر فى فيينا ذلك المارق ، الأخرق؟

- إننى لم يدر بخلدى شئ . انت الذى إعترفت بأن لك علاقات « بفون بابن »

- كفى عن الصياح بهذا الأسم يا إيمى . من هذا الرجل ولحساب من يعمل . هذا ما لن يعرفه أحد إلا فى نهاية الأمر . أما بالنسبة للوقت الحاضر فإن كلام البابا يكفينى . هل انت صعبة الفهم حتى تدركى انه مع انهيار الألمان على الجبهة الروسية تتفتح ابعاد سلام أبيض ؟ وتطل فرصة فريدة لإعادة أسرة هابسبرج إلى حكم المانيا ! إننى لست جاسوساً يا إيمى انا اتطلع إلى الشرعية ، وضميرى على غاية من الارتياح .

- والروس ؟

- سيجبرهم الحلفاء على القبول فإن هذا فى حقيقة الأمر سوف يعنى هزيمة البلاشفة وهذا أفضل . ذلك انه مثلما أمقت رؤية شارة الصليب المعقوف ترفرف على سماء بلاس شوازنبرج بلاتز - كذلك فإننى لا أرغب فى رؤية القطط المنغولية الصغيرة ترعى على أرصفة « رنجستراس » الخضراء . فكرت فى الأمر تفكيراً جاداً ، سيكون أوتو هو الامبراطور ومن خلفه تقف أمه « زيتا » تلك السيدة خارقة الذكاء . هذا أملنا الوحيد للإفلات من الإحتمال الثالث وهو إنتصار الأمريكان .

قالت له إيمى مازحة :

– ها انت تناطح الأمريكان الأن .

– ترين إنك انت التى تخلطين المسائل الشخصية بالسياسة الا أحمل فى رأسى شيئاً مما تظنينه على الإطلاق . آوه يا إيمى ، لا يجب أن تستعيدى ذكرياتك انت عن فيينا . انك لم تعرفى إلا فيينا مدينة للجوع والفوضى والتضخم والبيروقراطية . أما أنت فقد شببت فى فيينا عاصمة الامبراطورية . وحتى اليوم ، لا أفهم ما الذى دفع فرانسوا جوزيف إلى فتح أبواب «شوينبروق» للعامة فترين الزوار يجوبون فى أرجائه بأحذيتهم الموحلة . كنت ما أزال مجرد رئيس قسم عندما أرسلنى الوزير لإجراء الجرد . وجدت قطيعاً من الأمريكان فى غرفة مارى – تريز ومما زاد الطين بلة ان إمرأة بدينة بحذاء سوقى قفزت فوق السرير وجلست عليه بردفيها الثقيلين وراحت تعلو وتهبط عليه لتختبر مدى ليونة المراتب . لن أنسى هذا المشهد أبداً . كانت تشبك جوربها بأربطة بنفسجية وقد إمتلأ فمها بالأسنان المصنوعة من البلاتين . أثرت ذلك اليوم ضجة كبيرة حول هذا الموضوع فحضر الأمين وجاء يهودى من شركة السياحة التى نظمت الزيارة . أو تعرفين ماذا قالا لى ؟ إن زوج هذه السيدة كان قد تبرع بألف وخمسمائة دولار من المنحة التى أنقذتنا من المجاعة ، كان زوجها ملك الألمنيوم فى بتسبرج وينتج آنية الطبخ . أتفهمين ؟

إجتاحه الشعور بالسخط فاقبل الآن على إلتهام الطعام بشهية . عادت إيمى تربت على يده وكانت تضحك .

– عندما يجتاحك الغضب تصبح رائعاً . كدت تجعلنى أنسى إننى إمرأة خاطئة ، يجب أن تصغى إليك محنية الرأس . وبماذا أجبت الجنرال ؟

– قلت له : إننى لا أتشكك فيما للرقيب «وينتر» من صفات المخبرين ، ولكننى أعتقد إنه بالنسبة إليك وإلى وزارة الخارجية فإن كلام وزير دولة حليفة أو – وهذا كى لا نضيع فى مشكلات القانون الدولى – دولة معادية للعدو ذاته يجب ان

يوضع موضع الاعتبار . وقبل كل شئ ان يكون سلوك فراو بومبرتسبرج سواء فيما يتعلق بالحلفاء أو فيما يتعلق بسلوكها الشخصى فوق كل الشبهات . والخلاصة إنه إما ان يتركك تأتين معى أو أن يبحث عن شخص أخر غيرى ، فأنا لن أسافر . وقد تعمدت أن ألح إلى وزارة الخارجية البريطانية كى أذكره بأننى رجل سياسى ولست مجرد موظف أو جندى من الأنفار التابعين له .

– هذا يعنى إنك لن ترحل ! كم أنا سعيدة بذلك ياهانز ! .

لم تكن فرحتها مصطنعة ولكنها كانت قد قررت عدم مرافقته إلى انقرة . فهم هانز ذلك فخفض رأسه .

– قال إنه سوف يرد على غداً ولكننى بعد أن فكرت فى الأمر ثانية لا أعلم ما إذا كنت قد أحسنت التصرف . إن الأخبار الوافدة من الجبهة تقلب الوضع رأساً على عقب . ربما كان من الأكثر حكمة عدم البقاء هنا فى الأسابيع القادمة ومن جهة أخرى فإننى بأسلوبى فى الحديث عنك قد أكون قد أوحيت له – إن لم تكن لديه هذه الفكرة من قبل – ان يحتفظ بك رهينة لإرغامى على العودة .

– لا أفهمك ياهانز ! تبدو كأنك ما زلت تريد الذهاب إلى أنقرة برغم ما قلته لك عن السبب الذى يريدون إرسالك من أجله ، أو لعلك تشعر بالخوف من توقعاتك بإنهيار الجبهة ، أو ربما تريد مقابلة ذلك الملعون ، وسيط هتلر ، بأى ثمن !

وجه إليها هانز نظرة مليئة بالحسرة وقال :

– كل ذلك معاً يا إيمى ولكنى لن أفعل شيئاً ، لأننى فوق كل شئ أريد البقاء بجوارك ولا أريد أن أتركك وحيدة بلا حماية .

ظهر أندريانو من جديد وخلفه ذلك الساقى ذاته يحمل ساتراً مزيناً بطواويس مطرزة وأقام رئيس السقاة ذلك الساتر أو البرفان على نحو جعل

منضدتها منعزلة عما حولها. وقد سرت إيمى بنظرات عدم الإرتياح التى إرتسمت فى عينى الرائد . صرف الرومانى الساقى الشاب وإنحنى على كتف هانز قائلاً :

– النقيب كورتماير يطلب الإذن بمقابلة سيادتكم فوراً .

فغرت إيمى فاها ، وأمتقع لونها .

– كلا ياهانز ، هذا ...

وأجاب هانز بلهجته الدبلوماسية :

– يمكنكم أن تزيلوا الأطباق فقد فرغنا من الطعام ، إبلغ النقيب إننا ننتظره لتناول القهوة معنا .

طرقع رئيس السقاة أصابعه فوق البرفان ونادى الساقى الذى كان يعطى السوريين بقية الحساب . أزالا معاً ما على المائدة من بقايا وغطياها بغطاء نظيف . كان أندريانو مشدود الإهتمام إلى إيمى ، فقد أقلقته صحتها .

قال لها هانز بعد إنصرافهما :

– هل لاحظت الإعداد للمسرحية . الدروة ، جو الاسرار ، ووينتر يرى كل شئ ، ويدون كل شئ .. صدقت فى قولك . مؤامرة كاملة تحاك للأيقاع بى .

– انت مخطئ ، ياهانز .. الدروة ، أحضرها أندريانو لأن أحد الضباط اليونانيين ، من خلفك كان يغمز لى بعينيه ويضايقنى .

– أوه ، يا إيمى ! انت وهواجسك ..

– وأنت لك هواجسك أيضاً . هل تعتقد إن الحرب تحول بين الرجال وشهواتهم ، على العكس فإن البعض ميالون إلى الإعتقاد بأن الحرب إيضاً وجدت لإرضاء شهواتهم المكبوتة ..

- مثل حروب القرون الوسطى .

أقبل « بينى » ممسكاً قبعته .

قدم نفسه لهما كما لو كان يشغل منصباً أو يحمل لقباً مهماً .

- النقيب كورتماير من الـ آو دابليو دابليو .

نهض هانز واقفاً :

- سعيد بلقائك . تفضل بالجلوس هنا بيننا من فضلك . انت تعرف زوجتى ، ولهذا فليس لإجراء التعارف بينكما من جدوى .

لم يستطع بينى ، أن يغالب إنتفاضة من الدهشة إنتابته . نظر إلى إيمى ثم إلى هانز ثم إلى إيمى من جديد وأكفهر وجهه .

قالت إيمى وعلى شفتيها إبتسامة متعبة :

- إجلس ، يابينى . سارع أصدقاؤك الانجليز إلى إطلاعه على مجريات الأمور .

وعندئذ بدا كم كان هذا الامريكى رغم كل جرأته وثقته بنفسه قليل الخبرة فى واقع الأمر .

تمتم يقول :

- إننى مذهول حقاً ... ما كنت أتوقع قط ... أسقط فى يدى حقاً ... سوف أنصرف لو طلبتما منى ذلك . كان يتصبب عرقاً . ومن جديد عاد ذلك المذاق البهيمى العجر الزخم يملأ فم إيمى ورأسها يصاب بالدوار .

- ساعدنا يا بينى على حل لغز صغير : أهو أنت الذى قال لرئيس السقاة ان يحضر الدروة ؟

– أنا ؟ كنت سأسألكما . إنكما بهذا النحو تلفتان الانظار إلى إجتماع كنت آود ألا يلحظه أحد .

قالت إيمى لهانز ، وقد لمع البريق فى عينيها :

– آرأيت ؟

وسأل هانز :

– ولكن لماذا فى أستوريا ؟ ولماذا كل هذه العجلة ؟

قال ، لا وقت لدينا ... ريتشى الخائب خسر معركتين . «كنيجتزبردج» و «أكرومه» ثلثمائة دبابة كل قوة الجيش الثامن وطريق مصر مفتوح ، إنها مسألة إمدادات فحسب إذا بدا الأدميرال «هاروود» على شاكلة ريتشى وترك القوافل البحرية الإيطالية تصل إلى بنغازى فإن طبرق ستسقط والسلوم ومرسى مطروح ستسقطان من بعدها . وخلال أسبوعين على الأكثر سيجدون أنفسهم فى الأسكندرية . ما الذى يستطيع سلاح الطيران أن يفعله بمفرده ؟

وسأل هانز :

– والتعزيزات المدرعة التى وعد بها روزفلت ؟

أكمل بينى قائلاً :

– المدرعات والطائرات فى الطريق . المشكلة هى الا تقع هذه الشحنات بين أيدى روميل وهى فى صناديقها .

صب الساقى القهوة . لم يمسسها أحد . وعندما رحل سأل هانز :

– وماذا بعد ؟

– ترى . الانجليز يرسلونك إلى أنقرة ليقتفوا اثرك .

– هذا سبق ان قلته له .

قال :

– إيمى . أرجوك عدم المقاطعة .

– عليك أن تقابل فون بابن ، اياً ما كان الثمن دون أن يدرك الإنجليز ذلك وسوف تقول له إنك إنما تتصرف من تلقاء نفسك حاول ان تخمن نواياهم : هدنة ، وقف قتال ، أم إنقلاب المارشلات ضد هتلر . وماهى شروطهم . هذا كله تحت مسؤليتك . لن نعترف لك بأية صفة رسمية .

من وراء الدروة بقى الضابطان يتناقشان وحدهما وأثناء الحديث ترددت أسماء أماكن وشخصيات دون توقف : خاركوف ، ميتكساس ، طبرق ، تشرشل .

قالت إيمى لنفسها فى قلق « مواطنان من بلد كالوبانيس » .

تحدث هانز بأناة وترو :

– دعنى أقول لك . إننى لن أسافر إلا إذا إعترفت لى الآن ان مبادرتك تلقى موافقة الإنجليز وأن شكوكهم المدعاة وتعقبى وتنافسكم على ليست سوى الاعيب موجهة لتغطية ضعفاتهم وقصورهم ، والحاجة الملحة إلى المفاوضات . إنك لست من السذاجة أن تعتقد إننى أستطيع الإقتراب من فون بابن دون أن يعلم الانجليز بهذا الأمر ؟ وإذا لم تساندنى سوى موافقة الأمريكان فإننى آواجه خطراً داهماً وإذا لم يتسن لهم الوصول إلى فأنهم سينتقمون منى فى شخص زوجتى .

أجابه «بينى» قائلا بنبرة تكاد تنم عن الإعجاب :

– منطقك قوى جداً ! الأمر بالضبط كما تقول .

سأله هانز :

– كم عمرك ؟

إبتسم إبتسامة خفيفة مثل المقامر الذى يرى خدعته تنطلى على غريمه فى لعبة البوكر .

– ثمانية وعشرين عاماً . لماذا !

نظر هانز إلى زوجته التى كانت تتابع الحديث بإهتمام ، وقال :

– إيمى فى الثلاثين من عمرها . هل تعدنى ، لو ان مكروهاً عوقنى عن العودة ، أن تتولى حمايتها كما لو كانت أختك ؟

– أوه أجل هذا ما أستطيع ان أعدك به ... سأبقيها إلى جانبى ويمكنى أن أعينها تواً كسكرتيرة . ان الأو دابليو دابليو تغطى إختصاصات كثيرة . أنت تعرف ذلك .

كانت لعرقه رائحة لا تطاق . خلال يومين وليليتين كان قد تم إستئناسه .. تفكر إيمى ... ماعدت أخشاه . فقط أشعر بالحنان ، كما لو كان هانز ، نهضت وقالت :

– أرجوكما . إتركانى انصرف بمفردى . أما أنتما فواصلا الحديث . مناقشاتكما كلها من وحى الخيال بل وإنكما لم تسألانى فى شئ لاحظا ذلك جيداً ، فيما أريد أو ما أفضل . لأنكما متأكدان فى أعماقكما ان هانز سيعود وان روميل لن يجتاز قط الحدود المصرية وإنكما لن توقعا لا إتفاقية هدنة ولا نزع سلاح . هذا ما تنبئنى به غريزتى .

قال لها هانز متسائلا وهو ينهض لتحيتها :

– غريزتك يا إيمى ؟

فى انصرافها عادت إيمى وانحنت وراء الدروة وكى تخدع نفسها بالمسافة اغمضت عينيها نصف أغماضة . زوجها وعشيقها هناك يعاودان الجلوس كى

يستأنفا الحديث كصديقين قديمين حميمين ومثلما فى كوميديات «شنتزلر» الديكور : الدروة الصينية ، الستائر الصفراء ، نخيل الزينة المستجلب من بلدان حارة . وعلى اللوحة الخلفية معسكرات إعتقال ومدن دمرتها القنابل وكأنها كانت قد نسيت هناك . هذه اللوحة التى لا بد إنها كانت تخص مسرحية أخرى . مأساة حرب . اهكذا إذن هى الحياة ؟ خير وشر . لا مهزلة هى ولا تراجيديا . معقدة هى ، متناقضة يتناسب فيها الخير والشر ، ولكن بمعيار من ؟ لو لم تكن .. ميتزى قد ماتت لكانتا قد تبادلتا الحديث عن هذا الأمر . مع كالويانيس ، ربما ؟

عند موقف الأتوبيس كان أندريانو بانتظارها ، مثل البارحة ، وقد لف وعاء الطعام فى أوراق صحيفة .

- ٨ -

يرتعش شراب العرقى فى القدح البلورى مثل شعلة بيضاء متأججة . ولذلك فهو يلهب من يشربه . ومع ذلك أنظر كيف تحتسيه هذه الشرسة التى لا تهدأ غلمتها . جدائل شعرها افاع تتلوى ، وحول عينيها هالات العشق البنفسجية . أيتها الأميرة القذرة ، كلكن فى الدناءة سيان .

وحيدة يا أناه ، كنت . على الدوام كنت وحيدة منذ طفولتك الباكرة . أواه ، لو أن نسمة من الريح هبت على التل . الريح تسرى ، فالوقت مايو وعلي الكروم المزهرة تتمايل الأغصان مثل ثعابين متناهية الصغر ، فاتحة الخضرة ، ورين العجوز يندفع تاركاً ذيله المشقوق خلفه ويسارع الى الانقلاب فى اللجة على ظهره : مبيناً عن ثدييه المغطيين بالندف الأشهب وعن ثنايا بطنه . بينما يسيل الماء من لحيته وحاجبيه الكثيفين وهو يقهقه عالياً ، وأنتما يا بنتى ، أين تذهبان . ولم تلتقط آذانهما النداء . كانت الجرارات يعلو ضجيجها ومن ورائها الصناديق منبعجة مثل ابقار حبلى . بينما السحب تتأرجح ذهبية يكسوها زغب خفيف . وتمضى فوق النهر ساطع الانعكاسات اللامعة لمعان الصلب . كان قاربيهما الصغير أحمر اللون . النبيذ جديد وتقرع الاقداح . وشعر إريك أشقر والمراكبى يلتفت الى ساقه - يا ألهى - الخشبية . وبقفازه الحديدى كان يعتصر منك القلب . الا ترى ، الا ترى يا صاح انهم لم ينالوا عليك ، فاذا وقعت فى اللجة وغرقت فبماذا ستجديك النقود . ولاح سالمون المحاسب الذى يعمل لدى أبى . قميص أبيض قطنى مضلع وقبعة وبرية خضراء . كان يدخن سيجاراً وكنت تبكين ، وهذا ما جملك تختبئين ، وعندما مر بجوارك اطلق صوتاً من دبره متظاهراً بانه لم يرك عودى الى هدوئك مرة أخرى ولا تدعى نفسك تتأذين بسببها

أنثى الخنزير هذه ، السارقة ، هذه الشمس ، هذا الضوء على الأغطية يلهب الجفون . تمددى واسترخى فلن تتكدرين من أجلها . انك تملكين هذا . أنصرف فوراً . لن يقلل من كونى سيدة رفيعة المقام فى سابق الأوان ان أقوم بأداء كل هذه الخدمات . اما هذه الخدمة ، فلا . وأنت ماذا تفعلين اذن عندما تتوسلين اليه أن يجلس على الاريكة وتجلبين له الأوكورديون . انه حقى . وأنا فى بيتى . وانا أيضاً فى بيتى . أواه كلا . أواه ، أجل لا أريد أن أراك . إرحلى . مادامت الحرب قائمة ، فلا تستطعين طردى . هذا هو القانون . ماذا تقول لها ما دام ليس لديها بقية من حياء . ثم ، يا للهول ، لماذا تجارين بالشكوى . انه لا يخصك . وكيف بالله تعرفين ذلك . اننى تفحصته بمصباح الجيب الذى معه . قبل ان يستلقى لينـام ، ولـم يكـن عليه ذلك الشىء . أوه ، يا أناه ، اوه أيتها المخلوقة البريئة ، سألت وما الذى لم يكن عليه . وقالت آثار زرقاء

آمال ومخاوف كثيرة ، أرق وسهاد بلا طائل . تسمعينهما يتأوهان عشقاً وتظلم الدنيا فى عينيك . وما كانا منذ هنيه يتبادلان حتى التحية . لماذا ليس بمستطاع ان يموت المرء ما ان يطلب ذلك . انزلت بلا جلبة حاجيات الميجور من على الكرسى ، وأحضرتها الى باب الغرفة . وتسلقت الى الشراعة العلوية ، واطللت منها كلص ، ورأيتها تنصرف حافية القدمين وقد أمتلات شبعاً رافعة فى ضياء الفجر يدها ممسكة بالقدح البللورى الذى ينتمى الى طقم غرفة طعامك الباكاراه . عشرة ماركات أجر أستعمال كل قطعة من هذا الطقم . ولكنها نسيت الزجاجة ، وأنت فى حوالى العاشرة . وضعت على الصينية طبقاً من العصيدة ، وبيضتين ، ولبناً وقهوة وزبداً ومربى وعيشاً مقدداً . ودخلت الغرفة دون أن تطرقى الباب وتركتها على المنضدة . وهو لم يستيقظ من نومه . كان ينام غير مرتد سوى سرواله الداخلى . صدره مرمرى مثل التماثيل . دون علامات زرقاء ، ياللتعاسة . وأخذت الزجاجة المنسية وصفقت الباب من خلفك مثل الرعد وانت خارجة . وجلبها اليها ، ونشب الشجار وراحت امرأة فيينا على أثر ذلك تسأل

ماذا جرى ، وأبتدرتها قائلة تفاهات ، وكنت تريدين أن تقولى لها اننى متحاملة عليك انت ايضاً ، كما كنت تريدين أن تخبريها بأمر فرائك .

عدت الى الدخول فيما بعد . وجدته قد أجهز على محتويات الصينية وراح يحملق فيك دون ان ينبس بكلمة . لم أخطئ إذ اعتقدت انك ستحتاج الى الغذاء بعد كل هذا الجهد . وقال فعلاً كان فكرك حكيماً . وقلت ألا تسألنى اين ذهبت زجاجة العرقى . وقال أظن انك اعدتها الى مكانها . وقلت ما الذى تصورته عن بيتى على كل حال ، يا سيدى . وقال لا تؤاخذينى يا سيدتى ، كان ذلك دون قصد أو تدبير . وقلت سبق أن أخبرتك أنها جاسوسة ، أخبرونى بذلك عند سبينى . وقال أما عن ذلك فلا خوف منه . وقلت اهنئك ، اذ أنك أبديت ثقة أكبر بها ، عما ابديته نحوى ، انا التى جاهدت لاخفائك طوال هذه الشهور . وقال تخفيننى من أى شىء . واخبرته . وقال أن الأمر ليس بالضبط على هذا النحو . وان الدليل على ذلك أنه قرر المغادرة بلا رجعة . وعندئذ انهرت انت واخبرته بكل شىء ولكن عندما سأل منذا الذى يعرف بالأمر غيرك ، وحملك على ان تقتسمى برأس سام أخفيت عنه انك قلت عن كل شىء منذ أول يوم للمرأة النمساوية . لم يكن ليفهم . لم تكن لديه أدنى فكرة كم يلين القلب فى بعض اللحظات ، ولا كم تبلغ الحيل التى يتفتق عنها ذهن المرأة عندما تريد أن تفهم منافسة لها انها انما تطأ حقلاً له صاحبه . وما كنت ستتوصلين الا الى إغضابه .

والآن ، أغان . أمرأة فيينا لها بدورها نزواتها . قاطعتهم مدة يومين ، واليوم ، ها هى تدعوك الى قدح من الشاى . فأعتذرت حتى تعطيها درساً بينما ظلت عيناها مسمرتين طوال الوقت على بابه . ولكنها لم تجرؤ . ارتدت الروب دى شامبر وعادت تنزل لتأخذ حماماً . ودت ان يسمعها اندريانو فينخرطان فى الحديث . وانت كنت تقولين هى زوجة وزير وسوف تعرف كيف تحافظ على مستواها . واذا بها لاتجد صحبة أفضل من صحبة هذا الصعلوك . وقد سويا

أمورهما ، وها هما يعودان الى البيت معاً كل مساء ولا بد أنه يدفع عنها فى الاتوبيس ثمن تذكرتها . لا حياء فى وجهها . الزمى حذرك يا أناه ، ولا ينطق لسانك بكلمة عن غزوات تلك الخنزيرة . سوف تجعلينها تنتبه الى الأمر . من الرائع على أى حال أن يدب بينهما الشجار ، وتمزق كل منهما شعر الأخرى وهما قادرتان على النزول الى هذا الدرك ، فليس لهما بالكرامة أدنى صلة . تصورى لطمة أخرى . وأنت ترين وتموتين ، لطمة أخرى ، وأخرى . يكاد الغيظ يقتلك وانت تتابعينهما ، مهلاً مهلاً . أساء امساك شفرة الحلاقة ، ولهذا فهو يتأوه مثل شراع منصوب بالزفرات ممتلئ . ماذا بك يا أناه أهو ستارك الكتانى السبب يعنى هذا ان ثمة نسمات قليلة . سفراً طيباً . لو أنه رحل حقاً كما قال فسوف يبقى لك سام . يا للتعاسة . كم هو جاف وغير مكترث مثل ابيه .

ما هذه العزلة التى تسود العالم . كانت توجد فى ازمان وأماكن أخرى الصالونات ذات الثريات ، والأرضيات المغطاة بالخشب ، والحوائط المكسوة بالحرير ، والآت الكمان ، والسيدات الأنيقات ، والجواهر ، أما الآن فقد ذهب كل ذلك وأنقضى . كم أنت طيبة يأناه . سرعان ماأشفقت عليها ، فانتظرتها حتى تفرغ من إستحمامها كى تجلسا سوياً وتصبى لها شاى . ثم قمت تستطلعين الأمر فوجدتها تجلس على سرير روزا وبجوارهما تلك العجوز الشمطاء . وقد راحت تمسك بين الفينة والفينة بطرف ردائها ، وترفعه فيظهر فخذا إيمى العاريان فجأة فيتضاحكن . ومضت روزا فى حديثها بلهجة خطابية شعثاء وثائرة مثل بائعة خضار . وراحت تتحدث بلغة المانية غير شبيهة بلغة الجيتو . بينما أصغت إيمى فاغرة الفم ، فقاعات هواء ، كما لو لم تكن تعرف كيف تحافظ على مقامها . قالت روزا كلا . انت لا تعرفين اليونانيين . هم أيضاً بشر ، أى وحوشاً . الالمان ، الروس ، البولنديون ، اليهود ، المسيحيون ، كلهم وحوش ، يخدعونك سنوات طوالاً ثم تأتى الساعة التى يظهرون فيها على حقيقتهم . كذب وحيوانية هذا هو حال الدنيا . ضحك علينا الرسل ، خدعنا الحاخامات ،

ضحك علينا السياسيون ، ضحك علينا قواد الحروب . الكتب والصحف والآيات ، كل هذا كذب . وعندما ادركت ذلك قلت ياروزا ، ماذا سيحدث الآن ؟ كيف العيش دون قانون ، أواه ، يا سيدتى . كم هو مرعب . لم يبق شيء ، سواى ، وهؤلاء الايتام والعجوز . ستكونين ياروزا انت القانون وأمك هى الآله . وعند كل سؤال كنت اسأل نفسى كيف كانت ستتصرف المرحومة ، ايما كان تصرفها سيئاً أو حسناً . وعلى هدى من ذلك كنت اتصرف . ولو لم أكن قد تشبثت بهذا الطوق كنت سأغرق . لا أعرف ممن سمعت عن اليونانيين ولكن سأقول لك ما أعرف .

وشرعت تطلق فقاقيعها ، التى كنت قد سمعتها لدى الآنسة باميلا . وأردت الانصراف ، ولكنك بقيت كى تراك ، وتخجل . كانت تقول لها وقفنا فى ميدان القرية كى نودع بعضنا بعضاً . كانت عربة النقل مكدسة بالنساء والاطفال . وكان السائق يتعجل الرحيل ، فكان دائب الضغط على النفير . قلت له سيسلاف هنا نفترق . ولن نلتقى لا على الارض ولا فى السماء . ضل من كذب . شكاواى منك مرة ، كنت زوجاً فظاً ، واباً قاسياً ، وابناً مستبداً لا يقبل كلمة من أحد . القيت على عاتقى امك العجوز التى سترهق ساعدى ، وتخلفت عن اللحاق بنا رغم اننى كنت بحاجة اليك كى تحمل الاطفال . وكانت الدموع تنهمر من عينيه سميكة مثل حبات الفاصوليا ، وابتدرنى قائلاً سامحينى ياروزا على العبء الثقيل الذى حملتك إياه ، إنى ما كنت أتحمله وحدى . من سوف تنقذين من هذه النفوس الأربعة سوف يكون مكافأتك . وحملنى من ردفى ، ودلقنى فى عربة البضاعة ، كما لو كنت جوالاً من البطاطس .

وهنا تدخلت ، وذكرت الشاى . وقالت لك إيمى لحظة واحدة ، سوف نسمع الآن عن اليونانيين . وقالت روزا عن عربة النقل أنها كانت تشبه نعشاً ، وقد نقلتهم من اغلاتسى وعندما وصلت الى شاطئ البحر انزلوهم الى العنابر ، كى يعبروا الدردنيل ثم البسفور . اما بعد ذلك ، فقد كانوا ينزلونهم من المركب ما ان

يطلع النهار ، وكانوا يسافرون بهم ليلاً فحسب . امضينا الرحلة واقفين جنباً الى جنب ، ياسيدتي ، والا فما كان ليتسع لنا المكان ، وكنا ثمانمائة نسمة ملتصقين ، مثل السردين في العلب ، إن لم يكن أسوأ . لك أن تتصوري مبلغ العفن والقذارة . وكنا نرتل الصلوات . اصرخ اناديك ليل نهار ، يا ادونيس ، وإنت لا تجيب ، ولا أعرف كيف ارتاح ، ثيران قوية كانت تحوطني ، ثيران قوية من باسان . وعندما كان يموت من حولي احد في مكانه يظل مثل مومياء محنطة ، وما كان يقربه أحد . وكان معي قطعتان ذهبيتان من عملة الفيورين ، أعطيتها لقاء الحصول على مقعد مهلهل ارقدت عليه العجوز ، ووضعت الطفلة الصغيرة في حضنها ، وبذلك قدر لهما النجاة . وعندما دخلنا بحار اليونان أخذت سفينتنا تلعب لعبة الاستغماية مع السفن الحربية الانجليزية من جزيرة الى أخرى .

القيظ ورائحة العرق والعطش يسود المكان . إنها جهنم التي يتحدثون عنها . أعطينا حلق الطفلة للحصول على كوب ماء ، دليّ الينا من الكوة ، وقد كنت أحمل هذا الطفل على كتفي من أجل ان يتنفس بعض الهواء . وعندئذ رفعت روزا ميدعتها ، واشارت الى ساقيها الضخمتين المليئتين بالدوال ونقاط سوداء وبنية بسبب الوقوف المتواصل . ومضت تقول راح الدم ينزف ولم أكن اتبين ذلك . ثم أشارت الى عنقها وأعلى صدرها . كانت بشرتها محروقة . وجذبت الولد الصغير . وانزلت لباسه . كان فخذاه محترقى الجلد من تأثير التبول وعدم النظافة . عندئذ لاحظت ان قضيب الغلام منتصب لأن أرداف إيمى عارية فضحكن ، وضحكت العجوز دون ان تدرك ما حدث ، بينما خجل الغلام فأخذته شقيقته وخرجت به . وقد بقيت لأنك كنت ستسببين لايمى حرجا ، اذا ما أظهرت كم تعافين هذه الأمور المألوفة . كنت احتضن طفلى «موسيك» وفى اليوم الثانى كنا ندور أمام شاطىء حيفا مختبئين فى قاع المركب دون أن يجرؤ واحد منا ان يطل برأسه . قلت لنفسى انه لأمر غريب ، فهو قد كف عن الصراخ . كنت قد نمت واقفة . نظرت اليه فوجدته قد اختنق . كان المفضل من الاولاد عند

سيسلاف ، ولن انسى عندما كان يعود فى المساء مرهقاً ، وقد علقت به الأوساخ ، اذ كان يعمل فى معمل دخان ، ورائحته تشبه نتانة السمك وعفونة الجميز ، كان ينحنى على السرير الصغير الذى صنعه بنفسه من بقايا برميل صدىء ويظل يصغى الى تنفس الوليد برهة ثم يقول «هم» ولا شيء غير ذلك ثم ينصرف . من بين النفوس الاربعة التى عهد بها الى أمكننى ان انقذ ثلاثة بالاضافة الى نفسى . وقد كانت هذه مكافاتى .

وانخرطن فى البكاء ، فتركتهن . منذ الصباح كنت تفكرين فى ... والآن قد تخلص ذهنك من همومه ومع ذلك لم يكسبك ذلك أية شجاعة . بل نالك العطش ودوار الرأس فحسب . وغبت فى النوم .

إعتادت الغراب أن تحضر لى يومياً الصينية وتقضى بعض الوقت معى فى الثرثرة . عندما قلت لها اننى لن أستطيع هذا الإسبوع الدفع مقدماً ، حيث إننى أنتظر مابين لحظة وأخرى وصول مبلغ من المال ، لاحظت إن الحول قد طرأ على عينيها وقالت لى فى الحال إن ذلك لا أهمية له ، ولكن حرارة الحديث جعلنى أدرك مع ذلك كم كان للأمر أهمية . فعلى الرغم من تأكيدها على أنها يكفيها أن تحصل على خمسين ملزاً عن الأفطار ، واعتقادى انها تخسر بذلك نتيجة تهورها وعدم تركيزها ، إلا أننى عدت وتأكدت أنها انما تفعل ذلك لتطويقى بصنيعها ، حتى أشعر اننى بالفعل ضعيف أزاءها ، وهى تلعب دور ربة البيت ، ولكنها أكدت أن الدفع يجب ان يكون مقدماً ، وان هذا لا تساهل فيه .

- كما تفهم يا سيد كالويانوس إننى ترعرعت على المبادىء والمثاليون من الناس يريدون ان يكونوا على ما يرام على الدوام . سوف تقول لى ولكن الزمان الآن زمان حرب . وانى اتبين ذلك جيداً ، وفى بعض الاحيان ، اجلس وافكر : أقول لنفسى يا أناه كثير مما يحدث من حولك بل وما تفعلينه انت ليس فكرة مخالفة للقانون . أنك تحصلين على السكر والقهوة من السوق السوداء فلا تسجلى بأنتظام كل شىء فى الدفتر الذى تتطلبه الشرطة . أفراد يأتون ، ينامون ، يرحلون ولا تعلمين شيئاً عنهم . هل تعرف ماذا قالت لى رابيسكو ؟ إننى قد حولت النزل الى بيت مشبوه وبالطبع فهى تقول ذلك من منطلق ذاتى ، أخ ، عفواً لم أود إحراجك . فى الواقع عندها حق ، إليس كذلك ؟ ها ، ها ، ها ، إنظر إلى الزوجين الذين يقيمان بغرفة الميجور . يبدو من بعيد انهم ليسا متزوجين ولكن فلنترك علم النفس جانباً . لقد قرأت على حقيبة الرجل «رونالد فيلبوت» دكتور

فلسفة « من أين أتيت ؟ » أجاب من ايسماعلية ويقصد الإسماعلية أى من مصر .
وعلى حقيبة السيدة نانسى كامبل ، كتب بغداد ، العراق هل رأيتها ؟ يجب أن تراها . يجب . إنها رائعة . اذا نظرت اليك بعينيها البنفسجيتين فسوف تسمع زقزقة جنادب الليل .

– جنادب الليل ؟

– سوف يخيل اليك انك تستقل مركباً تسير بك فى الليل وحيداً ، وفجأة عند مرورك أسفل جسر البرج تلمسك ضفيرة من شجرة لبلاب فيقشعر بدنك . ترفع عينيك فترى السماء مثل شبكة أسطورية ، كل عقدة فيها علقت بها قطعة من الماس . وعندئذ تسمع فى هدوء الليل زقزقة الجنادب تفد من بعيد مرتعشة ، أو ربما كان ما سمعت هو احاديث النجوم فيما بينها ، فى الساعة التاسعة من صباح الغد كانت ثملة من جديد .

كانت الساعة التاسعة صباحاً ، ولا زالا ثملين .

– ما رأيك ، يا سيد كالويانوس . هل يليق ان اطرق بابهما . لقد اغلاقاه منذ مساء أمس . هل تعلم كيف أتخيلهما ؟ كما لو كانا متحابين منذ الصبا ، ولكن مزقت بينهم الاوضاع الاجتماعية . ثم قتل الزوج ، وكان زواجها عاثراً ثم جاءت الحرب الآن لتقلب كل شىء رأساً على عقب ، هربا كى يعيشا ربما أسبوعين من السعادة ، اما بعد ذلك فليأت هتلر . إن كل شىء ينزلق ، ويميل ، ويدركه الغرق . أم تعتقد أنهما اختارا بيتى لينتحرا هنا . أهو شىء سىء ان اذهب لحظة استرق النظر فيها من ثقب الباب ؟ كم من المآسى يقرأ عنها المرق . ان الشيطان الذى يتقمص جسدها تخنقه هذه المرأة بأحتساء النبيذ الأبيض ثم تعود فتركله ثانية لتتجسس على فرحة البشر المدفونة . عادت بعد قليل وبدت شبه يائسة ، وقالت . لا شئ هناك . هو يكتب خطابات وهى تمشط شعرها . إنتظرت حتى تقول شيئاً عن إيمى ولم اعطها الفرصة لاذلالى بان انطق بأسمها

. عادت تستكمل حديثها وقالت : انك اذاً تفحصت أمور البشر جيداً فى زماننا ، فلن تجد إنساناً إلا وينهش كبده صقران أو ثلاثة . فهناك من يتعامل فى السوق السوداء ، وهناك من ينهب أموال الشعب ، وهناك من يخون زوجته ، وهناك من يكفر بربه ، وهناك من يناهض الحزب الذى ينتمى اليه . هذا العالم ، يبدو فى بعض الأحيان مثل سلة مليئة بأسماك الكابوريا الحية . نعض كل من حولنا ، ويعضوننا هم بدورهم ، ولا يخلو الأمر فى تشابكنا أن نعض انفسنا أيضاً . وكلما ازددنا الما كلما كززنا على انيابنا ونقول انه يؤلمنى ، ولكننى انا ايضاً . سوف اقطعه ارباً ارباً . وينتهى الأمر بنا الى ان ندمر انفسنا بأنفسنا خذ مثلاً على ذلك رابيسكو ...

- بل لنأخذ مثالاً على ذلك شراميك .

- لن اعترض على ذلك ،، ولكن لماذا هى بالذات ؟ هل تعلم انها رفضت التوصية عليها كى تلحق بالعمل ؟ فتاة سيئة الحظ هى . لا اتحدث فى هذا عن الحب فهذا موضوع آخر . ممتازة هى . يأخذونها الى العمل ويعودون بها الى البيت بسيارة ليموزين . يسمحون لها بالراحة ظهراً . اما بعد الظهر ، فانها تذهب احياناً الى العمل ، واحيانا أخرى لا تعمل .

- أهى الشراميك نفسها التى أخبرتها . وماذا قالت لها ؟

- بل حدثتها أنا . عندما كنا نحتسى الشاى بالأمس إقترحت مس كامبل الفكرة فهى تهتم كثيراً بالتشيكية ، فكان ردى ولم لا . سوف أقترح عليها ذلك اليوم . وقد فعلت .

قلت : ربما تكون مهمة سرية .

- ربما . ولكن سوف أحصل على معلومات أفضل . ويوم الثلاثاء احضروا روزا بدورها فى الليموزين ذاتها . سوف أسألها بلباقة .

غيرت مجرى الحديث ، ولم تتركنى أحصل على المزيد . لا يعنينى ذلك فما كنت أود معرفة ما حصلت عليه بالفعل .

ظهرت ثانية قبل الظهيرة ، مشرقة الوجه هذه المرة ، وسألتنى :

– أحقاً إسمك كالويانوس ؟

– بالطبع . ولماذا تسألين ؟

– هناك من جاء لزيارتك .

كان الشخص الذى يعرف الاسم الذى أقيم به عند الغراب هو حاجى فاسيلى ، ثمة رائحة تفوح ، فكرت . إنه هو .

قال لى وهو يصعد السلم ببطء جهز متعلقاتك ، سوف نأخذك معنا . سوف ترحل .

سألته : الى أين ؟ هل انهارت الجبهة ؟

– لقد إنهار العالم كله ، وليست الجبهة فقط . فعلها الملعون . لمدة يومين يجرجرنا فى أقسام الشرطة . لا تستطيع مارغيتولا العيش معهما . منذ يوم الإثنين ننام فى الدير .

– لذلك كنت الاحظ إن البيت يخيم عليه سكون غير عادى .

– كنا نفكر فيك أيضاً يابنى . سوف نقضى وقتاً طيباً فى حيفا عند صهرى ، فهو أعزب يملك محل بقالة ومطعماً ، ويقيم بالعقار ذاته ، بالطابق العلوى ، حيث توجد غرف كثيرة . كما ستكون الاقامة هناك اكثر ملاءمة بالنسبة للموضوع الآخر . البيت هناك يطل على الميناء .

ميناء حيفا .. حاولت جاهداً أن أتذكر أين رأيته . هل فى الأحلام ، أم فى الحقيقة . ميناء صغير مقفل على شكل حدوة حصان . زمن طويل مضى . منازل

تركية ذات ألوان صفراء ووردية ومسجد مربع ذو سقف منخفض تعلوه مئذنة قصيرة . وعلى يسار الداخل ، فى الخلف أشجار البرتقال وبعض النخيل وتلال باللون البنى والأشهب . على يمينك اطلال ثم ورشة اصلاح ، وشباك الصيادين منشورة وأكواخهم المبنية من خشب نخر . ومركب ذو صار واحد مربوط الى وتد أخضر وبعض القوارب .

لم يكن بإمكانى إتخاذ قرار بهذه السرعة فواصلت الحديث :

– ولماذا استدعتكما الشرطة ؟

– قدم بلاغاً بأننى هددته بالقتل . فقالوا لى لو حدث له مكروه ، سوف نقبض عليك انت .. قلت لهم لست أنا وحدى ، هناك آخر غيرى . سوف يأتى منه الايذاء . زوج تلك المرأة التى يعاشرها . اننى اعرف الأرمن حق المعرفة . فقالوا لى ربما يكون كلامك صائباً ، ولكن لم يقدم منه بلاغ بعد بخطف زوجته . لك ان تتصور اذن جسامة ما يسعون اليه .

– هيا ياحاجى فاسيلى خذنى لأودع العمة

واردفت قائلاً :

– لن أرحل معكما الآن . ربما الحق بكما فيما بعد . هذا قرارى . أعطنى فحسب عنوان صهرك .

كنت أكذب وانا أعلم إننى لن أذهب أبداً الى حيفا .

كنت أذكر إسم شقيق الست مارغيتولا ، حيث كانت والدتى تكرره عادة . لقد رددت امى اسمه مراراً وذكرت انه ظل أعزب لأنه كان يحب جدتى . عندما ترملت جدتى طلب يدها ولكن الحظ خانه من جديد . ما الذى جعلنى أتخذ قرارى فجأة؟ أهو قدرى ؟ اصغيت الى قرارى من جديد – وفد الى بلهجة خفير سواحل تركى من كريت . وندمت على تسرعى فى اتخاذه ندماً مريراً ولكن هو قرارى ، يلوح لى

مقنعاً بوجه إيمى الجميل .

واصلت حديثى قائلاً :

– لم اجدك كى أخبرك . مساء السبت التقيت بشخص من القيادة . وتوصلنا الى اتفاق مناسب . اننى لن اغير خططى ولن احيد عنها ، ولكن كل ما فى الأمر انه لم يعد ثمة عجلة كبيرة . ثم اخبرنى انهم سووا الموضوع مع القيادة المحلية ، وما عادوا يبحثون عنى . الذى يعوزنى هو المال فحسب .

وقال العجوز :

– هذا ما فكرت فيه انا أيضاً .

اخرج حفنة من الجنيهات ، تربو على الخمسين . خلع سترته ثم فك الحزام الجلدى من على وسطه ، حيث كانت الجنيهات مرصوصة مثلما ترص حلقات الرصاص . اخذت الأوراق المالية ، وقلت له :

– ارجوك ان تحتفظ لى بالباقى حيثما ذهبت . انها هنا ، ستسرق منى .

وقال لى :

– انت صاحب المال ، افعل بشأنها ما شئت . سوف تخبئها لك مارغيتولا الى ان تحتاج اليها .

وتذكرت فجأة امراً ، فقلت له :

– وماذا عن سترتى العسكرية ؟

– لم اكن اعرف ما اذا كان يجب على ان احضرها لك . لقد تركناها حيثما تعرف . ولكننا جلبنا لك على أى حال نسخة من المفتاح .

اتفقنا على الانخرج فى وضح النهار معاً ، حتى لا يرانا احد . فمن يدرى

ماذا سوف يحدث غداً . اتفقنا على اللقاء الساعة الثانية فى موقف سيارات الأجرة الذاهبة الى حيفا ، كى اودعهما .

– وعلى أى حال ، فأن هذه البقرة عرفت من أنا . سنوات طوال ونحن جيران ، ولعلك تفهم ماذا يعنى ذلك . وهى أمرأة على غاية من الفضول ، وان كنت قد تظاهرت باننى لا اعرف لغتها العربية .

– ان الذى يضايقنى ، هو انها سترى ان معى ما ادفع به الأجرة ، وسوف تخمن من الذى اعطانى المال .

– لست ملزماً بأن تعيرها التفاتاً !

صمت العجوز برهة ، ثم اردف يقول :

– ولهذا السبب ، اقول لك : تعال معنا . ان صهرى شخص متفاهم . ثم انك سوف تعتمد على مالك فى الانفاق على معيشتك . وهو متوفر لديك ، حمداً لله !

– كلا يا أبتى الصغير ، امهلنى شهراً ، وسوف نرى .

– على رسلك اذن ، انت سيد قرارك .

مضيت أنظر الى ظهره ، وهو ينزل الدرجات ، واحسست الآن فحسب ، كم كان عجوزاً ، وقلت بداخلى «يجب أن أعيش سنتين أو ثلاث سنوات أخرى ، كى أتبين هل سأندم هذه المرة ايضاً أننى انصعت لقدرى ؟»

طال أمد الرحيل بالعجوزين . الشمس بأعلى السماء تتأجج حرارتها وتتوهج والظلال أضحت على الارض قصاراً . فى محطة سيارات الأجرة تزاحم الناس ، وراحوا يساومون بالعربية السائقين على أجرة السفر ، يجذبهم المسافرون من ستراتهم كي يستحوذوا على انتباهم . يمسكون بخناقهم فى حمية لحملهم على الموافقة على عروضهم ، ويتحدثون بعبارات خشنة مقتضبة ، تلفظ انفاسها

منغمة . يأتون بأيماءات وحركات واشارات الى السماء ويفتحون اذرعتهم للأفق . وكان الجو يفوح بزخم الطيور ووبر الأبل . وكان السائقون يربطون بالحبال الحقائب والسلال على اسقف السيارات . وبعود من الغاب يقيسون مستوى البنزين فى الخزانات ، ويتفحصون اطارات سياراتهم فى صمت مثل البكم . وراحت مارعينولا تجيل نظراتها المعتمة ببطء فى المارة امام الحوانيت المحملة بالحمام الذى ينزل يلتقط الحب من بين اقدامنا بلا وجل . وكانت شفتاها الجافتان ترتعدان كما لو كانت تودع اورشليم الى الأبد . ولما بقيت هناك وحيداً ، جلت ببصرى من حولى انا أيضاً ، وقد بدا لى كل شيء غريبا وعدوانيا ، والضوء قاسياً يخمش الحوائط البيضاء ثم أخذت الأتوبيس وعدت الى البيت كى أنام . كنت قد أضحيت غير معتاد على الحياة والتجوال فى وضح النهار .

ولا بد أننى نمت وقتاً طويلاً . وعندما استيقظت كان لازال النهار يبعث بضيائه . وسمعت فى الممشى جلبة حفلة شاى . تحسست ذقنى وجدتها حليقة ، فهيأت نفسى قدر المستطاع للخروج . وفتحت الباب . كان قلبى يدق كما لو كنت ذاهباً الى موعد غرامى . وفى التو تعلقت بى انظار الغراب .

– أوه ، ياسيد كالويانوش ، كنت أتأهب للنداء عليك . أحضر مقعداً ، لو سمحت .

لم تكن إيمى هناك . وقد تبينت ذلك فى الحال . كما بدت لى الغراب مختلفة الحال . كانت الغراب قد أعدت المائدة احسن إعداد ، وبسطت عليها طقم الشاى الجميل والفضيات والغطاء الرقيق . كان شعرها مفروقاً . وجرى التعارف : الزوجان فيليبوت يجلسان على الأريكة . ويجلس بمبرتسبرج ، على مقعد مولياً ظهره الى السلم . كانت عينا الانجليزية بحيرتين من الماء البنفسجى ، وقد أسندت رأسها ذات الشعر الكستنائى على كتف فيليبوت الذى امسك فى راحتيه بيدها ، وراح يلاطفها رغم حضورنا . كانا يبدوان فى ميعة الصبا ، رغم ما

احاط بفمها من تجاعيد غائرة . وكان شعرها المفروق عند الوسط يكسوها بمسحة تبدو معها وكأنها إما من المثقفات أو من مربيات الاطفال . وما كانت تشبه قط سيدات المجتمع الراقى .

وقد كانت المرة الأولى التى أرى فيها الغراب تصب الشاى للحاضرين بهدوء ، وبحركات محسوبة .

– كانت السيدة فيليبوت تقول لنا أنها رأت فى المنام حلماً : انها كانت تتحسس سنة من اسنانها ، فأنخلعت بين اصبعها . وانى لأقول انها سوف تتلقى نبأ سيئاً ، نبأ وفاة أغلب الظن .

بادرت بالتعقيب على ذلك سريعاً .

– لحظة واحدة ، ياسيدتى . أخشى أن مفاتيح احلامك ليست محزنة فحسب ومغلوطة أيضاً ، وفيها تجاهل لفرويد .

أصلح بمرتسبرج من وضع نظارته على نحو آلى ، ونظر الى ساعته . ثم توجه الى بصوت داخلته خشونة كادت الا تكون ملحوظة ، وقال :

– واضح ان الموضوع يضايقك . وهذه يثير دهشتى اذ يقولون ان اليونانيين أكثر آلفة بالموت .

وتدخل السيد فيليبوت قائلاً :

– ربما ، ربما كان التفسير الفرويدى الذى الحت إليه اكثر ايضاحاً مما تتصوره . فى عقلك الباطن وفى عقلى الباطن انا ايضاً يتوارد الحب والموت كمفهوم واحد .

لم تحرك زوجته ساكناً . اكتفت بأغماض عينيها فحسب ، كعلامة رفض لما عرضته عليه الغراب من طبق صغير فيه قطع من الحلوى .

وقلت له :

– ربما كان ذلك مسألة سن . فبالنسبة لشاب من الطبيعي ان يحيل كل شيء الى الموضوع الذى يشغله فى المقام الأول ، أعنى الحب . ولكن بالنسبة لرجل تقدم به السن ...

وقد ادركت اننى هنا قد اتيت بخدعة ، ومن أجل ان اسكن روع الانجليزية جرحت امرأة ظلت لعدة شهور تعتنى بى كما لو كنت ابنها ، ولكن كان الأوان قد فات الآن .

– كلما تقدم السن بالانسان أضحى ، اكثر تفكيراً فى الموت .

ومن أجل اصلاح ما افسدته بعدم تحرزى ولو قليلاً ، اضفت قائلاً أن ما قلته ليس له أدنى صلة بى ، لأننى لو اخبرتكم بالحلم الذى رأيته هذه الليلة ، فلسوف ترون أن الأجدر أن أصنف بين من تقدمت بهم السن .

قال بمبرتسبرج برفق هذه المرة :

– هذا حق ، لا شك انك لست على خطأ . واننى الاحظ ذلك على نفسى منذ ان تجاوزت سن الخامسة والأربعين تهب فكرة الموت حيث لا أكون متوقعاً لها . كان يحدث لى فى القاهرة أن أرى شخصاً فى دار خيالة أو حفل موسيقى وبسبب طريقة قص شعره أو انحناء ظهره لا ألبث ان اهتف قائلاً : انه فريتز ، ولكننى سرعان ما اتذكر ان فريتز لم يعد على قيد الحياة ، بل وكل رفاق الفصل بقيينا تقريباً قد ماتوا . اعنى ان فى حياة الإنسان حاجزاً اذا ما ابلغه شرع يتساءل متى سيحين دوره . وبالنسبة لأولئك الذين لا يشعرون أنهم على آهبة الاستعداد ، فأن قلقهم يكون رهيباً .

قلت بغير ما اقتناع كبير :

– ليس ذلك ضرورياً . ربما يحدث ذلك عندما يبلغ المرء السبعين من عمره او

أكثر ، ولكن فى الجبهة ، على سبيل المثال ، حيث يكون الجميع ...

وسمعت صوت نانسى ، حاداً عميقاً مثل صوت اوتار الفيولينسيل ، وقد رفعت رأسها قائلة :

– الأجدر ان تعود بنا الى الحلم الذى رأيته ، يا سيد مانوس .

كانت عيناها معتمتين ، مثل بحيرة تغشتها سحابة ، واضافت الغراب قائلة :

– أجل ، أجل ، قل لنا عن ذلك . انت تحسن القص .

هذه اللهجة استهجنتها فى هذه اللحظة . كى ترضى فضولها الخيالى ادخلت مثل مهرب ، موضوع الموت فى حديثنا . وكان من السهل ان ندرك ان الانجليزية الشابة كانت قلقة لأن فيليبوت (زوجها أو عشيقها ، الأمر سيان) كان عليه ان يعود الى الجبهة فى وقت قريب . ولم اكن بقادر ان أرتجل حلماً أخر ...

سمعنا الجرس . حانت صلاة المساء . أخرج بومبرتسبرج ساعته من جديد . بالدور العلوى فتح باب ثم اعيد غلقه . خيل الى انه قد بدرت من خشب السلم قرقعة . أنتظرت هنيهة . لا شىء .

شرعت أقول :

– نحن فى احدى ضواحى اثينا ، عدة سنوات بعد هذه الحرب . تجاوز الوقت منتصف الليل ، ونقترب من الواحدة . يأتى الى الميدان رجل مسرعاً يتلفت من حوله ولا يرى احداً . الستائر الحديدية لواجهات المحلات مغلقة ، والمقاهى مقفلة . وقد نقلت المناضد والكراسى الى الداخل . الضوء ليس شديد العتمة ، وقد علق المجلس البلدى هناك مصباحاً على وتد . وفى منتصف المكان . على الارض نبات البيجونيا ونباتات أخرى خضراء . وقد يقال ان هذا الرجل هو انا ، ولكن ثمة شيئاً غريباً . أنه شخص مجهول ، وشعره ابيض . يرتدى معطفاً واقياً من المطر ، مرفوع الياقة . وقبيل لحظات قصار كان يلعب الورق فى بيت

صديق ، من تلك البيوت البيضاء المتناثرة بين اشجار الصنوبر والتوت . لقد حان ميعاد الأتوبيس الأخير ، ولا يريد ان يضيع منه .

أنه الخريف . وليس فى السماء قمر . ومن مونت بارناس التى يلوح شبحها من بعيد ينزل ريح قارس جاف . وبين الفينة والفينة يسمع حفيف أوراق الشجر الميتة التى يذروها الريح فى الشوارع المحطة بالميدان ، ملتصقة بالأرض ، كما تلتصق ممسحة بأسفلت سجن من السجون .

يجلس الغريب على أريكة الكشك ، ولكن الريح تندفع من الزجاج المكسور فى كل الأنحاء ، فينهض الرجل ، ويخرج . يسعى جاهداً ليتبين على الطريق الأجرد الذى اصطفت أشجار الزيتون على جانبيه مصابيح الأتوبوس الذى ينتظره . ولكن لا شىء يبين . ومع ذلك فثمة لهاث محرك سيارة يتعالى قادماً من بعيد ، وصرير تروس تصعد منحدراً ، كما لو كان سائقها يبدل قضيب السرعة ليصعد المنحدر ، ثم ظهر الأتوبوس قادماً من حيث لا أحد يدرى ، وقد أطفأ مصابيحه . وقف أمام الكشك ، وهمد المحرك . جذب السائق الذراع الذى يفتح الأبواب ، ونزل . ليس احد بصحبته . ويقترب من الشخص المجهول .

قال كما لو كانت متأكداً من أنه سيجده هناك :

– كنت تنتظرنى ، اليس كذلك ؟ لدينا بعض الوقت الذى يسمح لنا بأن نلف سيجارة . ليس ثمة ما يدعونا للعجلة .

– واين المحصل ؟

– انزلته بعيداً عن هنا ، فى ماروسى . إنه يسكن هناك ، وذلك بدلاً من ان نجرجره معنا ، ثم يضطر بعد ذلك الى البحث عن وسيلة تعود به . فضلاً عن اننا لسنا بحاجة اليه . سوف ترى ، سنذهب سالكين الطريق الصحيح .

قال له الرجل المجهول ، وهو يشعل ولاعة سجائر كان يحملها منذ سنوات

الحرب ، رغم انه لا يدخن :

- دون مصابيح انارة ؟

- عملية هى هذه الولاعة . اشكرك . نتحسر على حياتنا الصغيرة ، اليس كذلك؟

وعلى ضوء المصباح الناعس ، امكن للمجهول ان يميز قسمات السائق . ذكره بفرنسيس ساقى محل « شاردان بلو » عند مفرق شارع جوبلين بباريس حيث تلقى تعليمه . ففى كل مرة كان يطلب كأساً من الكونياك كى يغير من طعم القهوة السوداء المؤبدة ، فى فمه ، كان فرنسيس يداعبه قائلاً « شطحة جديدة ، يا سيد عمانوئيل ! » (كان ذلك إسمى ، تصور ، وفى اليونانية الحديثة نقول مانوليس ، أومن باب التصغير مانوس ، ولكن فرنسيس كان يفضل الأسم كما جاء فى الانجيل : عمانوئيل)

رد عليه الرجل المجهول قائلاً :

- حياتى الصغيرة ؟ على الأطلاق ، فقد أضحت مرة وخاوية « مثل عبء غريب » على حد قول أحدهم ...

قاطعه السائق قائلاً :

- من أجل هذا جئت .

- مالذى جئت تفعله ؟

- الست مانوس ... كالويانيس ، من مواليد ١١ ؟

- أنا هو ، ولكن كيف لا أعرفك أنا ؟

- معاً ولدنا ، فى المدرسة كنا معاً ، وفى باريس ، وفى الحرب ، معاً . الم تعرفنى بعد ؟

قال الغريب لنفسه « انه يسخر منى . لو كان انجز الدراسات ذاتها التى انجزتها انا ، فكيف أنه لا يعدو ان يكون سائقاً ؟ » انها المزحة الابدية . ثم ان هذه الألفة التى يتظاهر بها أخذت تبدو له مفتعلة .

– انها المرة الأولى التى أراك فيها . الا تعتقد انه حان وقت الرحيل ؟

رفع السائق معصمه الى ضوء المصباح :

– الساعة الواحدة ، بل لم تبلغ الواحدة بعد ، ولكنك تطلب بنفسك ان ترحل . لا تقل لى ذلك انني تسرعت معك .

صعدا السيارة معاً أشار له السائق الى مكان عن يمينه ، تحت لافته كتب عليها « ممنوع التحدث الى السائق » . تأهب للسير . أضاء الكشافات ، وشغل المحرك . ثم انطلق بالسيارة فى دوى رهيب من ارتجاج الحديد والزجاج . وفى الخلف غلفت المصباح غمامة من التراب .

وقال الغريب :

– كم ثمن التذكرة بعد منتصف الليل . انى ذاهب الى نهاية الخط .

– لا تعر ذلك اهتماماً . اعطنى فلساً ، ويفضل ان يكون من النحاس .

دس الغريب يده فى جيبه . كيف يجد فلساً نحاسياً ، وقد سحبت هذه العملة منذ ثلاثين عاماً ؟ رفع رأسه فجأة . احس بوجهه وقد غاضت الدماء منه .

– قل لى ، قد تكون ...

ولم يكمل ما بدأه .

قال السائق :

– هيه ! اليس هذا ما احاول ان افهمك كل هذا الوقت ؟

ملأ الآخر فمه بالهواء فأنتفخ شدقاه . مثل طبلتين ثم افرغ الهواء فى رئتيه ، ولزم الصمت .

سأله السائق :

– فيما تفكر ؟

– أقول ، ياللخسارة الا اكون قد عرفت ذلك . كان الأمر بهذه السهولة ، وتركت القلق ينهشنى ويؤرقنى منذ أمد طويل ...

سمعت قرقعة من جديد فتوقف عن الحديث . سمعت الغراب هذه القرقعة ايضاً ، فأشرأب عنقها ولكن لم يكن ثمة شىء ولا شىء . انتهز بومبرتسبرج الفرصة كى ينظر الى ساعته . اما الاثنان الآخران فكانا ينتظران تكملة الحديث .

وبحركة بارعة من السائق الممسك بعجلة القيادة استطاع ان يتفادى غزالاً ظل مسمراً وسط الطريق ، وقد أعمته انوار الكشافات .

سأل السائق :

– فيما تفكر الآن ؟

– هل انت متأكد ان الأمر يتعلق بشخصى انا ؟ الا تقع اخطاء فى حكاية مثل هذه ؟

بفطنة يضحك الآخر ، ثم يقول :

– كل الناس تسأل هذا السؤال . ولكن فكر جيداً ، الخطأ لا يعنى شيئاً .

– وما ادرانى انا ؟ تشابه فى الاسماء ، او لبس فى المواعيد .. ربما .. شىء من هذا القبيل ، لو لم تقع عند منتصف الليل وعشر دقائق بين يدى تلك الورقة ، وانا العب الورق ، لكنت انصرفت . ولأخذت الاوتوبوس الآخر .

وقال السائق وهو يرمقه بنظرة محنكة :

– بالله ، ما الذى تسعى وراءه بذلك ؟ انظر . أنظر . أنظر امامك هذا السهران الغافل عن نفسه . سوف تضحك .

رجل قصير ، بمعطف سميك ينزل الى كعبيه ، كان يفتح ذراعيه ويقفز قفزات راقصة ، ضغط السائق على النفير ، لكن الرجل أصر على عدم التنحى جانباً من الاتوبوس . مرق ملامساً له ، وبعد مسافة ليست بالقليلة توقف . وبعد هنيهة سمعاه يدق باب السيارة بقبضتيه ويطلق الشتائم . انزل السائق المزلاج فصعد الرجل القصير من الباب الخلفى ، واندفع فى الممشى حانقاً :

– هل انت مخمور ، يا رجل ؟ كل هذا الوقت أومىء لك بالوقوف ، وانت فى عجلة من أمرك ، تراك تهرع لتنام مع عشيقتك ؟

ضغط السائق على زر ، فاضاءت مصابيح السيارة كلها . استدار ببطء ونظر الى الرجل . فتح هذا الأخير فمه ، ورفع يديه عالياً ، وندت منه صرخة ! ثم ادار ظهره ، وجرى نحو الباب الذى كان لازال لحسن الحظ مفتوحاً .

ودون ان ينظر خلفه ، انتهره قائلاً :

– انصرف . انصرف ، أيها المتشرد فى اعماق الليالى ...

وامسك الاثنان اللذان فى الاتوبوس ، بجنبيهما من فرط الضحك .

– حسناً ... اليس من الممكن ... ان امنح تأجيلاً قصيراً . فلا أريد ان اترك خلفى موضوعات معلقة .

ضحك السائق ، كما ضحك من قبل ، وقال :

– وهذه حيلة تقليدية بدورها . لا تهتم . سوف تسوى الأمور على أحسن ما يرام بغيرك . بل ربما على نحو أفضل أيضاً .

كنت اتحدث ، وبصرى معلقاً بالقضبان على بئر السلم . وعندئذ من عند مستوى الأرض الخشبية ، طلعت ايمى ، مكشوفة الرأس . تصعد الدرجات . حاجباها ، عيناها العسليتان ، والشفتان ثم تجلت قامتها كاملة . انتصبت واقفة ، وأومأت لى بذقنها أن أواصل حديثى ، وابتسمت . كانت الدماء تنبض فى فودى ، مثل دقات دف فى عيد كبير .

قال الغريب :

– على الأقل ، لو كنت تبطىء فى مسيرتك ، حتى استطيع ان استعيد من جديد ذكرياتى عن بعض اللحظات السعيدة .

– هذا طلب مجاب . احك بصوت عال ، من باب التسلية ، وبدلاً من ان افتح المذياع ايضاً ، قل لى ما هو اكثر ما كرهته ؟

قال الغريب :

– الرؤوس المقطعة

هتف مستمعىّ :

– ماذا ؟

– المتشدقين بالكلام .. والمرائين مدعى الورع . انهم يجعلون الشر جذاباً والفضيلة غير محتملة .

وقالت له نانسى :

– دعك منهم الآن . وقل لنا ماذا حكى الرجل الغريب المجهول .

لمحت ايمى تقطب جبينها ارتياباً . وادارت رأسها كما لو كانت تحدث شخصاً يختبىء وراءها . ثم ابتسمت لى ابتسامة ماكرة ، وكأنها تقول « احسنت ، يا استاذ . هل حققت انتصاراً جديداً ؟ ضاع خيط الحلم منى .

رحت ابحث فى حياتى السابقة عن لحظة سعادة كى احكيها . لم اجد سوى تلك التى كنت على أهبة ان أعيشها .

سمع فى هذه اللحظة صوت نفير سيارة يدوى امام البيت . لا بد انها سيارة جنرال على أدنى تقدير ، إذ أن آلات التنبيه كانت محظورة فى أورشليم . أجفل بومبرتسبرج . ظهرت ايمى بكامل هيئتها . كانت تصعد درجات السلم مسرعة وتردد كلمة « أجل ، أجل » وكانت روزا البولندية فى اعقابها . نحن الرجال نهضنا لها . ارتسمت على وجه الغراب مسحة باردة كالثلج . لم اكن اعرف ما إذا كانت غاضبة لأفساد حفل الشاى ، أم لأن روزا قد تخطت حدود الطابق الأول المسموح لها وحده بالتواجد فيه . وفجأة وجدنا انفسنا نتكلم جميعاً ، وبكل اللغات . ولم أميز مما سمعت الا ما يلى : يسافر بومبرتسبرج تواً الى القاهرة . وسوف تقله السيارة الى مطار اللد . سوف ترافقه ايمى ، ولكنها ستعود فى الليلة ذاتها . دوى نداء النفير من جديد على نحو آمر . جرت ايمى الى غرفتها ، ومن النافذة صاحت تقول شيئاً . اخرج زوجها . حقيبته ووضعها فى الردهة . عادت أيمى ومعها لفافة من الثياب ، ولا شك أنها ثياب للغسيل اخذتها روزا من بين يديها . كما همت بحمل الحقيبة ايضاً . اراد بومبرتسبرج منعها من ذلك . ولكن ايمى أومأت له ان يتركها تفعل ، وتركها . وسرت ابتسامة احتقار الى شفتى الغراب وافسحت روزا التى مضت نازلة فى المقدمة الطريق عند العتبة امام شخص . وكان الضابط الامريكى الذى قال وهو يضع يديه فى جيبه :

– هيه !

جلس فيليبوت ولكنه عاد للنهوض عندما حياه بومبرتسبرج مودعاً . لم يتول أحد القيام بتقديم الامريكى . وضعت ايمى يدها على كتفه ، ويدها الأخرى على كتف زوجها . وقالت بالمانية :

– انزلا . سألحق بكما حالاً . لا تضع يا بينى هذه النظرة الكدرة على وجهك

ان لدينا متسعاً من الوقت .

انصرفا . فعادت الى غرفتها . وغابت بداخلها . وفى الردهة حيث بقينا لم ينبس أحد بكلمة . ثم فى النهاية ، جاءت وودعتنا على عجل . والى قالت :

– معذرة يا سيد كالويانوس ، لأننا قطعنا حديثك . هل تفضلت بمواصلته الليلة ، حتى أسمع النهاية ؟

فتحت الغراب فمها ، وقالت بصوت يقطر سماً :

– الليلة ، على كل الأحوال ، سأذهب الى السينما . الفيلم يتغير كل أربعاء .

قالت ايمى ، بقدر من عدم الاكتراث :

– أه ، اذن يا سيد كالويانيس ، فلنقل الليلة ، فى العاشرة ، على الاريكة الصغيرة فى الحديقة ؟

انحنيت لها انحناءة شديدة وبعد انصرافها ، نهضت الغراب وتوجهت بتؤدة الى باب غرفة الزوجين بومبرتسبرج . فتحته ، وإخذت الاوكورديون ثم عادت الى غرفة فيليبوت ووضعت الآلة على المنضدة ثم عادت تغلق الباب . كنت انظر حولى مندهشاً . لم يكن نانسى ورونالد يريانا ولا يسمعانا ، فقد أطبقت عليهما شباك عاطفية يائسة .

شمس الظهيرة تلهب الحوائط السميكة . فجأة ودون سابق إنذار لم تعد هناك نسمة هواء . كل شئ توقف فى هذا السكون الأشبه بالكابوس : الأشجار ، دخان المغسلة ، ثعلب الهواء فوق غرفة مانوس العلوية . وارب المستأجرون ضلف النوافذ ، خلعوا ثيابهم وناموا .

دبيب خطوات على عروق السقف ، وأحياناً أخرى على درجات السلم الخشبية فيصدر من الخشب القديم صرير . رياح الخماسين تندس فى كل فتحة تجدها أمامها وتتسلل الى الدواليب ، وأسفل الأغطية الملتهبة ، وداخل تجاويف الأنوف التى جفت ، وتلتصق بالابدان التى تطلب من النوم أن يأتى ويلفها فى قطيفته السوداء .

أصاب الجنون الجنادب المختبئة بين أشجار الصنوبر الثابتة . وعندما يتوقف أحداهما عن الصرير يبدأ الآخر . رائحة الرتسينة والكافور تذكرنا بغابات ونسمات من قارات أخرى . عند الدكة ، أسفل شجرة التين يعذب أولاد روزا حرباء وجدوها هناك بأستخدام مشبكى غسيل .

ينحنون فوق المخلوق المسكين وهم يضغطون على شفاههم . يرتدون سروايلهم الداخلية فقط ، كأنهم آلهة حب صغيرة ولدهم النور فجأة ليمتع نفسه بأجسادهم الرقيقة . عندما إبتعدوا عن صنبور المغسلة ، رأت ايمى نقاط الماعتسيل وتلمع على أجسام الاطفال ، التى ما لبثت أن جفت قبل أن يجلسوا على الدكة ، ونهدا الفتاة اللذان لم ينضجا بعد ، واللذان يشبهان ثمرتى النارينج ، يلامسان رأس الحرباء بطيئة الحركة .

ابتعدت إيمـي عن النافذة ، لتجنب عينيها الضوء المنعكس على الحصى . صوت سيارة قادمة من أول الطريق . ضجيج المحرك ولهيب الأغطية لا يحتمل . نهضت .

أغلقت الأبواب ، صرير الجنادب يعود من جديد ، من بعيد ، من خلف خط السكك الحديدية ، وماكينة الثلج التى يشبه صوتها إيقاع الخطوات المنضبطة فى ذلك اليوم الإفريقى الذى لا يريد أن ينمحى ، «المديوزا» فى حيرة من أمرها . هناك فكرة تؤرق ذهنها . هل تقدم على التنفيذ ؟ هل تنهض ؟ كلا ، سوف ترجىء ذلك كى تفكر فى الامر بشكل أفضل ، ولا ستجلائه تستدعى هايلدرلين . صوته يشبه ايقاعات ليلة شرقية ، ونبراته تذكر بالسيوف أو البرق الذى يضرب الحدائق أثناء المطر . لا شىء هناك .

هسيس جاف يذكرها بعناوين قصص رومانسية : شيطان الظهيرة .. سيدة فى الثلاثين .. نساء الغواية . أهو هانز الذى يشخص الحالة من جديد ؟ قال ذات مرة ، أورشليم تورث الجنون أو القتل ، ولكن لماذا هذا ؟ الماء ؟ التربة ؟ أم تجار البحر الميت ؟

إقتربت من النافذة بقفزة واحدة . فتحت الضلفة الخشبية ونادت على ابن روزا ليصعد . عادت تغلق النافذة ، وإنتظرت .

الغرفة شبه المظلمة تزيد من ضربات قلبها وتكاد تصيبها بالصمم ، ولكن فراو أناه أوقفت الولد عند العتبة . فأوصدت إيمى الباب فوراً . يتحرك مقبض الباب دون جدوى . طرق على الباب .

– فراو إيمى فيما تريدين الغلام ؟

فهمت ؟ تتلعثم إيمى وقد إحمر وجهها .

– أريده أن يحضر لى زجاجة مثلجة من المياه الغازية ، ولكننى سوف انزل حالاً .

صاحت ايمى : لم اعد بحاجة إليها أرجوك يا فراو أناه .

ولم تفتح الباب . ألقت بنفسها على الفراش . فوق الرمال الملتهبة كانت ثمة نسمة منعشة هاهى تضمحل وتختفى مثل بحر يلملم مياهه ويمضى بها بعيداً إلى المحيط .

ربما كانت الساعة الثانية صباحاً عندما شق سكون الليل صراخ امرأة تعانى المخاض . وامتلأت أرجاء البيت بأصوات غاضبة . وفى الحال انفتحت ثلاثة أبواب فى نزل فلدمان ، وصاح صوت يسأل :

– ماذا حدث ، ماذا حدث ؟

كانت إيمى اول من هرول إلى السلم ، ومن خلفها سمعت رابسكو تقول بصوت مكتوم ، وهى تكز على أسنانها ، وكأنها فقدت وعيها من النشوة . «إيمى ... إيمى» ، بينما قاطعها مانوس قائلاً : إخجلى ، فليس هذا بالوقت المناسب ! وتقف أناه أمام غرفة السفارديم ، وقد إرتسم على وجهها تعبير من جرحت كرامته . أما أندريانو ، التى وصلت للتو من الخارج ، فتقضم أظافرها المطلية . وراح أولاد روزا يتقاتلون للنظر من ثقب الباب . وصلت أمهم ، حافية القدمين ، ترتدى سروالاً أزرق ، شعرها غير ممشط ، وينضح جسدها عرقاً . ومن على ذراعيها يسيل ماء بصابون .

– لماذا لا تفتحون ؟

لم تنتظر الإجابة دفعت الباب . اليهودية ملقاة على الأرض ، جاحظة العينين بلا حراك ، والى جوارها زوجها راكعاً ، يناديها :

– راشيل ، راشيل !

سألته روزا ، ولماذا لا نضعها على السرير ؟

كررت ذلك بالألمانية وهى تلمس كتفه . فأجاب :

– نزلت الى الأرض بمفردها ، فهى تفضل شيئاً صلباً تحتها ، حتى تبقى رأسها فى وضع أفقى ارتسمت علامات الاستياء على وجه المرأة الجميل ، ومضت تشكو :

– رأسى .

ثم صرخت « اماه ، آخ ! »

علقت فيلدمان شارحة ما تقول :

– انها تعانى من وجع فى رأسها ، وتطلب أمها .

ثم نظرت من حولها بعيون مفتوحة وقالت واثقة مما تقول «التهاب سحائى»

وقال الرجل كما لو كان يريد ان يمنع احداً من الانصراف :

– أريد فحسب ان تخبرونى أين أجد ، تليفوناً .

تأبطت مدام اندريانو ذراعه ، وخرجا معاً يجريان . اما رابيسكو فلم تكن هناك ، اذ لزمت غرفتها بالدور العلوى .

جالت روزا بأنظارها فى الغرفة : سرير ، ولا أثاث غيره . ولا حتى يوجد مقعد للجلوس الثياب معلقة على مسامير بالحائط . حقيبة سفر ملقاة على الأرض ، وعند حافة النافذة المغلقة وابور سبرتو ، واناء لاعداد القهوة

وبعض الأقداح ، وكتب وجرائد .. الغرفة ملتهبة كالفرن .

رفعت روزا الحشية من على الالواح الخشبية . وقالت :

- إفسحوا لى مكان .

انحنت . أخذت الحشية بين ذراعيها والقت بها فى الردهة ، وسحبت الغطاء وبسطته على الواح السرير الخشبية . ثم ركعت . وضعت ذراعيها أسفل المريضة ، فصرخت ، ولكن روزا حملتها بحنان ووضعتها على السرير .

ثم أخرجت الجميع من الغرفة وابقت معها إيمى فحسب . وأغلقت الباب .

قالت يجب أن نغير لها ثيابها . إذا حضر الطبيب ووجدها بهذا الشكل سوف يستاء .

سألت إيمى بصوت خافت :

- ولكن أهى واعية بنفسها ؟

قالت روزا سوف أضئ الكهرباء ، فأنى لا أرى شيئاً فى هذه العتمة .

صاحت المريضة رأسى ، رأسى ، رأسى !

فتح الباب فجأة فظهرت فراو أناة .

قالت : ماذا تفعلون لها ؟ إريد أن أرى .

أجابت روزا . نغير لها ثيابها الملوثة بالبول .

أردفت تقول : نغير لها ثيابها ، ألا تصدقين ؟ شمى ! ووضعت السروال

المبلل أسفل أنفها

قالت فراو أناة متراجعة :

– يا خنزير الجيتو !

ردت عليها روزا قائلة ، وهى تغلق الباب فى وجهها :

– يا حثالة القيصر !

همست إيمى قائلة :

– لم تحسنى التصرف يافراو روزا .

– دعك من هذه المرأة المتقيحة . على الدوام تعتقد اننا نمثل على المسرح . إنظرى الآن إلى جمال هذه الصبية !

أسفل ضوء المصباح المترب ترقد راشيل ، بلا حراك تاركة المرآتين تبديان الاعجاب بتناسق جسدها الخمرى المشوق . خالج إيمى الاحساس ذاته عندما شاهدت حصاناً عربياً لأول مرة. كم من سنوات انتقاء صارم . الانتقاء الاصيل إحتاجتها الطبيعة حتى تصل إلى ابداع مثل هذه التحفة ؟ لم تكن قد رأت فى حياتها عانة مثل هذه تستدير بجمال رقيق وحزين . والفخذان يلتفان منحدرين الى ركبتين منمنمتين ، والكعبان ... شعرت إيمى بغصة فى قلبها . تحسست بكفها الردفين فى بطء ثم قالت لنفسها «اما انا فكأنى محفورة فى صابونة فواحة .»

ندت من المريضة صيحة ألم «رأسى» ومدت ذراعيها منادية «اسحاق ! » مدت إيمى يدها اليها فأمسكت بها راشيل ، فتحت عينيها ببطء وابتسمت لايمى .

– حبيبى إسحق .

أنزلت لها روزا فستانها ، ذهبت إلى حقيبة السفر ثم أحضرت ممسحة لمسح الأرضية . شعرت إيمى بالخوف يتملكها عندما أنفردت بها ، فعندما نظرت الى تلك اليمنية التى تهذى تذكرت إنها توجد فى مكان غريب عنها ، دون زوج أو أقارب . ماذا حدث لمانوس ، لماذا لم يأت بعد ؟ آه ، طبعاً ...

إستدارت دون أن تترك ذراع المريضة ، وفتحت الباب على مصراعيه .

لا أثر لمانوس . أولاد روزا يقفون صامتين وبجوارهم رجل يرتدى سروالاً كاكى اللون وحذاء عسكرياً بينما يتدلى من ذراعه منشفة طويلة ذات لون وردى . لم يحلق لحيته بعد وعلى فمه أرتسم تعبير من المرارة غير مفهومة . أستائت إيمى اذ ترى أمامها عسكرياً من «كرواتيا» ، الصغيرة .

– اذا مضت تصرخ هكذا فهذا يعنى إننا سوف ننعم بليلة جميلة !

أدارت إيمى ظهرها بإستياء ولم ترد عليه .

« كلا ، كلا ، حاولى ان تفهمينى» ، ثم خطا الى داخل الغرفة خطوة .

« غدا سوف نطوى خيام المعسكر ، ونتوجه الى الجبهة رأساً »

كانت تفوح منه رائحة الذكورة ، وعطر رخيص . دخلت روزا .

– أذهب ، اذهب ، لدينا بعض الأعمال . الا ترى ؟

رفع الكرواتى أكتافه وقد أسقط فى يده ، ومضى خارجاً يضرب بحذائه العسكرى بلاط الردهة . صرخت راشيل من جديد . وعندما سكتت المريضة قالت لها روزا « احترسى من هذا الجدى . هل قال لك شيئاً ؟ »

أجابت بحصافة « لا شئ نحن فى صف الأمريكان ، أليس كذلك ؟ »

سألت روزا بفم مفتوح « ماذا ؟ أوف ! إذا كان عليك أن تعطى نفسك لشخص فاننى أفضل ، كما تعرفين ان يكون .. »

وأومأت بذقنها ناحية الردهة .

– ليس هكذا ! أيعجبك الى هذا الحد ؟

حدجت روزا بنظراتها ، غير راضية بهذه الإيماءات التى لجأت اليها . وعندئذ وصلت أندريانو ، تنضح عرقاً من فرط الجرى ، وبرفقتها أسحاق . ومن ثم توقف الحديث بين المرأتين عند هذا الحد .

وأوضح لهما الزوج قائلاً «كما قلت لكم ، ليس فى الأمر شئ . سوف يرسل الطبيب مساعده الى هنا بعد قليل لأعطائها منوماً »

قالت المريضة بتأثر « حبيبى »

واجابها زوجها اليمنى « ياروحى ! »وهو يأخذ بيدها من يد إيمى .

وماذا يمكن ان يقال ؟ اليست الكلمات واحدة عندما يتحاب أثنان ويتعذبان؟

وقالت روزا : هذا المكان يشبه الفرن .

ثم أطفأت الكهرباء ، وأردفت تقول :

– إتركوا الباب مفتوحاً . سوف نجلس بالممر .

وجدوا مانوس بالخارج . طوى المرتبة وجلس عليها مسندا ظهره الى

الحائط يحدق فى الحذاء أمامه معقود الحاجبين . ذهبت روزا والرومانية لإحضار كراسى . إقتربت إيمى منه . يقف بينهما أطفال روزا شبه عراة ، يحملقون فيهما . قالت له بالفرنسية :

– إنك مستاء منى ، لأننى لم أحضر بالأمس فى الميعاد ؟

سأل بالفرنسية :

– أى ميعاد ؟

ردد الصبى قول مانوس لشقيقته « أى ميعاد ؟ »

– قلت لك العاشرة مساء عند دكة الحديقة .

علقت انظار الفتاة بشفتى مانوس .

– حقاً ؟ لم أسمع ذلك .

ردد الأولاد قائلين « حقاً ؟ حقاً »

لم يكن بالطابق كله سوى ثلاثة كراسى . أعطى لاسحاق واحد ، وأعطى الثانى لاندريانو والثالث لأيمى . اما روزا فألقت بنفسها جالسة على الحشية بجوار مانوس مطلقة من حلقها آنة ألم . كانت الشعيرات الدموية البارزة على ساقيها زرقاء بنفسجية شيئاً مثيراً للآشمئزاز والرثاء ، الا انها مضت تسخر من مصابها . حاول الاولاد ان يجدوا لأنفسهم مكاناً الى جوارها على الحشية الا انها دفعتهم بعيداً وقالت لهم شيئاً بالعبرية ، فأنصرفوا متفرقين فى أنحاء البيت . وقال الصبى الصغير بالفرنسية «أى ميعاد ؟ »

قالت اندريانو وكأنها تفشى لهم سرا :

- أنه أستاذ كبير ، أسمه مدرج فى الموسوعات . ذهب بها اليه ، لم أفهم ما إذا كان ذلك بسبب مرض نسائى أم لأنهما كانا يريدان الانجاب . أشارت له عرضاً الى الصداع الذى يصيبها فقال لها الأستاذ إننا الآن نستطيع شفاء الصداع بتدخل بسيط . هل هذا التدخل صعب ، وتحتاج للإقامة فى المستشفى ؟ أى مستشفى ؟ إن الأمر لن يتعدى إعطائها حقنة ، ثم تستلقى مدة عشر دقائق ، تستريح فى العيادة ثم تنهض وتذهب الى بيتها على قدميها .

تنهدت إيمى ، وتمتمت تقول وقد وضعت يدها على شفتيها :

- لقد ضاعت الصبية .

وقالت روزا :

- ماذا تقولين ؟ لا تتحدثى عن المصائب .

سألت إيمى :

- اعطاها حقنة نوفوكايين فى عنقها ، اليس كذلك ؟

فتحت الرومانية عينيها وخفضت رأسها وشحب وجهها . صرخت المريضة كأنها ترد على إيمى . وفى هذه اللحظة ظهر اندريانو عند نهاية الردهة ممسكاً بعامود الطعام ، ومضى ينظر اليهم . إنتفضت زوجته وللمت إيمى ثوبها المنزلى قليلاً وابتسمت له تشجعه على الاقتراب . شرحواله ما يحدث فقال « انه لأمر محزن جداً » ، ولكن وجهه الذى يتصبب عرقاً كان مازال يحتفظ بهدوء عجيب . سأل عن شئ باللغة الرومانية فنظرت أندريانو إلى الثوب والحذاء وأشارت بيدها إلى غرفة المريضة وذكرت التليفون . فأعطاها اناء الطعام وانصرفا آخذين كراسيهما معهما . ولكن اندريانو

عادت فى الحال تحمل مروحتين من الورق ، واعطتها لهما . بدت حائرة من أمرها وعادت تتصرف بينما إرتسم على وجهها تعبير وكأنها تقول لروزا « لا أعلم ماذا حدث له اليوم »

وقالت إيمى :

– إذا لم يكن الماء بهذه السخونة لكنت دخلت تحت الدش .

وفتحت ثوبها المنزلى قليلاً .

ضغط مانوس بذراعيه على ركبتيه .

سألتها روزا :

– اكان صدقاً ما قلته عن الحقنة ؟

خفضت إيمى رأسها حتى لا يسمعها إسحق ، وحتى يكون هذا الانحناء ذريعة كى يلمس شعرها المنسدل ذلك الرجل الجالس عند قدميها . وقالت :

– هذا الطبيب عالم كبير بحق ، ولكن فيما يتعلق بأمراض النساء فحسب ، وقد فعل المعجزات فى برلين . عندما بدأ إضهاد اليهود استقر فى فيينا حيث لقى كثيراً من التكريم ومنح كرسياً بالجامعة ، وأشياء أخرى . وترددت بعض الأقاويل آنذاك عن اجرائه لتجارب عن الصداع وان هذه التجارب تعتبر خطرة جداً . فهو يخدر المخيخ بحقنة النوفوكايين المعطاة خلف فقرة من العامود الفقرى تسمى أطلس ولكن فى تسع حالات من كل عشر حالات كانت ابرة الحقنة تثقب وعاء دموياً ، ويحدث نزيف فى المخ . وكان لذلك يختار من يجرى عليهم تجاربه من النساء الفقيرات والغجريات التى يأتين الى عيادته لاستشارته فى امراض نسائية ، الى ان

حدثت فضيحة عام ١٩٣٨ حيث كانت الضحية احدى قريبات باوير البعيدات . وكان على وشك ان يقدم الى المحاكمة الا ان دخول هتلر الى فيينا حمله على الهرب فأفلت من العقاب ، وجاء ليستقر هنا .

قالت روزا ، وهى تضرب بكفها على ركبتها العارية :

– تخيلى ، الاعرابيات هنا يعتبرونه من نوى الكرامات ، ولأجله يقبلن الدخول إلى المستشفى اليهودى وهو ما لم يكن يحدث من قبل .

مدت يدها فجأة مشيرة بالتزام الصمت فإسحق قادم .

قال وهو ينظر إلى بابها المغلق :

– اين فراو أندريانو ؟ الأستاذ يسأل عما إذا كان قد حدث لزوجتى إرتفاع فى الحرارة فقلنا له لا ولكن الآن اعتقد ان الحرارة ارتفعت ... هلموا لتروا .

كانت روزا أول من وصل الى المريضة ، وقفت بالفعل الى جوار المريضة ، وانحنت تلمس جبينها بشفتيها .

قالت له :

– أنها رطيبة ، ولا حرارة عالية هناك . دعك اذن من الأوهام .

قالت إيمى دون ان تقترب :

– لن نخسر شيئاً اذا وضعنا على جبينها قربة ثلج .

قال إسحق بإمتنان :

– هذا بالضبط ما قاله الاستاذ .

صاحت روزا :

- سنجد القربة عند مس باميل . أقرضتها لى عندما كانت صغيرتى تعانى من التيفود .

- اسحاق ، رأسى

قال مانوس الذى كان يرافقهم :

- سوف اذهب حالاً لأحضارها .

ولكن إسحق امسك بيده ، وقال له بالانجليزية :

- لا تذهب انت . فالوقت لازال نهاراً . لا تعرض نفسك للأخطار من أجلنا ، يا رفيق ...

تبادلا النظرات . يدرك الجميع ماذا يعنى ذلك . أخفضت المرأتان أنظارهما دون تعليق . قال مانوس :

- أجزم لك انك مخطىء . اتركنى أذهب . كنت على أى حال استعد للرحيل .

صاحت روزا :

- استطيع ان ارسل الصغيرة ! كيف تستطيعون الجرى فى هذا الحر . اما هى فستذهب وتعود خفيفة مثل عصفور

وقال مانوس :

- كما تشاءون .

ثم ذهب وجلس على الحشية من جديد . وجاءت إيمى الى جواره .

– أحاول جاهدة منذ الصباح العثور عليك بمفردك .

أدار مانوس وجهه الى الجهة الأخرى .

– اتركينى فى تعاستى يا فراو بمبرتسبرج ، ليس هذا بالوقت المناسب .

– اريد ان أوضح لك لماذا تخلفت عن الميعاد .

– لست ملزمة بتقديم أية تفسير ، فأنا أعلم .

– تعلم !

– إنها رابسكو .

– يالها من العبان هذه المرأة ! تقوم بدور العميل لبيتان . تصطاد الفرنسيين الذين يقتربون منها ، وتسلمهم الى المخابرات .

ألقى مانوس بنظرة حوله يملؤها الإستياء والاحباط وقال :

– يا لبرج بابل هذا . ويالها من فوضى . الجميع يتجسسون . الجميع يخونون . إنظرى إلى العالم الذى يحارب من أجل الخلاص من الطوفان ! أواه ، اريد ان اضرب الحائط برأسى لتتهشم.

– ماذا حدث لك ، لا أفهمك فقد كنت من أولئك الذين يمسكون بمقاليد الاقدار .

– ما أجمل كلام المرء الذى لا يعلم ! منذ أن وصلت إلى منزل كولر البائس إنقطعت عن العالم .. الجيش هو الحقيقة . الجيش والحرب ، ولنرى

ماذا سوف يحدث . ولكنك جعلتنى انسى ذلك فكل ذهنى اضحى مركزاً فيك كالمنوم ، ماذا أقول ، إننى كالصوفى .

هل انت مثل الصوفى الذى لا تكتمل نشوته فى روح بل فى جسد ذى جدائل شعر ، وردفين ، ونبرة صوت ؟

– أجل ، أجل .

– ولكن هذا يا حبيبتى هو العشق الحقيقى .

– إسكتى يا إيمى فأنت لا تعرفين ماذا تقولين !

ظهرت روزا التى كانت إختفت فى غرفة المريضة لتتركهما على انفراد – ظهرت من جديد ، وقالت :

– سمعت صوت سيارة . ربما يكون الطبيب . من الأفضل ان ألقى بشئ ما على جسدى .

قالت إيمى بدورها :

– يجب أن أرتدى أنا الأخرى شيئاً مناسباً . لن أفقدك فسوف تنتظرنى هنا . أليس كذلك ؟

أجاب مانوس كى يستسلم لقدره :

– سوف أنتظر .

مساعد الأستاذ رجل أعجف ، نحيف الوجه . مبتسم ومؤدب لكنه متحفظ . أعطى حقنة للمريضة فى الحال .

قال الطبيب لاسحاق موضحاً :

– انها تتألم . ربما مست الابرة عصباً . سيكون كل شئ على ما يرام غداً .

نزلت إيمى الدرجات ، وقد ألقت على جسدها على عجل بلوزة صفراء ذات مربعات شهباء ومفتوحة الصدر كثيراً . فيبدو ذراعاها عاريين وكذلك كتفاها وظهرها كله . تعقص شعرها النحاسى الكستنائى بشريط أسود . بدت جذابة جداً ، ولكنها عندما أقتربت اخفضت نظراتها واحمر وجهها كتلميذة صغيرة . صافحت الطبيب الذى أطلق من خلال أسنانه المتباعدة المصفرة خليطاً من رائحتى الثوم والنعناع .

تحدثا عن الطقس والحر الشديد . قال الطبيب « ستنعم المريضة بيوم هادئ إذا توفرت لها قربة ثلج . عموماً لا أهمية لأرتفاع الحرارة ، فالزيادة لا تتعدى بضعة أعشار الدرجة » فى هذه الآونة كانت راشيل تغوص فى بحر من الهذيان مرددة بين حين وأخر كلمات مثل « بول ... سس باس .. بول ! »

إصطدم الطبيب ، عند رحيله بسيدة إنجليزية ، برونزية البشرة ملتهبة من الشمس ، وجهها مستدير ، ذات عينين فاحصتين وخصلات من الشعر ملفوفة كالتاج حول جبينها وينم مظهرها وسلوكها عن نشاط وتفاؤل إرادى .

قال الطبيب متجهماً :

– آه مس باميلا ، أخبرونى إنك ستحضرين القربة . انى منصرف لأننى على عجلة من أمرى . أكرر لك ما ذكرته لزوجها : ثلج ، ظلام ، هدوء ، فهى تحتاج الى أن تنام حتى الصباح ، إذا أمكن .

رافقته روزا حتى الخارج وعندما عادت أخذت القربة والثلج من باميلا المسكة بباقة من زهور اللؤلؤ البرية بيضاء وبنفسجية . كما تمسك أيضاً نشرة باللغة الإنجليزية بعنوان « العلم والصحة »

قالت وهى تشير الى النشرة فى يدها :

– ربما تعتبرونها فكاهية .

على ان نظراتها ما كانت تسمح لأحد بأن يعتبرها كذلك . ثم اردفت تقول :

– يدخل المرء على مريض ، وفى الحال يعطيه كتيباً دعائياً . يجعل هذا الأمر يبدو كما لو كان عملاً من أعمال الارساليات . ولكن ما الضرر من ذلك ؟ انها قصاصة من ورق ، لا تشغل حيزاً . ولا تطلب اكلاً ولا شراباً . على ان وجود هذه النشرة هنا أو هناك سوف يسمح بأن يعثر عليها شخص ، وسيعمد الى تصفحها قتلاً للوقت ، واذا به يكتشف ، « الطبيب الأكبر »

لم يمد أحد يده اليها . أما هى فمضت تبتسم طول الوقت ثم وضعت الكتيب على كرسى اسحاق بينما غابت المريضة فى نوم عميق ، وراحت تتنفس وتصدر شخيراً خفيفاً . وفى الحمام ، مضت روزا تكسر الثلج .

قالت باميلا :

– من الأفضل أذن ، أن نتبع نصائح الطبيب . ولن أطيل عليكم ، فما دمت قد جئت الى هنا ، فلأذهب لأزور صديقتى فراو أناه .. سلاماً .

تلفتت حولها تبحث عن اناء تضع فيه الزهور ، ولكنها لم تجد ولا حتى كوب ماء يصلح لذلك ، فعدلت عن قرارها وأخذتها معها . أفسح مانوس

وإسحق لها الطريق كى تمر واقبلت روزا بالقربة بينما ، جلست إيمى فى مقعدها تفكر .

قالت راشيل بوضوح كأنها إستيقظت :

– سباستبول !

أسرعوا الى الغرفة . لحسن الحظ كانت لا تزال نائمة . نظر اسحق إلى مانوس :

– قالت لى فى الصباح إنها على إستعداد للتضحية بحياتها إذا كان ذلك يساعد الروس على الحفاظ على مدينة سباستبول ولو حتى ساعة واحدة .

لمحت إيمى نظرات مانوس تبرق ، وكانت عيناه تنتقلان بينها وبين راشيل فى نظرات حزينة ، فأبتسمت له .

قال اسحاق ، وهو يضم يديه :

– يجب أن تشفى . سوف ألقى بنفسى من جبل سكوبوس لو حدث لها مكروه . نحن قريبان بعيدان . أتفهمون ؟ كان والدها فقيراً جداً وقبيلتنا فى اضمحلال . لم يبق منها الا نحن الاثنان . تقابلنا واحد من الشمال والآخر من الجنوب ، اذا رحل أحدنا تلاشت سلالتنا التى ترجع الى ملكة سبأ .

حاول مانوس أن يسأل :

– ولكن كيف هذا ، ايها الرفيق ...

قاطعه إسحق قائلاً :

– اعلم . نشترك فى الافكار ذاتها . والدليل على ذلك ، انت سمعته :

سيباستبول . ولكن ماذا تريـدنى ان اقول ؟ اخاف خوفاً شديداً أن افقدها ، ولذلك اعتقد ان كل الوسائل مبررة ، وربما ما سمعتنى أقوله عن أصلنا سوف يجعل إله اسلافنا الجبار يرق لنا ويلين .

خرجت إيمى دون أن تقول شيئاً ، وبدأت تصعد السلم .

عندما نادوا على إيمى لتحضر كرسيها وتأتى لتناول الشاى كانت الشمس قد بدأت فى المغيب . لا وجود لنسمة هواء حتى الأن . تفد بعض الأصوات المكتومة من الخارج كأنها تمر عبر ستار من قطيفة . السيدة فيليبوت والآنسة باتلر تجلسان حول المنضدة الكريستالية وتتبادلان الحديث فى ود بالغ . ويجلس رون عند حافة الأريكة الزرقاء ، ينظف غليونه . يبدو نعساناً أو غير راض وتجلس فراو اناه بجواره ، منتصبة القامة ، كأنها تقوم هى الأخرى بزيارة رسمية . رأت إيمى فرفعت حاجبيها بسرور . ليس من المستبعد أن تكون هى التى رتبت لقاء الإنجليزيتين .

إبتسمت نانسى لأيمى ونظرت الى من حولها ، دون أن تتوقف عن متابعة الاستماع الى محدثتها . يضئ المكان نور النهار أو ربما ضوء الغروب . هبت من الردهة نسمة هواء . وقالت : « شخص ما غير موجود » . صمتت مس باميلا . إنتفضت فراو اناه وصاحت من بئر السلم :

- مستر كالويانوس ! الشاى ! ...

قالت إيمى :

- بهدوء . سوف توقظين المريضة .

إرتسمت علامة تعجب على وجه الزائرة . هل كانت تشجب تدخلها ؟ أم هى تمارس سلوك صاحبة المنزل الذى يذكرها بالحياة فى المعسكر ؟ أهو إهتمام من جانب إيمى حقاً بالمريضة ؟

قالت نانسى ، وهى تضع ماءً مغلياً فى إبريق الشاى :

– لم أشهد من قبل مثل هذه الخماسين ، ياعزيزتى الآنسة باتلر ، ولا مثل هذا الغبار الأصفر ، ولا وجود لنسمة هواء أيضاً . أعرف ان الخماسين رياح جنوبية شرقية تكتسح الصحارى والمناطق الحارة . خبرت شيئاً عنها فى بغداد . نفخ رون غاضباً فى غليونه . تنهدت فراو أناه وقالت برياء :

– والحرب ... جلبت عدة تغييرات ... هذا العام جاءتنا الثلوج ، وهو الأمر الذى لم أشاهد مثله هنا من قبل .

وقالت باميلا :

– حقاً ، فقد مر خمسة عشر عاماً دون أن تسقط ثلوج ، ولكن من الغريب ايضاً أن تهب الخماسين فى شهر يونيه . فلنأمل أن تنتهى سريعاً من أجل ابطالنا المساكين .

أراد فيليبوت أن يقول شيئاً ولكن ظهور مانوس منعه من ذلك . ألقى بالتحية دون إبتسامة . تحركت فراو أناه على الأريكة ودعته ليجلس بجوارها . مالت إيمى فى جلستها الى الخلف على أمل ان يلمس شعرها المتهدل سترته عندما يمر من هناك . وهذا ما حدث . أخرج من جيبه نشرة ، « العلم والصحة » .. ووضعها فوق المنضدة .

قالت مس باميلا :

– هذا رائع . أرى أنك اهتممت بها .

– إطلاقاً ! لقد أخذتها حتى لا تقع فى يد اليمنى ، فهو فى حالته التى هو فيها سوف يضيره كثيراً قراءة ما جاء فيها .

سألته باميلا بأبتسامة :

– إنك حديث العهد هنا . أليس كذلك ؟

تبادلت فراو اناه وإيمى النظرات .

– مس بايلر !

خاطبتها نانسى بحدة ، وهى تقدم لها قدح الشاى .

اجابت بأضطراب :

– اجل ، يا سيدتى . أشكرك

سعل رون وهو يشعل غليونه . ثم قال أورشليم هى فى الواقع أغرب مدينة عرفتها فكل برج تدق اجراسه لعقيدة بالاضافة الى المعابد اليهودية والجوامع . ان الامر اشبه بثلة خيط من العقائد يستعد هتلر لاكتساحها .

توسلت اليه نانسى قائلة :

– لا تكن فظاً ياحبيبى .

– إنتظرى ... إنتظرى .

وقالت باميلا وهى تبتسم بطيبة ملائكية :

– لا أدرى ماذا أقول لك . ولكن كنيستنا على أى حال ليس لها برج اجراس .

قاطعها رون قائلاً :

– أعلم ذلك . فأنتم محدثون ، ولكن لديكم ايضاً مرشداً .

– السيدة مارى بيكوايدى ؟ ما ذنبها ؟ هناك آلوف شفوا بأسم الرب

على يديها .

- اهذه دعوتكم التى تطلقون عليها « العلم والصحة » ، وهى نوع من الدجل والشعوذة ؟

- لا تكن فظاً ياحبيبى .

قال لباميلا وهو يصوب نحوها غليونه ، كما لو كان يخاطب تلميذة :

- تعرفين ... السيدة إيدى ذات مستوى ثقافى أقل من المتوسط . علمها شخص يدعى « دكتور فينياسى كيمبى « العلاج بالايمان » كانت تناديه عام ١٨٦٦ « بالاستاذ » ولكنها عام ١٨٨٣ تبرأت منه مطلقة عليه « المنوم الجاهل »

عندئذ فتح باب غرفة مانوس ، فظهرت رابسكو حافية القدمين لا ترتدى سوى قميص اسود قصير . نزلت السلم ، وعيناها شبه مغمضتين .

مرت من خلفهم كأنها تتنزه بمفردها بينما تسحب اصبعها الصغير فوق الحائط المقابل ذى الأبواب المغلقة . حاولت فراو أناه التى إحمر وجهها الحديث اليها ، ولكن نانسى منعتها .

فغر مانوس فاه بينما إنحنى رون ومضى يراقبها بإعجاب وخاصة عندما توقفت أمام المرآة بحجة العناية بخصلة أمامية من شعرها . إبتسمت إيمى بينما راح صوت طفل رضيع أو حيوان يحتج بداخلها . وعندما دخلت رابيسكو غرفتها نهضت فراو أناه ولكن نانسى أمسكتها مرة أخرى من ذراعها النحيل ، والقت برأسها إلى الخلف منفجرة فى ضحكة رحيبة منشرحة وقالت لها :

- فراو فلدمان ، كلا ، كلا لا تعقدى الأمور. لا بأس .. كيف أستطيع

أن أوضح لك . كأنني موجودة في ايطاليا . تفهمينني ، اليس كذلك ؟ كل انجليزي يحلم بالقيام بتلك الرحلة ولو مرة في حياته إلى الأجواء الدافئة ، حيث الحياة الطبيعية الطليقة اليس كذلك ، يا مس باتلر ؟

– على حد علمي إنه كذلك ، ياسيدتي .

ثم تساءلت باميلا دون أن تلتفت الى فراو أناه .

– ولكن منذ متى تحولت غرفة سام العلوية إلى حمام ؟

عندئذ إنفجرت إيمي في ضحكة هيستيرية ، جذبت انتباه نانسي ، ورون ، وفراو اناه بل ومانوس أيضاً .. وقالت ربة المنزل بعد مشقة :

– انصحك يا سيد كالويانوس ان تغلق باب غرفتك بالمفتاح ، مفهوم ؟

اغـرورقت عينـا إيمـي بالدمــوع . اعتقـد الجميــع ان ذلــك نتيجـة « الرميل » ، ولكن روزا وحدها كانت تعلم إنها لا تستعمله .

شكرت مس باتلر الليدي كامبل على الشاي الرائع الذي احتسوه . إنه لشرف عظيم لها أن تستطيع رد الدعوة أي يوم في الإسبوع بإستثناء الأربعاء وانصرفت . أحضر فيليبوت من غرفته زهور اللؤلؤ البرية . قطعها ، وألقاها في صينية الشاي خضب اللون الأخضر كفيه . تشممهما : «انهما تفوحان برائحة عطنة مثل روحها » وقال « آه من تلك الجاسوسة النخرة . لم اكن اتوقع ذلك ! » وأضافت فراو اناه وهي تغلظ من صوتها :

– إنها لعديمة الذوق . لم أكن أتخيل إنها تعرفك ...

ولكن الليدي كامبل تجاهلتها ، وقالت لرون :

– لا تنزعج ياحبيبي ، فما أهمية كل ذلك ؟

هدأ غضبه ، جلس ، جذب يدها من فوق المنضدة ثم قبلها وقال بصوت أجش :

– أتطلع إلى المستقبل .

– اوه يا رون !

قامت فراو اناه لتجمع أوانى الشاى ، فجلست مكانها بجواره على الأريكة :

– إن المستقبل لن يختلف عن اليوم ، إن لم يكن ...

إنسحب مانوس من جوارهما . حاول مساعدة فراو اناه ولكنها منعته بايماءة معبرة برأسها .

وقالت له إيمى كأنها تستيقظ من حلم :

– أترك هذا ، فهو من إختصاصنا .

قالت الأخرى بلهجة شريرة :

– لا أريد أحداً فى مطبخى .

ثم استدركت فى الحال نادمة :

– انه غير مرتب اليوم

مضى مانوس ملتزماً الصمت الى غرفته .

عندئذ أمسكت نانسى بكوع إيمى ، وقالت لها « إذهبى ، إذهبى فى أثره » ثم تبادلتا النظرات . شعت من الاسطح البنفسجية للصحاف الخزفية نجوم . وشعرت المرأتان بالخجل ، واردفت نانسى تكرر قولها « اذهبى ،

أذهبى ، تواً »

أخيراً ، صعدت إيمى درجات السلم الذى طالما رأت نفسها تصعده فى خيالها . دفعت الباب ودخلت . كان مانوس يجلس على الاريكة الضيقة ، غارقاً فى التفكير . جلست بجواره وقالت له متوسلة :

– مانوس ساعدنى ، هل تستطيع الاصغاء الى ؟

سألها مخفياً وجهه بكفيه :

– هل يهددك الأمريكى بشئ ؟

– هذا أحد الأمور ، قل لى كم أنت قوى . آه لو كنت أستطيع أن أتحدث دون خوف ، سوف تشمئز منى .

– أذا قلت لى إنك تلعبين بأسلوب مزدوج مثل رابيسكو فلن يدهشنى ذلك ، فلقد فسد العالم .

– كم انت مخدوع ! وكم تضحى ظالماً فى عماك !

إقتربت من المنضدة ، وفتحت الكتاب المقدس .

– ما هذا ؟ هل تقرأ التوراة الآن ؟ اخبرنى من انت ، وممن تختبئ ؟ ما أخفيه أنا لا علاقة له بالسياسة

– ومن أخبرك اننى أختبئ ؟

– ... لا احد . كلنا فهمنا ذلك ، حتى أسرة فيليبوت تعرف ذلك . لم نخبرهم نحن ، ولكن شخصاً ما قال لهم ذلك ، وهو نفس الشخص الذى أرسلهم إلى هذه النسيون ، لكنه لم يتوقع مجئ مس باتلر ! يقول رون إن صديقه يضفى عليك مسحة كبيرة من المثالية ، لا يراها رون فيك ولذلك فهو

يراك مختلفاً ، بمعنى انه يراك أكثر واقعية .

– لقد تعلمت من هذا الوهم كثيراً من الدروس . وفى الحق فأننى كنت أختبئ على أمل العثور على وسيلة للعودة إلى اليونان ، فكل الأشياء فاسدة هنا . وما على هتلر الا ان يمد يده وسوف يأخذ كل شئ هنا فى قبضته . أخطأت عندما اعتقد إنهم يحاربون .

ولكن ربما افادنى شئ ما . عندما رست مركبنا بأحد شواطئ الاناضول ورأيت ، الحارس من فوقنا : إعتقدت ان القدر يتحدث على لسانه . كان تركياً من كريت ، وربما ذلك ما جعله يقول لنا : « هه يا أولاد سوف أمنحكم خمسة دقائق إما ان ترحلوا بالمركب عائدين وإما ان أذهب بكم مكبلين بالقيود » خاف الآخرون فتراجعوا . أما انا فأحتجزونى فى أحد المعسكرات . وعندما قلت فى تلك الأمسية إننى أنتمى لأولئك الذين يمسكون بزمام الاقدار إعتقدت إنك تسخرين منى حيث كان على ان اختار للمرة الثانية . وفى هذه المرة الثانية كان القدر هو انت .

– أنا ؟

– إقترحوا على الرحيل من هنا ، ولكننى فضلت البقاء لأجلك .

– أنا تحت أمرك يا حبيبى ، وسوف ترى .

– قضى الأمر الآن . فات الآوان .

– لكن دعنى أوضح لك الامر . حاولت من قبل ان أقول لك كل شئ ولكنك لم تتركنى .

– رأيت بعينى السيارة خارج الفيلا فى الساعة الرابعة صباحاً بينما رأتك رابسكو تصلين الساعة العاشرة .

– لا انكر ذلك . أريد فقط ان أخبرك بما حدث .

– لا أهمية له ، مادام قد حدث .

– ولكنى فى حاجة إلى مساعدتك ، فربما تفهم ما يحدث لى ، لماذا لا أقاوم ؟ سأقول لك : لأننى لا أشعر أبداً بتأنيب الضمير .

– كفى يا إيمى ! تخيلت كالبلهاء انك امرأة مثلى ، لم أسمع من قبل إمرأة تعترف بشهواتها فى هذه الصراحة .

– انتظر يا مانوس . هل تذكر سوزيت إمرأة هولدرين المثلى ؟ هل تذكر ماذا كانت تكتب له ؟ . العلاقات الغرامية توجد فحسب على أرض الواقع الذى يوجد بيننا ، وليس فى عالم الفكر ، وكم كانت على حق ، تلك المسكينة . اسمعنى لحظة . لقد رأيت كيف رحلنا بالسيارة . كان هانز الجالس بالمقعد الخلفى ، يتحدث طوال الطريق عن ذلك الحلم الغريب الذى رويته . توقف بينى عن القيادة عندما تعبت عيناه ، فواصلت القيادة . وصلنا بالليل الى اللد ، وكانت الطائرة بالانتظار . انتحى بى هانز جانباً وقال لى « لا أخاف احداً قدر ما أخاف اليونانى ! » وقبل ان أنبس بكلمة ، دس شيئاً فى راحتى ثم جرى وصعد الطائرة . وفيما بعد ، نظرت ما عله يكون ذلك الذى دس به فى راحتى . كان عملة من النحاس منذ ايام فرانسوا جوزيف . ويجب ان تعرف انه ليس من طباع هانز ان يمارس المزاح الاسود ، وعندما اعدت التفكير تذكرت عينيه وكانت مفعمتين بنوع من الرعب . وانفجرت فى البكاء . ومنذ ذلك الحين فعل بى بينى كل ما اراد ان يفعله .

– ربما كان ذلك صحيحاً ، ولكنها لم تكن المرة الأولى .. لقد طلب منك

من قبل ....

- بالتهديد . ثمة شخص آخر افصح له عن نقطة ضعفى .

وهكذا إعترفت له بكيفية مجيئهم إلى اورشليم ، كيف ادرك هانز لعبة الانجليز وما هو بصدد أن يفعله بينى الآن فى أنقرة .

ولكن محاولاتها بهذا الحديث لجعله يلين باءت بالفشل . وفدت الى اسماعها آنة شاكية ، انتفضت إيمى تقول :

- راشيل !

عاد الثعلب النحاسى بأعلى السقف الى سابق دورانه . انتهت فترة همود الريح . وفد هسيس الشجر ، وقد راحت اغصانها وأوراقها كلها تتمايل وتهتز مع الريح . ولمست السقف نداوة ، جعلت ايمى تستنشق بكل قوتها النسمة الوافدة .

قال لها مانوس واقفاً بأسفل الكوة متطلعاً منها الى السماء :

- تعالى ، انظرى .

على خلفية خضراء زرقاء ، كان القمر يصعد ، مثل حلق من الخزف موشى بالنحاس . عندما اقترح مانوس عليها النزول إلى الحديقة لم يكن قد قبلها بعد .

وجدوا الدكة مشغولة فهناك شخصان يتعانقان بحرارة وفى صمت بينما ميدعة المرأة مرفوعة بميل يكشف عن فخذ ناصع البياض فى الظلمة ، ومن بعيد تفد همسات موسيقية ثم دقت ساعة الكاتدرائية معلنة منتصف

الليل . جاءهما صوت نانسي يقول لهما :

- تعاليا يا أيها العاشقين اللطيفين . اجلسا الى جوارنا يمكننا اقتسام الدكة بيننا .

قبلت إيمي الدعوة بترحاب ، وجذبت مانوس من يده للجلوس ، وقالت :

- كان يوماً ممضاً ، وقد بدا مع ركود الهواء لا نهاية له .

وقال رون مصدقاً على كلامها :

- اعترف بذلك . ولقد اثرت هذه الاحوال على اعصابنا . او على اعصابي انا على الأقل .

- قاطعته نانسي لماذا تفكر في كل هذا ، بدلاً من الاستمتاع بهذا .

واشارت بيدها الى الأشجار والى السماء ، والى اركان الحديقة المظلمة . ومن مكان قريب انساب واهنا صوت عصفور أو حيوان مختبئ . ومن الاحواض يفد نقيق الضفادع ، ومن خلف السكة الحديد يأتي أنين ناى بدوى شجنى رقيق . وبعد فترة طويلة من السكون وفد من دار السينما الصيفية أول مقطع من موسيقى الأخبار المصورة ، وغطى على كافة الاصوات الأخرى .

ملأت نانسي رئتيها بالهواء العطر ثم تمتمت :

- يا له من هدوء !

وقالت إيمي بلهجة لطيفة مفاجئة :

- ليدى نانسي ، سوف أقدم لك هدية . لست متأكدة مما أقول ، ولكنني أود كثيراً ان تسعدى بها . فلنتبادل غرفتينا ، ذلك ان سريرى مهيأ لمطارحة

الغرام عليه .

ضحك العاشقان وقالا « أوه كلا » ثم مضت نانسى تقول :

– وما المقصود بذلك ؟ أوه كلا فلن تكونى على الدوام وحيدة . سوف نعمل على أحضاره اليك من يده ، فارسك الغامض هذا .

وسألت إيمى بأسلوب ماكر :

– وماذا عن فراو اناه ؟ ألم تروا انها وضعت سريراً فى المطبخ كى تتجسس علينا ؟

– سنبعث بها الى صديقتها الآنسة باتلر .

وضجوا بالضحك جميعاً من جديد . ونهض رون ، وشبك اصابع يديه مثل أكليل فوق رأسه ، وقلد المبشرة الانجليزية . وقال مانوس بصوت رصين مشوب بالتردد :

– تعلمون بالتأكيد إنها شقيقة المدير المدنى للأمن .

انزل الآخر يديه من فوق رأسه ، وعاد يجلس سائلاً :

– حقاً ؟

وقالت نانسى :

– اسمع ، لقد خبرت نفسيتها جيداً . انها لن تنبس بكلمة فهى مشبعة بالأفكار الطبقية . انجليزية أصيلة من الطبقة المتوسطة ، هل لاحظتم كيف تغيرت ملامحها عندما تعرفت على ؟ لم تكونوا هناك ، ولذلك أخذت على عاتقى تقديم الشاى . لاحظت انت ذلك يا فراو إيمى ، فقد لمحتك . لن تتكلم إذن ، لأن هذا بكل بساطة لا يحدث عندنا . سوف تنتظر ان اقوله بنفسى،

وسوف أفعله .

قال رون :

- لن أتركك تفعلين ذلك .

- من فضلك ياحبيبى ، لا عودة لهذا الموضوع من جديد . من أى مكان فى اليونان تنحدر ياسيد .... عمانوئيل ؟

- آثينى انا ، ولدت فى ضاحية من ضواحى اثينا ، هى كيفيسيا .

- وهل لديك اخوات ؟

- للأسف لا . لماذا تسألين ياليدى كامبل ؟

- لا اعلم . ربما لأن جلبرت موارى كان يقول لنا ان نساء اثينا يدسن فى شعرهن جندباً ذهبياً ، اليس كذلك يارون ؟

- بنات البلد فحسب يفعلن ذلك ليتميزن عن الاخريات . انهن نبتن فى ذات الأرض التى تحمل الجنادب .

- ولكن حتى لو كانت لى أخوات فما كان فى مقدورهن إستخدام الجندب الذهبى ، فوالدتى ولدت بالإسكندرية ، وابواها ينحدران من هنا ، من أورشليم .

وسألت إيمى فى دهشة :

- ماذا تقول ؟ ما كنت اتخيل ذلك . هل تعرف شخصاً إسمه أدم ؟

ألقى مانوس برأسه إلى الخلف حتى يتمكن من رؤيتها .

- سمعت به . هل تعرفينه ؟

– رأيته فى أستوريا . شخص غريب هو .

انحنى مانوس ، وعقد ذراعيه فى عصبية .

وقال له رون :

– تستطيع ان تفتخر بأنك ذو أصول ممتدة إلى قطبى العالم . أتذكر كسينوفون ؟ قال تقع أثينا فى وسط أتيكى ، وتقع أتيكى فى وسط اليونان ، واليونان تقع فى وسط العالم . ولكن الصليبين ارادوا أورشليم مركزاً للأرض . كما يقول المسلمون ان النبى أطل من هنا على الجنة .

وقالت نانسى بلهجة انشادية :

« أورشليم ، أثينا ، الإسكندرية ، فيينا ، لوندرة »

واكمل مانوس قائلاً :

– أشباح هى ، لا وجود لها ! هذا من قصيدة اليوت . وهو الشاعر الذى يهيم به ريتشاردز حباً .

وقال رون :

– صدق الشاعر فيما يقول . مثل هذه الابيات كتبت من أجلنا .

وقالت إيمى ، وهى تسند سبابتها على صدر مانوس :

– اثينا ، الاسكندرية ، أورشليم ، وأيضاً فيينا وهيلجيفستات هى بالنسبة لى مدن لا وجود لها .

وقالت نانسى بصوت مرتعش :

– لو ندره ، وبلومسبرى .

وعقب صديقها كما لو كان يستثيرها :

- لوندره ، ووايتشابل .

عاد مانوس يقول متهكماً :

- اننا نتسامر حول جثة . ألا تشعرون بذلك ؟ القلاع تهوى متهدمة .

لوندره تمطرها طائرات البلتز بقنابلها أما أثينا وفيينا فهما اليوم فى الاسر ، وغداً ستقع فى الأسر ذاته الاسكندرية ، وبعد غد أورشليم !

وسألت إيمى فى قلق :

- هل تعتقد أنهم سيصلون الى هنا ؟

وفى هدوء الليل علا صوت نانسى منشداً :

أى صوت هذا الذى يتعالى فى الهواء

إنه همهمة نحيب الأمهات

واى أقوام هؤلاء الذين يرتدون القلانس ويحتشدون

فى السهول الى ما لا نهاية ويتعثرون فى الأرض المشروخة

وقد حفهم الافق المنبسط وحده

أية مدينة هذه التى تعلو الجبال

انها تنشق وتلتئم ثم تنفجر فى الهواء البنفسجى

أبراج متساقطة .*.»

ثم قالت :

– أوه ، فلنذهب الى مكان للرقص . اريد ضياءً وموسيقى ، وبعض الشراب .

وقال مانوس متهكما :

– فلنذهب الى فندق كينج دافيد .

وقال رون بذات اللهجة التهكمية وبلغة تختلط فيها الانجليزية بالفرنسية :

– انت ، ايها المحاضر المنافق . حقاً ، أنظروا كيف تترابط الاشياء جميعاً ؛ قرأت فى نشرة عن كنيسة القيامة المبجلة انه فى عام ١٨٥٠ سعى الجنرال أوبيك وكان سفيراً لفرنسا فى المدينة للتقرب من اللاتين . الايقول لكم شيئاً هذا الاسم ، أوبيك ؟ آنه اسم والد بودلير !

وانبرت نانسى تقول فى حماس :

– تذكر يا رون فلوبير فى أورشليم . فى العام ذاته ، وفى أروشليم يحكى فلوبير عن القس اليونانى الذى أخذ وردة والقى بها على رخام القبر المقدس . وسكب عليها قليلاً من ماء الورد ، وباركها ثم أعطاها لى – أى اعطاها لفلوبير – . كانت هذه واحدة من أشد لحظات حياتى مرارة بينما كانت ستكون من أحلى اللحظات بالنسبة لواحد من المؤمنين ! كم من أرواح مسكينة كانت ستتمنى ان تتواجد فى مكانى ! وكم كان هباء كل هذا

* هذه الابيات للشاعر الانجليزى ت.س. اليوت من قصيدته « الأرض الخراب » وقد نقلنا هنا ترجمة الاستاذ الدكتور ماهر شفيق المبدعة لهذه الأبيات من كتابه القيم « ت. س. اليوت ، قصائد» طبعة ١٩٩٦ .

بالنسبة لى . الوردة الحمراء على اللوحة المشروخة الصفراء اللامعة مثل كهرمان قديم ، وقد تناثرت بقع الزيت عليها . ورائحة الشموع المنصهرة . يخيل الى اننى اشعر بمرارة عزلة فلوبير على شفتى .

وشرع مانوس يقول بالفرنسية كما لو كان يقرأ من كتاب مفتوح :

- « كان أهل الدير يعولون ثعلبين . كل ليلة يلقون اليهما رغيفين . فكانا يأتيان الى هناك وينتظران . يلقى اليهما بالرغفين فيخطفانهما ويمضيان لحال سبيلهما .» فلوبير من ذكريات الرحلة ذاتها . أما الدير ، فهو دير القديس سابا ، اليونانى .

وأشار مانوس فى اتجاه البحر الميت .

أطلق رون صفيرا طويلاً مبدياً اعجابه ، وعاد مانوس يقول من جديد :

- تتلاقى الانطباعات ، تتلاقى الايام » ما هذا الذى أقول ؟ انها اليونانية بكل تأكيد . الأمر يتعلق بالشعر .

ترجم لهم البيت ، ثم القصيدة كلها . انها لكفافيس . وهو ايضاً واحد ممن عاينوا النهاية . كان جديراً ان تتعرفوا على شعره . ولكن اين الوقت لذلك الان ؟

يافراو بومبرسبيرج ، هل قرأت مدام بوفارى ؟

- بكل تأكيد . لماذا ؟

- لا شئ . كنا نتحدث عن فلوبير . هذا كل ما فى الأمر .

وقالت نانسى غاضبة :

- مهلك ، مهلك . ليس من اللائق ان تسأل سيدة لو كانت قد قرأت

هذا العمل .

نهض مانوس وقال :

– صدقيني ، قلت ذلك دون قصد . ولكن من كان يتحدث عن الرقص ؟

اعرف اين سنذهب . شجر ، موسيقى ، رقعة للرقص ، واضاءة ولكن خافتة .

امتدحه رون قائلاً :

– الآن حسن حديثك !

وقالت إيمى وهى تحتضن نانسى :

– اليس رائعاً ؟

تصنعت نانسى الجدية واجابتها قائلة :

– سوف نرى .

وقبلتها .

كان المكان الذى سيأخذهم اليه هو نادى الجالية اليونانية فى كاتامونا . عشر دقائق سيراً على الأقدام ويصلون اليه . على ان رون كان يريد ان يرتدى جاكيت وبابيون ، وقد عانوا الامرين كى يثنوه عن ذلك ، إلا انه تركهم لينفذ ما يريده .

وقالت إيمى :

– ربما كان يجدر ألا آتى معكم .

اعنى من أجل راشيل ، بعد ساعة أو ساعتين سيزول عنها أثر المخدر . وراحت هى ونانسى يحسبان الساعات . سوف تفيق فى منتصف الليل تقريباً ، لو أنها تعانى مما كانت تخشاه إيمى .

– على أى حال ، فان روزا الى جانبها . وماذا ستفعلين لها أكثر مما يمكن لروزا ان تفعله ؟ يا سيد عمانوئيل ، قل بدورك انت شيئاً ، ولا تقف هناك مثل غريب !

– وماذا أقول . على كل الاحوال فان النادى يغلق ابوابه فى الواحدة .

دق جرس المطرانية التاسعة . ازعج ذلك طائراً من طيور الليل كان قد اقام عشه هناك عالياً بشجرة من اشجار الحديقة المجاورة . رفرف بجناحيه ، واطلق صوتاً رفيعاً مرتعشاً وما لبث ان تبدد صداه عند الأفق ذى الاضاءة الزمردية ، فتعلقت إيمى بذراع مانوس .

وقالت له :

– اشكرك .

– وعلاما تشكرينني ؟

– على انك سترقص معى .

سحب ذراعه من قبضتها . واستدار الى نانسى قائلاً :

– نسى رون مركزاً آخر من مراكز الدنيا . اعنى موسكو .

اجابت مستغرقه فى التفكير :

– هذا هو الأمر اذن .

– هل يضايقك ذلك ؟

– كلا ، على الاطلاق أول من أحببت من الرجال لقى حتفه فى اسبانيا حيث ذهب متطوعاً ، وبمحض ارادته . ارسلت كامبردج بأولى عربات الاسعاف الى هناك . كان رجلاً ... بل صبياً ، مراهقاً غض الأهاب ، ولكن يا الهى كم كان مرهف الحس ! وقد اشاع رجال موزلى ان الجمهوريين اعدموه لما أظهره من جبن فى المعركة . وما كنت اريد ان أصدق ذلك ، ولكننا علمنا الحقيقة فيما بعد . وحتى لو كانت الأمور هكذا ، فقد بقى بداخلى شئ من ذلك ، كما لو كانوا قد ارتكبوا فى شخصى ظلماً لا يغتفر . على وجه التقريب ، مثلما يثور من مشاعر عند القراء عن مسيرة الأطفال الصليبية عام ١٢١٢ حيث انتهى المطاف بخمسين ألف نسمة بريئة الى مواخير جينوا وليون ومارسليا ، والى قاع البحر أو فى حريم الاسكندرية .

صمت الاثنان ثم عاودت الكلام :

– اعرف فيما تفكر . جاء رون بعد ذلك . عندما عرفته قلت هذا هو الشئ الحقيقى ، اما الآخر فلم يكن سوى صورته منعكسة فى مرآة . ربما كنت مخدوعة ، ولكن ربما أيضاً لم أكن كذلك ، فيما بعد . عندما تمر السنين ، لا تريد المرأة أن تعاود البحث والحيرة بل تريد ان تحتضن من هو الحقيقة الوحيدة فقط لو استطاعت الى ذلك سبيلاً .

واستدارت على كعبيها . ثم اردفت تقول :

– وفقط ، الا يؤخذ منها هذا بدوره من جديد ... أتعرف ، هذه هى النزهة الأولى التى أخرج فيها منذ يوم مجيئنا .

ووصل رون سألته إيمى :

– كيف حال المريضة ؟

– لم أرها . الهدوء يعم المكان ، والنوافذ كلها مغلقة .

– فلتستند إيمى إلى ذراعك ، يا حبيبى . اما انا فسأحاول ان أروض هذا القنفذ خفيف الظل .

وأخذت ذراع مانوس ثم خرجوا من زقاقهم الى الشارع المغطى بالاسفلت . ومضى مانوس ورون يسيران والمرآتان بينهما . وراحوا جميعاً يصعدون الطريق ، مستنشقين بعمق نسمات الليل الهادئ المنعشة . وقد انسجمت خطواتهم وكلماتهم فى مودة تحت اوراق اشجار الكافور الباسقة على جانبى الطريق . شعرت إيمى كما لو كانت تحيا من جديد ايام عطلاتها ايام الدراسة الثانوية ، وعلى وجه الخصوص أمسية من أمسيات أيام السبت فى الريف ، مشتة بين شكوك الطفولة وآمال الشباب . الانتشاء الأزرق السلس من لقائها بهولدرلين . اليونان مركز الدنيا ...

رأت مانوس يرفع يد نانسى ، ويودع راحتها قبلة .

قالت له المرأة الشابة :

– افكر فى ريتشاردز الذى كثيراً ما ردد قوله بأنه فى لحظة صعبة يفضل ان يموت من أجل اصحابه على أن يموت من أجل ايديولوجية اياً ما كانت . لو اصاب رون مكروهاً ، فلا تتركنى وحيدة .

لم تسمع إيمى اجابته على ذلك ، ولكنها سمعت فحسب قولها له :

– أوه ، كف عن هذه الشكليات . يالعجرفة أهل البلقان هذه ! اسمى

نانسى ، والذين يحبوننى ينادوننى نان . رون ونان ، كما فى حكاية عن القطط ...

تبين عندئذ مانوس ان إيمى تتابع حديثهما . توجه إليها قائلاً :

– فى هذا المنزل الصغير هناك ، يافراو بومبتسبرج ، يسكن آدم ، الذى حدثتنى عنه .

ومن حسن الحظ ، ان رون كان يقف الى يمين إيمى ، منشغلاً بغليونه وبعقدة بابيونه . ثم تناهى الى سمعهم جلبة الاوتوبوس من خلفهم ، فأفسحوا له الطريق . ولا بد انه كان اتوبوساً سياحياً ، فقد وفدت من داخله ضحكات وأغان . ثم اشار لهم مانوس الى فيلا البطريرك . كان هذا ما يطلقونه على هذه الفيلا ، وان كان مانوس يجهل ما اذا كان البطريرك يقطنها فعلاً . ساروا طويلاً بمحاذاة سور يحيط بحديقة فسيحة ، وكانت على ما يبدو بستان برتقال . ومن بعيد ، سمعوا مكبر الصوت يذيع «تانجوهات» يونانية . وكان مدخل المكان باباً خشبياً موارباً . طلب مانوس منهم ان ينتظروه قليلاً .

اقترب من الحارس وتبادل معه الحديث . وتفحص شيئاً مثل حافظة أو بطاقة تحقيق شخصية .

قالت نانسى :

– أياً ما كانوا يقولون لكم ، فان هذا الرجل لا يختبئ من أحد .

ردت عليها إيمى قائلة :

– لم يعد يختبئ . أخبرنى بذلك اليوم .

– الهذا علاقة بمشاجرتكما الغرامية ؟

– لا علاقة البتة بمثل هذا الشيء الذى تذكرينه ثم اننا لسنا بعاشقين . وما كنا كذلك قط .

– أوه ، يا عزيزتى إيمى أنى آسفة عما بدر منى . كم انا خجلة من نفسى ! ما الذى سوف تظنينه عنى ؟

– كلا ، بل بالعكس ، من ناحيتى وددت بشدة ان يكون ما قلته هو الحقيقة ! انه الشئ الوحيد فى الدنيا الذى اريده الآن . لكننى ارتكبت خطأ ، اغضبه . ولا أعرف كيف اتصرف .

ترك رون المرآتين ، واقترب من الباب وهو يجذب انفاساً قصيرة من غليونه . عاد مانوس توا . بعد ان فرغ من دفع رسم الدخول وراح يتجاذب اطراف الحديث مع الآخرين بمودة ، مثلما يفعل الرجال بصفة عامة عندما يتعلق الأمر بتسويتهم مصاريف نزهة .

قال مانوس :

– تعالوا . انتم الليلة ضيوفى . ليس الدخول مسموحاً الا لأصحاب الرتب بالجيش اليونانى ومدعويهم . لم أعطهم اسماء . اسمى يكفى .

فتح لهم الرجل البوابة . حيوه بإيماءات من رؤوسهم ودخلوا . وساروا فى درب ترابى فسيح ، فى نهايته بضعة مصابيح زرقاء تدلت على هيئة أكاليل . وعلى الجانبين ، اصطفت اشجار البرتقال بأبعاد متساوية . وعند نقطة ما ، اتسع الطريق على هيئة ميدان ، وقفت فيه خمس أو ست سيارات مدنية وعسكرية طليت بخطوط متعرجة مثل جلد نمر ، وهو طلاء الخداع الصحراوى . وفى نهاية المطاف وصلوا الى امام فيلا مستطيلة خفيضة

الجدران . وفي الواجهة صف من الأعمدة أيونية الطراز يزين سلماً رخامياً . ومن الخلف تتلألأ النوافذ ذات الزجاج المطلي باللون البنفسجي استجابة لتابير الاظلام المفروضة . نظر رون الى ساعته الفسفورية ، وقال :

– امضينا نصف ساعة للوصول الى هنا .

ثم أومأ بأصبعه :

– يخيل لى أننا فى قصر مزارع بكارولينا الجنوبية ، لا ينقصه سوى الخدم الزنوج .

كانت حلقة الرقص أمامهم ، وان لم يلحظوها إلا بصعوبة . فقد كانت حوضاً خالياً ، لا يبزغ منه سوى رؤوس الراقصين عند مواطئ اقدامهم تقريباً .

قال رون ، وهو يرفع صوته كي يسمعوه :

– لا بد ان الجو حار هناك .

سألت إيمى :

– كل هؤلاء الرجال يونانيون ؟

اجاب مانوس :

– بالطبع . وان لم اكن متأكداً من جنسيات مشاركاتهم فى الرقص . لا بد ان هناك اجنبيات ممن يقمن هنا ، من ممرضات ومجندات .

وقالت نانسى :

– عجباً ، كنت اعتقد أن اليونانيين اناس يميلون الى الصخب .

وفى الواقع ، لم يكن يسمع بخلاف الموسيقى سوى وقع الاحذية الثقيلة على الأرض الأسمنتية .

وصاح فيهم صوت لا يعرفون صاحبه :

– رقصة التانجو تتطلب التركيز ، يمكنكم معاودة الثرثرة والحديث مع مجئ الرقصات اليونانية !

انتحوا جانباً ، وكما لمحت نانسى ، كان المكان مضاءً على نحو ما كان يسمح بالتعرف الا علي أولئك الذين كانوا يريدون ذلك . تناثرت المناضد الصغيرة وكراسيها فى انحاء الحديقة . ويتدلى مصباح أشبه ببرتقالة زرقاء ، من الشجرة التى تكون المنضدة التى تحتها محجوزة . وقد خلا المكان من السقاة . وكل وافد يدخل الفيلا ويتوجه الى البوفيه حيث يأخذ طلبه ويدفع ما عليه . ومن وراء صف الاعمدة الايونية يبدو بصعوبة أولئك الذين يدخلون ويخرجون ، أشبه بأشباح مؤمنين عند مدخل معبد قديم أثناء أداء الطقوس الدينية .

وعندما توجهوا للعثور على منضدة لهم ، تركهم مانوس لاحضار المشروبات . تأخرت عودته . انتهت معزوفة التانجو ، فوضعت أسطوانة أخرى ثم اعقبها فوكس تروت قديم حاز نجاحاً كبيراً من الراقصين بالحفرة ، كما بدا ذلك مما تعالى هناك من أصوات . بدأ رون يتساءل عما اذا كان مانوس قد فقدهم ، الا ان مانوس سرعان ما وصل وفى اعقابه رجل ، حمل عنه المشروبات .

– لا يوجد ويسكى .

قال رون بأرتياح :

– هذا أفضل . لأننى كنت سوف اذهب لأهدم مركز القيادة على رؤوسهم . لحسن الحظ ، فأن المساواة تسود !

– لكنى وجدت «جين» وصودا وثلجاً .

صاحت نانسى ومن بعدها إيمى :

– حسناً فلنحتس الكأس الأول بسرعة !

ابتعد مانوس ومعه الرجل غير المعروف ، وتجاذبا اطراف الحديث طويلاً وعندما انتهيا من أسرارهما ، أمره مانوس بالأنصراف . وعندما فرغوا فى النهاية من احتساء الكأس ، حثهم مانوس على تناول بعض الطعام . وكانوا قد جلبوا خياراً متبلاً ، وجبناً ضأناً ، وزيتوناً أخضر ، وخبزاً أبيض ، وفولاً سودانياً . وقد أختفت منضدتهم تحت الاوراق الغارقة فى الزيت ، وزجاجات الصودا ، والاقداح الضخمة . وفى الوسط ، مثل المطرانية الالمانية ، أناء الثلج والى جواره زجاجة الجين المكعبة .

رفعت نانسى قدحها :

– هذا نخب الحب !

ومن بعدها اقترح رون ان يشربوا نخب النصر .

وقال مانوس :

– أعلن الالمان ان حصارهم لطبرق قد بدأ .

– هذه أكاذيبهم التى ألفوها ! أى يوم من الأيام نحن الأن ؟ الخميس ؟ قبل يوم السبت ، هذا مستحيل .

وسألت نانسى :

– وماذا بعد ؟ منذا الذى يريد شراباً ؟

على ان مانوس الذى كان واقفاً ، دعا نانسى الى الرقصة الأولى .

وفى العتمة ، طوق كتفيها ، كما لو كان يريد ان يقول لها « انتظرى . سوف ترين .» وفى هذه الاثناء خالج إيمى احساس بأنهما لن يعودا ، وكانت تجيب شاردة البال على حديث رون اليها بكلمات مقتضبه . ودأبت على ان تجيل بأبصارها فيما حولها . ولكنهما عادا – وياله من معجزة ! انحنى مانوس امامها وقال :

– سيعزفون فالسا الأن ، وقد طلبناه خصيصاً لك .

بعد برهة ، وجدت نفسها وسط أشجار البرتقال . أنحل ، رغما عنها ، رباط شعرها الذى راح يتماوج على كتفيها . وتعثرت قدمها ، فانخلع منه حذاؤها وضاع . وكي تحتفظ بتوازنها أمسكت ضاحكة بيد مانوس ، سعيدة . وعثرا على الحذاء ، وعقدت شعرها من جديد . وبتعقل الأن نزلا درجات حلبة الرقص الخشبية . كان الاحساس بالجندية هناك ملحوظاً ، أو بعبارة أخرى احساس الكاكي الناضح برائحة العرق والتبغ الفيرجينى . وفى السماء ارتسم الهلال الذهبى بضيائه الحمراء وراح ينزل ماضياً الى الافول . تمهلاً قليلاً وقد الصقا ظهريهما بالجدار . وما ان بدأت انغام الفالس تنحى عديد من الراقصين والراقصات عن الحلبة ، وانصرفوا دون احتجاج .

قال مانوس :

– هيا الآن .

طوق خصرها بذراعه . على التو سرت الرعشة فى جسدها ، فقالت بالألمانية « اواه ، يا الهى » وتركت نفسها بين زراعيه وهى ترتجف . أحست بالشحوب يصعد الى وجهه ، أغمضت عينيها وقالت له متوسلة :

– شفتيك . اعطنى شفتيك ، أتوسل اليك .

– إيمى ، قليل من الحياء ! الناس تراك !

أى ناس ؟ فيما يهمه الناس ؟ ما كان يريدها ، هذا كل ما فى الأمر . انه يفضل الأخرى عليها . آه ، ما الذى يجده فيها ، ولا تملكه هى ؟ ودت ان تقول له « لا أطلب منك ان تحبنى . أطلب منك فحسب ...» كان طفلاً الى حد كبير ، وكانت تشفق عليه . اكانا يقفان ، أم كانا يرقصان ؟ كانت المتعة ترفرف فى صدرها ، ومن لمسات اصابعه كانت تسرى ايضاً قوية ومتعدية للواقع فى جسدها كله . كما اخذت الكآبة ، مقتضبة ولكن جد مريرة ، تطرق فوديها وقلبها . احست بردفيها وفخذيها تتضخم بلا حدود . ويصبح جسدها كله كالفيل ثقيلاً وتنوء بحمله .

– أنى أشعر بالتعب الشديد ، الآن . هيا بنا نجلس.

جلسا على حافة الحوض . تغيرت أنغام الموسيقى ، صارت أكثر سرعة . خلفا الراقصين وراءهما ، وراح هؤلاء يتقافزون كما لو كانوا يطأون بأقدامهم حبات من العنب .

– لا تنظر الى ، من فضلك . انها المرة الأولى التى يحدث لى فيها ذلك . ولم أكن أريده .

– هل تريدين أن احضر لك شراباً ؟ كوباً من الماء ؟

– كلا ، لا تتركنى لحظة واحدة ، الليلة . لو بقيت وحدى ، سوف يصيبنى مكروه . أشعر به يجول هنا ، قريباً منا .

ودت ان تصيح فيه قائلة « آدم ! لحظة ! الى اين اخذتنى ، ياحبيبى ؟ »

شبات شالوم . سأل أى ريح طيبة أتت بك . أجبت بالألمانية صباح الخير ، يا صاحب الفخامة الهربتلر . وما كنت تعرفين من أين تبدأين . البيت خلا عليك فجأة ، بل وحياتك يا أناه . وددت ان تقولى اعيدوا الى سام ، انا وحيدة . لكن هذا القول لم يخرج من حنجرتك ، وتحدثت عن المطر والجو الجميل . كيف يحدث أن تتركوا جاسوسة تجول طليقة . وقد أثار هذا اهتمامه . ولكن عندما شرحت له الأمر انفجر فى الضحك . كونى مطمئنة . هذه الشخصية انما تؤدى واجبها ، فهى تدير رؤوس ضيوفى وتنام معهم . هيه ، هذا يدخل فى باب عمليات الترفيه الخاصة ، ولا نعرف عنها شيئاً . ولكنه كان يعرف . وقد ادركت منذا الذى عرفه بذلك وسأل تريدين الحديث عن اليونانى ذى الافكار اليسارية ، وقلت لا أعرف . انه صاحب نزعات انسانية كبير وأجاب انه من الغريب انك لم تبلغى عنه بعد . واحتفظت ببرودك . لم يتسع وقتى لتسجيله ، فهو ما ان نزل عندى حتى شد رحاله . وأين ذهب يا فراو فيلدمان ، هل تعرفين .

كيف تحكين له . سمعت صرير درجات السلم الصغير . وما ان القيت على جسمك رداءك المنزلى وخرجت ، كان قد وصل الى الطابق الأرضى متأبطاً حاجياته . اين تذهب يا سيد كالويانيش . انى أرحل . سألته إلى غير رجعة ؟ قال لا شك فى ذلك . لكن اليوم يوم الخميس وقد دفعت مقابل اقامتك حتى يوم الأحد . انى اقدم لك الفرق هدية ، وهكذا رحل ، دون ان يمد اليك يده بالتحية ، ودون ان يشكرك . لا بد ان الساعة كانت الثالثة

صباحاً . ثم عم الهدوء ردهة الطابق الأرضى . نزلت فى اعقابه . اسرع بفتح باب الحديقة ، وابتلعه ليل اورشليم . وجلست على العتبة الحجرية وانسابت الظلمة عند قدميك مثل انهار بابيلون . وما خطر ببالك قط انه سوف يعاملك معاملة خشنة كهذه ، لا تليق حتى بخادمة ، ولا حتى باندريانو تلك التى تعالى صراخها يوماً من جراء الضرب الذى تلقته منه . لو كان احبنى لرحبت بأن يضربنى . ليس كثيراً على أى حال . مرة واحدة فحسب ، ولكنت اغتفرت له ذلك . ثم سمعت صرير حشية النزيلة التشيكية ، مثل ماكينة سينجر صدئة . أوشكت على الضحك ، ولكنك اجهشت بالبكاء ، مثلما تجهش بالبكاء أعرابية لوفاة عزيز عليها . وخرجت اليك روزا تتخبط وهى بين اليقظة والنوم . وانحنت عليك تسألك ما بك . وقلت لها لا شىء . مجرد فقاقيع . ولم تبدى رغبة فى النهوض ، فتركتك . ثم خرجت «شيراميك» بالمنشفة الوردية . كانت تجرى عارية ، تتفجر صحة ، مثل مهرة . من أجل اغراق الكرواتى الشاب فى مياه المرحاض . وانفلتت منك الضحكة التى كنت تكتمينها وتفتحت مثل وردة . مالبثت ان علاها الذبول . ثم انصرفت انت حتى لا يعتبرونك مجنونة .

لم يتسع وقتى كى اوجه اليه السؤال ، ولكن يا صاحب الفخامة ليس من الصعب معرفة الاجابة . كيف يا فراو فيلدمان ، خبرينى . وحدثته عن اليونانى العجوز ، المترجم القديم . وقال لك لكن هذا الأخير رحل . انه يوجد فى حيفا . كل شىء عنه يعرفونه . فليسألوا عنه فراو بومبرتسبرج ، فلا بد انها تعرف . ها هى غزوة جديدة لصاحبنا كازانوفا . كان يعرف كل شىء . ولكنك انحزت اليه . لم الحظ عليها شيئاً من هذا القبيل ، انها على غاية من الأدب . قال لك حسناً ، اننا نمزح . إسأليها ، وكلمينى بالتليفون .

واجبت لا استطيع ان البى طلبك ، فقد رحلت . واين ذهبت ؟ لا ادرى ، لكن بأمكاننا أن نعرف من الأمريكى . قال الامريكى ؟ وكأنه يقول ها نحن نتقدم كثيراً الأن . ضابط امريكى تعمل معه . قال اذهبى وتقصى الأمر . ليس هذا بالشيء الصعب ، لا بد ان روزا تعرفه .

من حسن الحظ ، انه لم يسأل متى رحلت . كان سوف يجب ان تخبريه بأنها لم تعد منذ يوم الخميس . وكان سوف يجيبك فى هذا الخصوص بشيء . لكن الأمر لم يكن كذلك . اعتقدت بدورك عندما سمعت فيليبوت يعود انه يعود بصحبة زوجته ، ولكن عندما تيقنت انه كان بصحبة عشيقته ، استقر فى روعك فى النهاية ان إيمى لم تعد معهما . كانا ممتلئين ثقيلين . ودخلا حجرتهما وتأهبا للرقاد . وفى التو لم يعجبك هذا . عدت ترتدين رداءك المنزلى ، وخرجت من المطبخ . كانت طلائع النهار تلوح . لم يريدا أن يفتحا لك الباب . واكتفيا بأن قالا لك بأنهما بعد اذنك سوف ينامان فى الفراش البديع الذى صنع من أجل الحب . برفق يا رون ، سوف نوقظ المريضة . لم يكترثوا حتى بسؤالها كيف هى . وسألت اين فراو بومبرتسبرج واجاباك بأنهم أعطوها تصريحاً بالخروج . سألت من جديد وماذا يعنى ذلك . وصرخ أوه ، لا تصدعى أدمغتنا ، ايتها الجاسوسة العجوز ، واغلقت الأخرى له فمه . يا للخنازير . وتأكدت بذلك انهما تسللا معاً . ظللت طوال الصباح تروحين وتجيئين مثل نمر فى قفص . كنت تنتظرين ان يستيقظا حتى تعاودى السؤال . ولكنهما لم يخرجا . ظلا يهضمان ما طبخاه معاً . وعند الظهيرة ، بدت روزا بصحبة الأمريكى ، جاء فى طلب حاجيات إيمى . واضطر الخنزيران ان يفتحا ، فوجدت الغرفة بحالة سيئة . حتى انهما انزلا لوحة دورير من علي الحائط ، وعثرت عليها

مخفية بين الاغطية الملطخة بالبقع . لو تلقت خطابات عليك ان تسلميها لروزا . قلت له سوف افعل ذلك بكل سرور ، ولكنني دفعت اجراً لوكالة البريد معتقدة انهما سيقيمان اكثر من شهر ، وها هما في اقل من اسبوعين يغادرانا . انصرف الى اجراء عملية حسابية بكل هدوء ، وتبين في النهاية انه انت المدينة لهما ببعض المال . ومع ذلك فقد ارسلت الأخرى اليك روزا بعد الظهيرة واعطتك جنيهاً ، احتفظت به فقد كان من حقك . واردت ان تعطيها عشرة في المائة لكنها رفضت . لم تعيري هذا الامر اكتراثا . وفي المساء رحل اللوردات ايضاً . بقيت وحدك مع رابيسكو . وقد كنت تودين ان تطرديها بدورها .

لم يستجوبك بخصوص الليدي ، لكنه كان يعرف ، لأنك عندما بدأت تشيرين الى دفء الوسط العائلي حتى أول أمس ، وتعددين النزلاء ، قاطعك . كفى يا فراو فيلدمان ، الأجدر أن تخبريني لماذا استدعوا البرفيسور الى الطابق الأرضي . كان يعرف هذا ايضاً . وسألك عما اذا كنت تصدقين الشائعات التي كانوا يروجونها عن خبراته . أجبته بأن هذه الأشياء كانت فراو بومبرتسبرج تقولها ايضاً . يغارون منا ان يكون لنا مثل هذه القمة . وكان يكتب . وفجأة فكرت انه بدوره منهم . وفهم . انها وجهة نظر يا فراو فيلدمان . وايضاً بل ووجهة نظر يبدو ان واحدة من ديانتك لا تشاطرك فيها . روزا . أوه ، أقلت ان هذه لا اله لها . إنها الحماقة الثانية التي ترتكبينها ، ذلك انه أسند القلم الى المنضدة ، وضغط عليه حتى انقصم سنه محدثاً بذلك صوتاً . فهمت من الذي حدثه عنها وانها لم تكن اللحظة المناسبة لطردها من البيت . سأل كيف هي لا اله لها . قلت آه ، حسناً . لكنني جادة فيما أقوله لك ياصاحب الفخامة من انني اعتبرها

قادرة على ارتكاب جريمة . انها فى اللحظة الراهنة ، هى التى تبلغ عن جريمة . سألت هل هى التى تقدمت بالشكوى . كلا يا فراو فيلدمان ، وليأخذك الشيطان ، فأنت تفهمين ماذا أعنيه جيداً .

وضحك . حدثونى عن شخص عيناه قشدة سوداء . قلت فهمت ، انت تفكر فى السيدة اندريانو . ربما تعتقدين ان من اللازم ادراجها بدورها فى قائمة التحقيقات . تظاهرت بأنك لا تفهمين ، فغضب ، وخاطبك بحزم . قلت أوه كلا ، كان السيد كالويانوس على غاية من الشرف ، وما كان يخطر بباله ان يفرق بين زوجين . سألك بماذا وصفته . فكررت له ما سبق ان قلته عنه . هل ابرز لك جواز سفر أو بطاقة شخصية . فكرت . جواز سفر يونانى . هل التقطت رقمه ومحل اصداره ؟ لم أنتبه الى ذلك ، فأنخرط فى تعنيفك ، فتركته يتكلم . كنت تعرفين أن كل ذلك كان كلاماً لا صحة له .

وعندما هدأت ثائرته ، اراد ان يعرف لماذا ضرب أندريانو زوجته . أجبت اننا شعرنا بالخجل من سلوكه هذا أمام البروفيسور . فقد جرجرها من جدائل شعرها . قال ولكن لماذا هذا . اريد معرفة التفاصيل . أجبت لا أعرف . كنت نائمة فى المطبخ بالدور العلوى . سمعت اليمنية تولول مزلزلة بصراخها أسوار أريحا كما يقولون . كم كانت الساعة . لابد أنها كانت قد تجاوزت منتصف الليل . نزلت فوجدتهم جميعاً واقفين مرتبكين وبدا على اليمنى انه ثمل . كان قد طلب البرفيسور فى التليفون فأجابوه انتظر حتى الغد فهو نائم . وخرجت خالياسكا عن طورها وراحت تطلق الشتائم . واكثر منها ايضاً اندريانو ذلك البرص الحقير . جثا اليمنى على ركبتيه متوسلاً الينا بأنها ماعادت تحتمل ، وقالت الأخرى لعل زوجى لا يحضر فى هذه الأثناء . قالت هذا والقت عليها شالاً وخرجت الى الطريق . ولابد انها

اجرت اتصالاً تليفونياً بجهة ما كى تتدخل ، بشخصية عالية المقام . قال هذا لا يعنينى يا فراو فيلدمان . استمرى . اجبت كما تشاء يا صاحب الفخامة ، ولكن هذه أشياء لا غناء عنها كى تفهم . وطلبت منى خاليسكا القصرية كى تضعها تحت المريضة . معذرة لقولى هذا ، ولكن ما عادت تصنع مثل هذه الأشياء اليوم . انها من خزف بوهيميا نقشت عليها ازهار صغيرة ، وهى مريحة للغاية . لم اقل شيئاً ، وذهبت لأحضارها لففتها فى قطعة حريرية من قميص داخلى قديم .. وجذبت خاليسكا لفافة القماش وتشممتها متأففة ، ثم القت بها بعيداً . اردت ان استعيد منها الاناء ، فتعمدت ان تتركه يسقط من بين يديها . ولكنه لحسن الحظ لم يتحطم . وقلت اننى بعد ذلك لن اترك اناء جدتى بين ايدى غريبة . وذهبت بنفسى ووضعته تحت المريضة . كانت تصرخ وتهلوس . درجة حرارتها أربعون . انه الالتهاب السحائى ، وسوف ترون . ومع ذلك ، فقد كانت مدركة لما حولها مادام انها زحزحت وحدها القصرية . كان تحت الحشية الواح خشبية . وقلت لنفسى ان الاناء سينكسر من ثقل جسمها ، ولكن هذا لحسن الحظ لم يحدث . وخرجت ، ولم اترك خاليسكا تغسل الاناء ، وهو ما كان واجباً عليها . كانت سوف تكسره . أعرفها وعندما عدت كانت المريضة تتكلم بوضوح ، ولكنها كانت ترتعش طوال الوقت . ترتعش . انى افهم العربية . كانت تقول لزوجها ان ثلاث كرات من كرات البلياردوا تتصادم داخل رأسها . واحدة حمراء واخرى بيضاء وثالثة سوداء . قالت له هل دققت النظر . تحت مذبح كنيسة عين كارم الروسية . هناك ينتظرون

وهو الذى سيزيح عنى الكرات وانهض . فقاقيع . وعادت مدام اندريانو راضية . قال لنا انه قادم فى ظرف ربع ساعة . اخطأ عشيقها اذ أحضر

البروفيسور فى عربته الجيب . اما من ناحيتى فلم افعل سوى أن رحبت به فى النزل حيث كانت المرة الأولى التى تأتى اليه شخصية عالية المقام مثله .
ما ان وضع يده صانعة المعجزات على رأس المريضة حتى كفت عن الصراخ وابتسمت . أمر بخروج الجميع من الغرفة . انت ايضاً يا فراو فيلدمان من فضلك حتى تمنعيهم من الدخول . تصور انه كان يعرف أمى وزوجى ولكنه لم يغلق باب الغرفة . وهناك راحا يتحادثان بالالمانية ، ومضت هى تكيل له المديح ، وتبتسم وتحكى له قصة حياتها بأكملها بالالمانية . راح اليمنى يدعك وجنتيه ، ويقول لنا انها ليست هى التى تتكلم ، فهى لم تتعلم الالمانية قط . سوف اجن . وهنا وصل اندريانو وأنبأته الجيب بالكثير .
كانت تدور فى ذهنه منذ أيام بعض الشكوك ، وعندما رأي الآخر فى الردهة . أمسك بزوجته من جدائل شعرها . ولم يكن بوسعها ان تلتقط حتى نفساً واحداً مثل حمل يساق الى الذبح . وعندئذ هم عشيقها . وهنا قاطعك من جديد استمرى يا فراو فيلدمان . هذا كل ما الأمر يا هيربتلر . استقلوا الجيب بعد ذلك وانصرفوا . ثم ارسلوا عربة الاسعاف التى أخذت اليمنية بصحبة زوجها الى مستشفى حداسا . هكذا قالوا . وعندما فرغت ، نهض . اراد أن يطردك لأنك اطلت المكوث . تذكرت انه كان عليك ان تحدثيه عن سام . طلبت منه ان يتوسط لدى المدرسة كى يعيدوه الى حيفا . انى وحيدة . اجابك لا تتسرعى ، فسوف يأتى اليك اناس كثيرون من مصر . ولماذا لاجئون ؟ ما من شىء جسيم ، مجرد اجراء وقائى . اخترق الالمان اليوم الخطوط الدفاعية الأولى خارج طبرق . كان يرتب سواسن برية فى اناء على مكتبه . مررت عليه أحييه هذا الصباح .

اناه من يدرى . هتلر فى أورشليم . لم لا .

وانت وحيدة تماماً . فى ذات الجيتو مع خالياسكا . وسام سيواجه حد السيف مسلطاً الى صدره . النهاية والعار . لقد فشلت يا اناه . تحيين مثل عصيدة الطماطم . تقرأين الارشادات . تتبعينها حرفاً حرفاً . وعندما تضعين الدقيق فانها بدلاً من ان تتماسك تصبح عجينة لا تؤكل ، فتلقين كل شىء الى صفيحة القمامة أوله اريك ما اجمل شعرى الأشقر الذى يتماوج مع النسمات . اواه يا فيلدمان ايها العشيق ذو الوجه المزدوج ، الزوج الخائن . اواه يا كالويانيس أيها الغريب ناكر الجميل بلا قلب . القطارات تصفر الليلة . اناس كثيرون ، اعنى لاجئون . كنت تقولين ما دام قد رحل فالأخرج من ذلك بشىء . فلتعوضى كل ذلك بالنوم يا اناه . ولكن ولا هذا بممكن . عصافير الليل تزقزق سابحة فى ضياء القمر الفضية . وانت ترقدين من جديد فى فراش الحب وحيدة .

- ١٣ -

نصمت فى عناد . بقى قدر لا بأس به من الطريق للوصول الى الدير . الحر الشديد يثيرا أعصابنا . لا انا ولا هو يريد الشجار . بلغنا الى الحد الذى لو أن احدنا فتح فمه بكلمة ، لأعتبر ذلك تراجعاً واستسلاماً من جانبه .

بدأ الحديث قائلاً :

- هيه ، لو أن احد افراد الشرطة العسكرية رآنا فسوف يستوقفنا .

كانت قد القت به فى احضانى حفرة فى الطريق لم يفطن اليها السائق ، فصعدت الى أنفى من جديد رائحة جسده الغريبة التى تشبه رائحة طالب عطنة . تظاهرت بالضحك . وانا اكز على اسنانى . وسألته :

- لماذا ؟

- ضابط وجندى مشاة متعانقان . هل تتخيل ذلك ؟

لم أكن أجد ما أقوله ، حتى يتواصل بيننا الحديث . سئمت متابعة قمم الجبال العارية الى جوارنا ، متوجساً أن ينخلع حجر منها ، يهوى علينا ، ويسحقنا . انحدر التاكسى نازلاً المنحدر بلا انتباه . من حولنا الأرض جرداء . ولا أثر لنبت أخضر بأستثناء بعض الشجيرات ذات أشواك كبيرة مثل قنافد توحشت . وكلما انحدرنا ازدادت أنوفنا جفافاً من فرط الحرارة المتقدة . السائق صامت ، منفرد بالاعجاب بمهارته المشكوك فيها . وكلما

انحدرت كوفيته على حاجبيه مثل أكليل من الوبر ، أصلح من وضعها ، وفى المرآة راح يتابعنا بنظرات سريعة فاحصة . وكان يتعامل مع السيارة الفورد القديمة مثلما يتعامل مع جواد عربى فى خياله . يوقف السيارة بخشونة ، يضخ الوقود فى المحرك بلا حساب ويدور فى المنعطفات دورات حادة . والهاوية تحتنا تعج بالحصى والملح والحجارة بينما الحمام يطير فى فضاء الهاوية من سفح جبلنا الى السفح المقابل ثم يعود الى أعشاشه بين الصخور من جديد . وفجأة ، من نتوئين أصفرين بين الحجر الجيرى ناحية الشرق ، ظهر البحر الميت فى الأغوار السحيقة من تحتنا ، بزرقة تفوق التصديق ، مثل قاع بئر عميق مكسو ببلاطات من البورسلين . وعلى الشاطئ فى حجم علبة كبريت مخزن ضيق مستطيل ، تعلو مدخنته سحائب برتقالية متسخة ، وتحيطه كثبان من أتربة المعادن ، بعضها رمادية ، وبعضها وردية مخضبة بلمسات حمراء قانية ، والبعض الآخر بلون الثلج . تنبعث منها أبخرة فى ضياء الشمس ناصعة البياض .

نظرت الى سترتى غير المكوية . لم يكن لدى ما أقوله ، وبداخلى كنت أهمس لنفسى قائلاً « لا تستقطعه من حسابك . ما من أحد هو . وضمن كل ما يقوله رأس مقطوعة ثمة ما هو صواب »

– هل تعرف ما الذى يجعلك تثور عندما أتحدث اليك ؟ انه عدم اعتبارك اياى أهلاً للمنصب . أقصد ...

ابتدرته قائلاً :

– انى لا اكترث بذلك .

– وعدم اكتراثك هذا شيئ سيء ايضاً ايها المثقف المتعجرف ، ايها

البورجوازى الصغير . أعترف اننى فى اجتماع الشتاء لجأت الى بعض الحيل سببت لك حرجاً ولكن لماذا لم تتكلم انت عندما حان دورك للكلام ؟ انت تجيد الكلام ، وتعرف كيف ترتبه ، متحاشياً الكلمات الضخمة حتى يخيل للآخرين انهم توصلوا الى الافكار التى تريد أن تقولها وحدهم ، بدلاً من ذلك نهضت منصرفاً ، وأنت تعتقد ان الناس اقتنعت حتى بما لم تقله .

- حتى لو كنت تكلمت ، فلم يكن ذلك يغير من الأمر شيئاً .

- وكيف لك ان تعرف ذلك ؟ هذا يعنى انك تجاهلت الرفاق بزعم انهم لن يفهموك ابداً .

- لم يكن هناك وقت . كانت الشمس على وشك ان تشرق . كان يجدر ان يقاطعوك هم ، وانت تستنزف ثلاث ساعات طوال من وقتهم فى الحديث عن الوضع الدولى .

- كان بإمكانك ان تقاطعنى انت . ثم هل كنت تعتقد ان موضوعك اكثر الحاحاً على تفكيرهم من تحليل العمليات ؟ محاربون هم .

- يخيل لى انك تنحدر من ميغارا ، على ما أظن .

- تعنى اننى اتحدث مثل السفوسطائيين . مخطىء انت فى هذا أكبر الخطأ . فى الحالة التى وصلنا اليها سوف تضرنا أحاديث الصالونات المرهفة ابلغ الضرر ، سوف تمحونا من الوجود . بدلاً من أن تبدو فى دور أخيل غاضباً ...

- ها انت تتحدث الآن مثل المثقفين ...

- ياله من هوس ذلك الذى يستبد بك مستخفاً بكل ما أقول ! عليك ان تأكل الشيكولاته وليس الورق المفضض من حولها . هذا ما كانوا يقولونه لنا

فى معتقل أكرونافبليا . انت لم تتخل عن انتفاضتنا هذا حسن ، ولكنك ايضاً انسحبت ، ومضيت منفرداً .

– انك تفسر الأمور على ما يحلو لك . كنت اريد العودة الى اليونان . هل فهمت ؟

– هذا يعنى انك كنت تجرى وراء أوهام . على اى حال ، فقد رأيت بنفسك ماذا يفعل الفاشيون بنا فى الجيش . بالله ، خبرنى ، من كان سيعيدك الى هناك ، الاتراك أم الانجليز ؟ وكيف كنت ستدفع لهم أجرهم على ذلك ؟

– دعك من التأويلات . عندما ادركت ان الامر غير ممكن ، عدت .

– اول مرة اسمع فيها هذا ! كنت اعتقد انك جئت لتخبرنا عن مهمة النمساوى فى انقرة . علمت بخيانة طبرق . ربطت بين الأمرين ، وشعرت بالحرج . قلت لنفسك الأفضل ان أكون مع الكثرة من ان اكون بمفردى .

كان يتعمد الخلط بين الاشياء جميعاً . وكان يعرف جيداً اننى اتصلت مع خلية « المنتدى » منذ ليلة الخميس ، وذلك ما ان علمت بمهمة هانز ، اما سقوط طبرق فلم نعلم به الا يوم الاحد . ومنذ فجر الجمعة ، عندما قابلته ، كنت قد عدت مرتدياً سترتى العسكرية .. ولكن فى قرارة نفسى . لم اكن حتى انا اقول الحقيقة .

قال لى بعد برهة صمت :

– اسمع . لقد ارتكبنا جميعاً الخطأ بمجيئنا الى هنا . وقد كنت انت اقل خطأ فى ذلك ، لأننى كنت أعرف القرار من قبل : كان على الجميع عدم مغادرة اليونان ، وكان يجب ان تجرى المقاومة هناك . سوف نسأل عن

ذلك امام الشعب ، وسوف نلقى جزاءنا - لو كتب لنا البقاء . ومن الآن فصاعداً لن نقف مكتوفى الزراعين ، بل علينا ان نحارب !

كان غريباً ذلك الذى يحدث لهذا الرجل . عندما كان لا ينطق بعبارات مسابقة التجهيز ، كانت كلماته تكتسى حياة . ولن انسى ابداً الاجتماع المفاجىء الذى عقدناه ليلة الأحد ، فى غرفة الطبيبة ، تلك الغرفة ذات الحيز الصغير ، واقفين كى تتسع لنا . جلب اطلساً مدرسياً بسطه على السرير وبعبارة قصيرة ، كان كل شىء قد تقرر . لن نستسلم للألمان . سوف نستولى على كل وسائل المواصلات المتاحة ، والوقود ، وعلى الأغذية ، والاسلحة والذخائر . وسنتوجه الى دمشق وحمص ودير الزور ، حتى نبلغ الفرات وسنجتازه ، الى بغداد . ومن هناك سندخل رأساً إلى إيران . سنمضى الى حمدان ، رست ، بهلوى ، متجهين إلى باكو والاتحاد السوفيتى . ما من أحد قال « وكيف ذلك ؟ اننا لن نصل حتى إلى صحراء بالميرا ! واذا لم تسحقنا طائرات المطاردة ، فأننا سنموت من العطش ! » ولا قال أحد « فلننضم إلى صفوف المقاومة ، ان الجالية اليونانية سوف تؤمن جانبنا » كم شعرنا بقلوبنا تخفق وقد عاودها الأرتياح ، وعقولنا عامرة بافكار جديدة تقرقع مثلما رغيف العيش على نار الفرن . طلب البعض السماح بان يدخن . هل كانوا يريدون ان يحفروا هذه اللحظة فى ذاكرتهم ، أم انهم كانوا قد بدأوا يستشعرون الصعاب ؟ قال لهم « الرجل الصغير » «ما ان تخرجوا ، قضى الأمر » وعندئذ اشرأب النقيب بعنقه ، ونظر إلى من فوق رؤوس الحاضرين . نحن الضابطان الوحيدان فى هذا الاجتماع . قال لى « الصمود » واضاء وجهه ، فهمت ما كان يقصده ، ولم يكن يروق لى ذلك . كنا نأخذ المسألة على نحو رومانتيكى . منذ ان استولينا

على خمسة عشر مدفعاً رشاشاً استبد بنا ما يشبه نزوة الشعر . كان الامر مجرد شغف بالسلاح الآلى ولا شىء غير ذلك .

فى الصباح ذاته ، قلت له « مشروعك الذى قدمته بالأمس ، يبدوا لى محفوفاً بالمخاطر ، وغير قابل للتنفيذ » كنا نجلس فى محل البان فى بلدة يافا ، ونتساوم بلغة ركيكة مع سائق التاكسى كى يقلنا إلى دير القديس سابا ويعود بنا اليوم التالى . كان سيكلفنا ذلك مبلغاً كبيراً ، ولكن كان يجب اخفاء الارشيف فى مكان أمين . وقد أعلن « الرجل الصغير » أثناء الاجتماع انه سيتولى ذلك بنفسه . وبعد ان تخلصنا من كمية لا بأس بها من الاوراق ، كومنا الباقى فى حقيبة حملتها انا . أما « الرجل الصغير » فقد تولى حقيبة أخرى اثقل من التى معى . وعندما سألته عنها ، اجابنى « كن فى حالك » كما لو كان يريد ان يوهمنى بأنه إنما يحمل فى حقيبته تلك معلبات مختلسة لأطعام الرهبان .

وعندما فرغنا واستقر بنا الجلوس فى التاكسى ، وتحرك بنا قال لى :

– غير قابل للتنفيذ . هيه ؟ تقول ذلك وأنت الذى حاربت على الجبهة الالبانية . خل عنك يا صديقى لن يكون ثمة حاجة إلى ذلك . ان ارسالهم بهذه السرعة الكتيبة النيوزيلاندية إلى الجبهة يفيد انهم ينوون جدياً صد هجوم روميل . وفى اللحظة الراهنة ، فأن خيانة طبرق لا تبدو إلا على انها أميل إلى ان تكون مجرد انهيار محلى ، حادثة غير متوقعة . ان اولئك الجنود من جنوب افريقيا الذين وضعوا للدفاع عن طبرق ينحدرون عن « البوير » وهؤلاء فى أغلبهم ميالون للألمان . أى انهم فاشيون .

– وماذا عن مهمة بومبرتسبرج فى أنقرة ؟

– لا انكر انهم هكذا يتعاملون مع حالات الطوارىء ، سواء هنا أو هناك . عندما تعن بهم الحاجة يجذبون الخيوط اينما شاءوا . ولكن ما ان ذاع خبر طبرق ما عدت تسمع سوى « هذه خيانة » « لقد باعونا » وماذا كنت تريدنى أن أفعل ؟ كان يجب العثور توا على هدف ، تلتف حوله عقولنا ، فنعكف على تنظيم حركة باتجاهه ، وبغير ذلك ، هيه ، هيه ، هيه ... ان العواقب التى يسببها الذعر أشد ضرراً من كل ما يمكن ان تثيره أكثر العمليات جنوناً .

– أرى انك نابليون صغير .

– هيه ، لست نابليوناً ، ولكن عملنا نعرفه جيداً .

لم يعجبنى هذا القول . فكرت « اين تواضع المحارب ؟ » لم انبس بكلمة . ولكن حتى اهدىء من اعصابى مددت ساقى . ولا اعرف كيف بدرت منى ركلة للحقيبة التى كان قد وضعها بين قدميه .

ابتدرنى قائلاً :

– رفقاً ! ستبعث بنا الى الشيطان جميعاً . اننا نحمل أربعين حزمة من المفرقعات .

تجمدت فى مكانى وقلت لنفسى « ياله من مستهتر ! يتجول فى اورشليم محملاً بالديناميت ! سوف لا يبقى منا بقية . وبعد ذلك لا يفتح فمه طوال هذا الوقت بكلمة ! »

– إلى أين تذهب بهذه الاشياء ؟

– إلى حيث اذهب بالارشيف . لو أن اورشليم سقطت ، فسوف يكون شيئاً طيباً ان يكون لدينا هذا . سوف تقبلون يدى كى تحصلوا على قطعة

صغيرة منه فى حجم عقب سيجارة .

قلت له :

– على الاقل خذها على ركبتيك .

– الاترى ان الأرض خشبية تحت أقدامنا ؟ على شريطة ألا يقدم صاحبنا هذا فى المقدمة على اشعال سيجارة . أما أنت ، فقد اقلعت عن التدخين ، كما ارى ! كم اتوق إلى سيجارة منذ الصباح . هيه ، عندما قلت لكم يوم الأحد لا تدخنوا ... كنت قد وضعت هذه الاشياء تحت سرير الطبيبة .

ياله من وحش ! لو اننى قلت له « ألم تجد مكاناً أخر لتخبئها فيه ؟ أو « لماذا أخذتنا إلي هناك ؟ » كنت اعرف بما كان سيجيب . من كان هو ، فى النهاية ؟ انتهازى لا يعبأ بالمسئولية ، أم محارب محنك ، يحسب لكل موقف حسابه بجأش رابط ، ويَتخيَّر للالمان أكثر الوسائل ايقاعاً للخسائر بهم ؟ كيف كان يتوصل بهذه السرعة إلى اتخاذ قراره ، بلا معاناة أو تردد ؟ ان كلمة واحدة منه « نعم » أو « لا » كفيلة بارسال أناس كثيرين إلى الهلاك ! وأنا ، كيف حدث ان اتيت بمحض ارادتى اضع وجودى كله بين يديه ؟ فى اية لحظة من الجنون أو عدم الاكتراث كان ذلك ؟ على وجه التحديد متى ؟ كنت ابحث عن اجابة لكل هذا . وكان فكرى يعود إلى الوراء ، إلى حملة البانيا ، إلى الحرب الأهلية بأسبانيا ، إلى باريس واثينا ، إلى كارڤونيس وڤارناليس ، إلى مدرس الرياضيات الأحدب فى مدرسة انافريتا ، وإلى ابعد من ذلك ايضاً . من يدرى ، اكان مرجع ذلك كتاباً أم صديقاً أم مجرد جملة واحدة ربما غير مكرسة لما استهدف منها ؟ لا اعتقد فى شئ من ذلك . لقد وجدت نفسى داخل الحركة بمحض ارادتى ، مرتضياً أهدافها

ونظمها . هذا كان عالمى ، وحقيقتى . ومع ذلك فهذه اللحظة كنت أشعر بريتشاردز ونانسي وورن أكثر قرباً إلى من الرجل الصغير . هل انقطاعى عن الجيش طوال أربعة أشهر أفسدنى ؟ ليس الى هذا الحد ، ما دام لم تسول إلى نفسى ولا للحظة واحدة أن أحيا كفرد عادى . بل وحتى الآن الست من اعماقى أدين ريتشاردز الذى على الرغم من ارتباطه ببعض القيم الانسانية لا يأبه فى المقام الأول بالجهاد من أجل الدفاع عنها وصونها ؟ أما الرجل الصغير ، فهو على الأقل قد مضى يحارب بضرواة دفاعاً عن القيم . ويذود عنها بعزيمة من حديد ،، وينتشلها من كل غرق .

– عندما تقرر ان شيئا ما عادل ويجب أن يدخل إلى حيز التنفيذ فما من أمر يصدك عن ذلك . بل وتستخدم كل الوسائل حتى أقذرها .

استدرت نحوه ، وأنا اقول له هذه الكلمات . مط شفتيه بايماءة ازدراء وقال :

– ماذا تقصد بالاساليب القذرة . أن صالح الكفاح من أجل الغاية هو الذى يحدد فى النهاية ما هو قذر من الأساليب وماليس كذلك .

– وكيف نعرف ما هو فى صالح الكفاح ؟

اجاب :

– بالنظرية والنقد .

– فقط ؟ انت ، على سبيل المثال ، تبدى على الدوام شكوكاً فى كل ما أقول ، لأنه ينقصنى ، كما تدعى ، الحس التنظيمى ، كأنما ذلك الحس دم ازرق متوارث !

– الحس شىء ، والثقة شىء أخر . لقد تصديت للموضوع على نحو فيه

كثير من الخلط . اعطني بعض الامثلة .

كنت ادخر له بمثل من هذه الامثلة منذ الصيف الماضي . كتمته في صدري منذ ذلك الحين ، ولم اتطرق اليه في الحديث معه من قبل . ولكنه على أي حال يجثم على روحي . قلت له :

– اتذكر ذات امسية في مقهى بطولكاريم ؟ كنا ثلاثة أو اربعة . وقد سئمنا لعب الطاولة . ولا أعرف كيف ذكر احدنا بلزاك ، ووجدت نفسي احدثكم عن حياته ، وعن مشكلاته وعن احساسه بالتناقضات بين ايديولوجيه وصورة المجتمع كما بدت في أعماله . واذا بغاريلاس ، الذى كان مجرد عامل قرأ « الآب غوريو » و« أوجيني جارانديت » يعلق قائلاً ان هذا الكاتب ، ايما سنقوله عنه ، كان بورجوازيا ، مادام يملأ اعماله بالكونتيسات ورجال البنوك . وقد كان الموضوع مستأهلاً لمزيد من النقاش حتي نتوصل إلى وجوب ان نقرأ ونقدر الأعمال الادبية الجادة ، ونفهمها حق الفهم ، ولكنك قاطعتني . وبجهامة سفهت مما قاله غاريلاس « ما هذا الذى تقوله ، ياڤاسيلي ؟ ما ادراك انت ماذا يعني بلزاك ؟ ان بلزاك شيء كبير . انه واحد من افراد اسرة الارواح الوضيئة ... » إلى آخر مثل هذا الكلام .

– لا أفهمك . استأت لأنني وبخت ڤاسيلي على ما كان يقوله من سخافات .

– كان يقول ما امكنه ان يفهمه ، بينما أنت ، على ما كشف عنه الحديث . لم تقرأ شيئاً لبلزاك .

– هذه حكاية أخرى . ليس بأستطاعتي ان اقرأ كل شيء ! إنني أقف

مع كل من يفعل ذلك ، وأسانده .

– وذلك بأن تنتزع منه الكلمة ! انك لم تدافع عني . كنت فحسب تريد ان تضع « بصمتك » كما تقول عـادة . اترون هذا العلامة وكاتبه الكبير بلزاك ؟ انهما ينتميان إلى التراث الذى ترعاه مفاهمينا السياسية ، هذا ما كان يعنيه تدخلك فى الحديث .

كنت اتوقع ان يستثار بكلامى هذا ، ولكنه انخرط فى الضحك :

– أكان هذا كل ما فى الأمر ؟ أنت على الدوام تتوقف عند مسائل من هذا القبيل ، وتمضى تضخم منها . أن الأمر كما صورته تعتبر محقاً فيه من وجهة نظر المثقف الذى كنته ولا زلت .

– ما الذى تريد ان تقوله بأننى بقيت مثقفاً . ماذا تريدنى ان أكون ؟

– انساناً جديداً ، ياصديقى . ان المتناقضات بين البروليتاريا والمثقفين فى أطار الحركة عليك ان تنظر اليها ، ولكن بأعصاب باردة ، ومن منظور تاريخى وبصبر أيضاً تواجهها أنت وتتجاوزها . أما أنت فتختزنها وتجترها مثل جمل .

لا تدخل ابداً فى نقاش مع رجل سوقى . ان اسلحته سوف تكون على الدوام السباب وسوء النية .

بعد برهة صمت ، ابتدرنى قائلاً :

لم يكن للمثل الذى تحدثت عنه أية قيمة . تمسكت بأننى قليل الثقة فيك لأنك من أصول بورجوازية ، بينما كلامك ذاته اثبت انه لم يكن انت الذى هوجمت بل ذلك العامل . ولذلك فانني سوف الفت نظرك إلى شيء كى اجعلك تفهم إلى أى حد أنت قصير النظر . هل كنت اصطحبك معى اليوم

اذا لم أكن أثق فيك ؟ أثرت مشكلة كبيرة عندما أسررت اليك انه سوف يحتفظ أحد الرهبان بما أحمل معى .

– ولكن الامر ليس سيان ! ما هو الضمان الذى يوفره ، من فضلك ، رجل تقدمت به السن ، منقطع عن العالم ، منهك البدن من فرط الصوم والبخور ، ولا علم لأحد بالجرائم والآثام التى ترهق روحه كى يتركوه كعقاب فى هذا المكان المعزول التابع للبطريركية ؟

– ها أنت من جديد تبين كم أنت بعيد عنى ... اننى اعرف ثيوفيلوس منذ الطفولة . نحن من القرية ذاتها . اسمه بنديليس كوتسوبانيس ، وجريمته معروفة . فقد حملت شقيقته الصغرى منه سفاحاً ، فالقت بنفسها فى حفرة جيرية ، وقضى نحبها ! أما بانديليس فقد أختفى . كيف وصل إلى هذا المكان ؟ لم يقل ذلك لأحد . بعض ابناء قريتى من افراد الكتيبة رأوه عندما أتوا للعماد فى نهر الأردن . عرفهم بنفسه . هل تنسى ياصديقى ان هناك ما هو أقوى من الشهوات وعزة النفس ؟ أنها الايديولوجية .

– هناك رهبان حمر ، اذن .

– عن أى حمر تتكلم . لكأننا فى باريس ، ياهذا . الأرثونوكسية اليونانية هى ايديولوجية بانديليس .

لأول مرة ، انصرف فكرى إلى هذا الايمان . كى يبقى كل هذه الدهور ، عبر هذا الكم الهائل من التتضحيات والمطاردات لا بد انه لقى سنده من اناس ذوى ارواح قوية . صعدت إلى ذهنى شكوك مبهمة ، وربما حاولت طردها عنى لعدم رضائى عنها : ما الذى دعا « الرجل الصغير » إلى الثقة

فى راهب ؟ اكان يستغل « ايديولوجية » الراهب بواقعية ، أى بنفعية دون ايمان بها ، أم أنه ربما يتلمس متخبطاً الحل السليم للمطالبة بجبهة وطنية ؟ فى هذه اللحظة رأيته يخرج مسدساً ، ويضرب بقبضته ذراع السائق الذى كان على وشك أن يشعل سيجارة وضعها بين شفتيه « كلا ، كلا ، لا تدخين . هذا أمر لا شك فيه !» القى الآخر نظرة إلى المسدس ، ثم حول نظرته الينا . إبتسمنا له ، وكرر الرجل الصغير القول « كلا ، لا سجائر » هز السائق منكبيه ، وانشغل بعجلة القيادة . ثم بعد هنيهة نزع سيجارته ، ووضعها على أذنه تحت كوفيته .

قلت له :

– ها أنت دسست الفكرة فى ذهنه . قد يكون الأن خائفاً بعض الشىء . ولكن غداً سيغدر بنا .

– لا تشغل بالك . لابد انه قد اعتبرنا من أولئك الأغنياء الذين يحرمون على سائقهم ان يدخن فى حضرتهم .

وهل بالامكان ان تتحكم فى شخص مثل هذا ! لم يكن يكفى ذلك ، بل انه عاود تأنيبى ، فأنا فى اعتقاده قد انفصلت عن الشعب ، وما عدت أفهمه . ثم صوب الى قوله « غرامياتك فى البنسيون ادارت رأسك » .

– تتوهم انه ما كان يشغلنى سوى غرامياتى .

– فليكن ! رحت تلومنى لأننى وجهت ملاحظة صغيرة ، بينما فى الليلة ذاتها كنت تضاجع رابيسكو !

– من قال لك ذلك ؟

– خمن . انها من اتباعنا ، لو كنت تريد ان تعرف .

– من اتباعنا ؟ كيف تقول ذلك ايها الغبى ؟ انها كانت تعمل عاهرة فى باريس ، والآن تعمل ضمن ما تعمل عميلة للمخابرات البريطانية بالقطعة . انكم ستفسدون كل ذلك !

تأخر فى الرد على ، اذ انشغل بمتابعة كيف سيفلح السائق فى عبور الدرب الذى نمضى عليه .

بعد قليل قال :

– لا تعكر صفوك ، نحن نعرف عنها كل هذا ، ولكن ، ماذا فى ذلك ، لن نمنحها على ما تقول دبلوما . اننا نسمع فحسب ما تقوله لنا ، ونحكم عليه . وبالنسبة لماضيها . ما كان يجب وأنت الباريسى أن تكون متشدداً فى مثل هذه الأمور إلى هذا الحد .

– ولكن بحق الشيطان . هل قمتم بأستجوابها ؟

– وحدها قالت لنا عن كل شىء . سألناها عما إذا كانت تعرفك . وما كانت تنتظر أكثر من ذلك حتى تنفتح فى الكلام ، دبجت عنك الكثير . كانت مشغولة عليك ايضاً . فما كان يروق لها منك الاخذ والعطاء مع النمساوية .

– ما دمتم تجلسون لتسمعوا كلاماً نسائياً ، فمن الجلى اننا سنفلح كثيراً . الم يدر بخلدكم انها قد تكون مدسوسة علينا ؟ هذا غير مقبول بالمرة ! لقد وضعتمونى تحت رقابة مزدوجة : هى من الدور العلوى واليمنى من الدور السفلى !

– مراقبة ، هيه ، هيه . أنت تبالغ فيما تقول ... وبهذه المناسبة ، هل تعرف ان راشيل ماتت ؟ أخبرتنى الطبيبة بذلك .

لم أكن اتوقع ذلك . للحظة اعتقدت اننى أوجد من جديد بالحى

الألماني . امتلأت روحى بهموم يومية صغيرة ، لكننى مالبثت ان تذكرت ما كتبه اهرنبرج فى صحيفة الصباح . لا تزال سيباستبول تقاوم ، مقاومة تفوق الطاقة البشرية . لم تتوقف المدافع والطائرات عن قصفها بالقنابل . ليل نهار ثلاثة اسابيع طوال . انه الجحيم بعينيه . ولكن من حولها قلاع مالاكوف ، وبالاكلافا ، و كيرسون . كم ظلت صامدة على الدوام . « سيباستبول ! » يا للمسكينة راشيل .

– اراد زوجها ان يقتل البروفسور .

قلت محتجاً :

– ليس هذا صحيحاً بكل تأكيد . ليس هذا من طبعه . لو انك كنت تحدثنى عن روزا ...

– ومن روزا هذه ايضاً ؟

– شغالة فى منتصف العمر تعمل فى النزل . انها المرأة التى اوسعت ماكريديس ضرباً .

لم يكن يعرف هده القصة ، وشرعت ارويها له . رويداً رويداً أحسست بنوع من السأم أو الاشمئزاز يجتاحنى ، واختصرت الرواية . ومن أسئلته غير المباشرة فهمت انه يطالبنى ان أحكى تفاصيل مثيرة كى يتلذذ بها خياله . كان مثل حيوان برمائى قذر ، يشرئب خطمه فى شراهة خارج الماء الأسن . منذ بضعة أشهر مضت ، فأجأته فى خيمتى يلتهم بعينه صورة لفينوس الميديسية فى مجلة انجليزية . سألته بنية ان امنحها له « هل تعجبك ؟ » اجابنى « يبدولى ان هؤلاء القدامى كانوا اناساً على غاية من اللاأخلاقية ! » تذكرت بودلير ولويز فيلليديو « العاهرة بائعة جسدها لقاء

خمسة فرنكات » التى احمر وجهها خجلاً امام الروائع الخالدة من لوحات وتماثيل متحف اللوفر ، فراحت تحجب وجهها عنها ، وتجذب عشيقها من كمه ، متسائلة كيف يمكن ان تعرض مثل هذه الاعمال الخليعة على العامة ؟ مائة عام مضت عبثاً منذ ذلك الحين . والذى كان أكثر فداحة ايضاً انه فى وقتنا الحاضر يكون من المشروع ان بين يدي « الرجل الصغير » مصائر الانسانية» بينما لا يفعل اناس مثل نانسى وريتشاردز وورن هم بوابات لحياة روحية سوى احتساء الخمر وغياب العقل ، وانى لا أستاء من حطة ذوق رفيقى ، فأنا أعرف المسئول عن ذلك . وانما يملأنى رياؤه بالخوف منه . ترى الى أى حد تمكن العطن من هذا الرجل ؟ والى أى مدى كان موقعه فى الحركة مسئولاً عن « طرطوفيته » ؟ أحسست بأسئلته تتغلغل مثل أصابع قذرة وبجسارة متزايدة تنبش جرحى المفتوح .

سألنى :

– ومع النمساوية ، الم تفعل شيئاً ؟

– لا شىء .

– دعك من ذلك . لا تفشى المرأة اسرار زوجها اعتباطاً .

– قل انها شعرت بالميل نحوى ، وطلبت منى المشورة .

– بالطبع ، فأنت لديك الطلسم . مثل هذه الاعترافات تسمى اعترافات الفراش . اما العواطف والملاحظات فهذه للخداع فحسب . الغربيات كلهن أشبه بالحدائق العطشى .

وهنا امطرته وابلاً من الشتائم واللعنات ، منتقياً اكثرها تحقيراً واهانة . صمت حانقاً ، فلزمت الصمت بدورى . ومن حسن الحظ ،

انه لم يكـن عالمـاً بمـا حـدث ...

كان الطريق الان مليئاً بالمنحنيات . مثل أهلة متتابعة متلاصقة ، قال « نحن على وشك الوصول » ومن هذا عرفت انه استعاد هدوءه . وعندما رفعت من جديد عيني رأيت قلعتين على مشارف الوادى الضيق بين الجبلين مثل نقطتى مراقبة من القرون الوسطى .

قال لنا السائق ، وهو يطفىء المحرك ، وراسماً علامة الصليب :

– مار سابا

خرجنا ، وحمل كل منا حقيبته . نقدت السائق أجرته . وأشار الرجل الصغير بالايماءات الى السائق بالأنتظار حتى يفتحوا لنا . ثم ذهب يدق باب الدير . هب سرب كبير من الحمام من وراء الاسوار وقد ازعجه ما أحدثناه من جلبة . السكون مخيم على المكان ، وقد جعلت الحرارة الشديدة اللحظات تبدو وكأن لا نهاية لها . جاء السائق ، واشترك فى الطرق معنا على الباب . كنا حذرين ألا يشعل سيجارة . ثم سمعنا من يسحب ببطء القضبان التى أحكم بها اغلاق الباب ، ولكن كان علينا ان ندس من الكوة خطاب البطريرك بالتوصية ، ثم نعاود الانتظار . فتح لنا فى النهاية راهب طويل القامة ذو لحية بيضاء جعدة ، ممسكاً من قفاه حتى لا يفلت منه الى الطريق رجلاً أبله ضعيف البصر ، يرتدى سروالاً رمادياً مما يرتدى اثناء العمل . لم يعرنا الراهب أدنى اكتراث كيونانيين مثله ، وانصرف الى الحديث باللغة العربية مع السائق الذى راح يرفض ما يعرض عليه الراهب . تجرأت وتدخلت فى الحديث .

قال الراهب :

– أعرفه . انه مسيحي من دمشق . يرفض ان نستضيفه لأنه يقول اننا لن نقدم اليه سوى خبز الشعير وفلفلاً أخضر . يبدو انه فى عجلة من أمره ، ولا يريد البقاء .

رجاه الرجل الصغير ان يتأكد منه ما اذا كان يذكر مأمورية باكر .

– اذن ، ستبقيان معنا . هذا حسن جداً

ظل ممسكاً على الدوام من قفاه بهذا المخلوق الغريب ، الذى ساعده على اعادة تثبيت القضبان . ثم أشار لنا الراهب الى درجات السلم فبدأنا نتزلها . ومن طابق مفتوح الى طابق مفتوح أخر ومن سطح الى سطح ، ومن هوة الى هوة ، الى اعماق الوهدة ، حيث بؤرة القديس سابا : كنائس وابنية متسلقة متلاصقة ، مثل محار داخل الصخرة ، تارة إلى اعلى وتارة الى أسفل بلا أدنى انتظام ، ولكن على الأسطح نبات وشجر ، جلب الينا الراحة من وعثاء العالم المجدب الذى عانينا منه ساعات طوال .

قلت لرفيقى :

– يذكرنى هذا المكان بسانتورينى ، كما يذكرنى بعض الشيء بايكاريا .

قال الراهب :

– هيه ، الخشب اينما وجدناه نستخدم الزهرة ، ونطليه باللون الازرق ، اما الجير فلا نقتر فيه . يونانيون نحن ، كما تريان

وجدنا انفسنا بشرفة تحت ظلال دكناء كثيفة من شجرة تين عجوز وقد

طليت الاريكة وسور الشرفة المطلة على الجرف باللون الازرق . يذكرنى كل ذلك بأمر ما . هذه الشجرة ، وهذا اللون ، والعظمة فى زهدها ، يذكرنى كل هذا بمكان آخر نتنسم فيه انفاس بحر ايجيه الرحيب حيث تطل من ذلك المكان عليه .

قلت :

– كما لو كنا على سطح سفينة كبيرة ، تمخر بنا العباب . وقد سبق ان رأيت هذه الرحابة ذاتها بنواحى جبل آثوس المقدس ، الا ان الأمر يختلط على ، فلا اذكر على وجه التحديد أى دير هناك أهو دير ذيونيسيوس أم دير ذوكسياريون .

وفد صوت الراهب من ورائنا يقول :

– دير ذيونيسيوس . هذا ما يقوله الأخوة الثلاثة الذين جاءوا الينا فى قارب . سوف ارسل اليكما أحدهم ليؤنسكما .

قال الرجل الصغير متملقاً :

– لا نريد أن نثقل عليك ، يا صاحب القداسة . سبق ان جئت الى هنا واذكر الاماكن . سوف نذهب لنستريح ثم اصطحب سيدى الضابط الى نيافة رئيس الدير .

– حسناً ! فى هذه الحالة سوف ارسل اليك ايضاً مواطنك ثيوفيلوس الذى لم تكف عيناك بحثاً عنه !

ضاحكاً ، قادنا الى استراحة الزوار ، حيث تركنا ، رأينا الأبله يجرى وراءه ، حافى القدمين ، منكس الرأس كما لو كان من العبيد .

ابتدرني الرجل الصغير قائلاً :

– كن حذراً ، انهم على غاية من الدهاء . أقلل من كلامك . وهؤلاء الثلاثة لا تطمئن اليهم . من يدرى لو لم يكن الالمان قد بعثوا بهم الى هنا ؟

– ما هذا الذى تقوله . ألم تكن تحدثنى منذ قليل عن الارثونوكسية اليونانية ؟

– يختلف الأمر لو كنت تعرف أحداً منذ نعومة اظفاره .

– لنقل كما اعرفك انا .

– دعني وشأني . لعلك تبحث عن شجار ! تعال ، نرى كيف سوف نتدبر أمورنا لهذه الليلة . الغرفة عامرة بالبراغيت . لا بد انك الفت الرفاهية عند اليهودية على أغطيتها البيضاء .

– لعلك تقضى انت اوقاتاً سيئة على أغطية الطبيبة .

استدار وحدجنى بنظرة ، كما لو كنت جندياً خاطبت ضابطى بوقاحة ! القينا الحقائب عن كاهلينا ! وضعها بعناية فى ركن ، وراح يتحقق مما حوله . جالت انظاره فى ارجاء الغرفة تتفحص الحوائط والارائك ، وتمهلت عيناه على السقف . من عند المنتصف تدلى مصباح برونزى . كان علينا ان نخرج ما فى الحقيبة قبل أن يهبط علينا الليل ، ويأتون لأيقاد المصباح .

قال :

– ما عدت احتمل اكثر من ذلك . سأذهب خارجاً لادخن أول سيجارة لى اليوم .

ظللت وحيداً . بعد قليل ، سمعته يتحدث مع شخص ما وتوقعت ان يأتيا

معاً . ثم كفا عن الحديث ، شعرت بالسأم فخرجت . يجلس الصديقان على الاريكة الصغيرة بالشرفة ويتبادلان حديثاً هامساً والى جوارهما طبق به تين . كان ثيوفيلوس قصيراً نحيل القد . وخط المشيب شعره ، وعيناه واسعتان فى سواد الفحم ولولا الرداء المترب الذى كان يرتديه لأعتقدت انه فلاح أو راعى ماشية من نواحينا .

– كنت أطعم الحمام عندما رأيتكما تصلان ، ولهذا فقد جمعت بعض حبات التين كى اقوم بواجب الترحيب بكما .

دهشت ، فقلت :

– تين فى يونية . اليس هذا موعداً مبكراً ؟

– الا زلتم فى يونيه ؟ انت على حق ، ولكنها الايام الأخيرة من الشهر . انت تفهم اننا لازلنا نتبع التقويم القديم . وينضج التين عندنا سريعاً بسبب المويجات بين الصخور .

انتظر الرجل الصغير حتى يتم التعارف بيننا ثم عاود الحديث . اطلعه على الاوضاع العسكرية ، بل وأخبره ايضاً ان كتيبتنا الأولى قدمت طلباً بأرسالها الى الجبهة فوراً . لم يكن يبدو على ثيوفيلوس انه يفهم الشىء الكثير مما يقال له . كان يصغى ناظراً من سياج الشرفة الى الوادى المتحجر اسفل قدميه ، وصخور الجبال مثل عظام الاسماك تمتد بعيداً لتختفى فى ضباب الأفق .

قال متنهداً :

– فليساعدنا الله .

ثم التفت الى قائلا « الذى يصعب المسألة التى جئتم من أجلها ان الانظار كلها تسمرت هنا . بين لحظة وأخرى سيأتى اليكما راهب من جبل آثوس المقدس . الافضل ان تنزلا معه ، وتتركانى وحدى كى أدبر الأمر . ما أكثر المغارات هنا . لو اردتما أخفاء أحد من رجالكم استطيع أن اخفيه هنا ، سنة ، سنتين ... ما من مشكلة .

– لا تخرج الاوراق من كيسها الشمعى يا بنديليس . اتركها كما هى ، مقفلة بالخيط . علينا أن نعود ادراجنا بحقائبنا ملآنة . ضع فيها احجاراً ، أغصاناً ، أى شىء تجده .

غمز الراهب بعينيه ، وقال :

– أحسنت بتنبيهى الى ذلك .

– وسترينا المكان ، ربما ..

– خل عنك . ليست وفاتى وشيكة . مائة عام سأعانى ، هذا ما قاله لى القديس . عندما ستصل الى التعايش مع ذنوبك دون ان تتمرد عليك ، كما عشت انا بصحبة الاسد داخل المغارة ، لنر عندئذ ... وليس قبل ذلك .

– ربما ارسلنا اليك احداً غيرنا ليأخذها قل لنا كلمة سر .

– كلمة سر ؟ فكر معى . مارأيك فى قول لقديسنا الدمشقى : ترى أيكون المرء ملكاً أم جندياً ؟

– حسناً ! أيكون ملكاً أم جندياً .

قلت انا مكملاً :

- اين اباطيل العالم ؟ اين خيالات العابرين ؟

التفت الى الراهب قائلاً :

- ارى انك على معرفة بالكتب المقدسة . الا تبقى معنا كى يهدأ بالك ؟ يقول لى مواطنى الصغير هذا انك جبت العالم ... باريس ، سويسرا ، اسبانيا .. لماذا تجرى لا هنا ؟ هل ثمة من يطاردك ؟

كانت الطبيبة قد زودت رفيقى بمسحوق للقضاء على البراغيث ، استحضرته من كانتين الامريكان . وضعنا منه على جسمينا ، وعلى السجادة الصفراء ، وعلى الارائك . نثرنا من المسحوق على كل شيء فى المكان ، ورغم ذلك كنا لازلنا نشعر بالبراغيت تتقافز سراويلنا وان كان ذلك لم يمنع الرفيق ما ان يستلقى ويستغرق فى نوم ثقيل . كنا قد ارهقنا بطلوع ونزول السلالم وبتسلق المغارات . اغلقنا الباب واطفأنا المصباح الذى كانت تفوح منه رائحة كريهة من زيت محترق . وفى الظلمة امسكت نفسى عن الضحك ، وانا استرجع المشهد التالى : الرجل الصغير ، وهو دقيق ومنهجى فى كل أموره اراد أن يتأكد مما اذا كان ثيوفيلوس قد قام بمهمته على ما يرام . رفع حقيبة بين راحتيه ثم اسندها على ركبتيه . دس يده داخلها ، واخرج منها جمجمة ! وعظاماً ، وجماجم أخرى ، وحجارة .

- ملك ام جندى ؟ تبالك يا بنديلى ، لقد اتقنت مزحتك !

ضحكنا كثيراً ، ولكن ما لبث انتابه الهم . كيف سنستطيع ان نتخلص من هذه الأشياء بعد ذلك . فى الطريق ، هذا مستحيل ، سوف يرانا السائق فى اورشليم ؟ تباً لك يابنديلى . تناول الحقيبة الاخرى ، تلك التى كان بها

الارشيف ، كانت مملوءة بأوراق الشجر وبحبات من التين منتقاة .

– هيا ! وضعت الراهب فى جيبك ! انه طلسم الخفاش . كنت محقاً فيما أقوله عنك .

كان الآن يتعالى شخيره ، وتفوح منه رائحة العرق ، التى تشبه رائحة الطحالب العطنة . ولكن لم يكن ذلك ما يطرد النوم عن جفنى ، ولا كانت البراغيت هى السبب ، ست ليال نمت فيها اينما كان ، اعتدت على الحياة الشاقة . من جديد ، صوت رفيع ممتد يطن فى أذنى . بعوضة تنادى على أليفها يائسة . انزلت ساقى من على الفراش ، وعاودت الجلوس . سكت الصوت بعد هنيهة ، ثم عاد وان كان قد غير من طبقته . صفير ممزق لهدوء الليل فجأة فى مدينة من المدائن . ارهفت السمع . كان الصوت ينبعث من صدرى ، كنت ائن بهذا الصوت الغريب فكرت لو اننى دخنت سيجارة ، فسوف تهدىء اضطرابى وأنسى . نهضت افتش متخبطاً ، وعثرت على قميص رفيقى ، والتقطت منه علبتى السجائر والكبريت . اخذت حذائى وملابسى وارتديتها من جديد . وخرجت .

بالخارج كان المكان منيراً كما لو كنا فى وضح النهار . كان القمر فى اكتماله . تسمر بدراً فوق الجرف ، يغمر الارض بنور غامض سيال ، هبطت رطوبة الليل على كتفى مثل رصاص ثقيل . دلفت الى الغرفة ، وأخذت غطاءً تدثرت به ، وخرجت من جديد ، مغلقاً من ورائى الباب . اطللت ونظرت الى اسفل . كل شىء كان محاطاً بضباب مرتعش شفاف . اشجار السرو قاتمة السواد ، واشجار التين داكنة الخضرة . تبسط كلها ظلالها الزرقاء القوائم على الأبنية جيرية الطلاء ، والصخور المواجهة تشع بضياء فسفورية ، وفى وسط الفناء المرصوف بالبلاط بدت قبة القديس سابا

منبعجـة مثـل بطن بيضـاء . دق الجرس ، ومن داخل الكنيسة سمعت صلوات ، أما مغارة القديس يوحنا الدمشقى السوداء فكانت تتثاءب مغالبة النعـاس مثل حدقة العين فى جمجمة جرداء . كيف استسلمنا للتخثر والفناء؟

جلست على الاريكة فى الشرفة . كانت يداى ترتعشان ، ومن عينى تنهمر الدموع . أشعلت سيجارة ، وجذبت نفساً عميقاً . مرارة وعفن . وهناك بعيداً خلف اسوار الدير كم من صحارى بلون الرماد ؟ فجأة ، تصاعد من الوادى عواء . انه ابن أوى ، ضبع من الضباع . دقت ساعة معلنة الوقت رسمياً وببطء . وفى الكنيسة مضت الصلوات . ومن القمر الفضى تساقطت قطرات من الضوء البارد . عواء أخر ، تصاعد من أعماق الوادى . تمضى سيجارتى فى النفاد بسرعة . كنت ارتعش من البرد . ضبع ثالث بالقرب من القلعتين لا بد انه كان يحوم فى الطريق . هكذا كان النوم لا يطاوعنى منذ سنوات خلت ، أحصى ديكة آتيكى وهى تصيح فى الفجر قارس البرد . أمنا ، صغيرنا الكى . كيف يترابط كل شىء ، الماضى والحاضر ... ومن يدرى لو لم يكن فلوبير قد وضع قدميه فى هذه الانحاء ، وفى سهاده هنا أطفأ بدوره لفائفه منذ ما يقرب من تسعين عاماً مضت ! وقال نيكتاروس « ثعالب ؟ لم أسمع أحداً يتحدث عنها لكننى سأستفسر عن ذلك ، فهذا ممكن ... » وقد كان ضمن أولئك الذين وصلوا فى القارب الأحمر الصغير ، الراسى الأن ، هناك تحت على شاطىء أورشليم . ماعاد أحد يعرف أين يكون مقامه ، أو الى اين يكون ذهابه . العبودية فى كل مكان . وأردف نيكتاروس يقول « كنا فى خطر . ولقينا العذاب ثلاثة أشهر طوال » ثم اضاف « لكننى نسيت كل شىء عندما رأيت

جنودنا يكحتون بمطاويهم التراب من شقوق القارب ، يجمعونه فى راحتهم ويقبلونه »

سمعت خطوات حذاء ثقيل ورأيت ظلاً الى جانبى . كان الرجل الصغير . انحنى على الشرفة مطلاً على الهاوية من تحته ، وأفرغ فيها حقيبته . تكسرت العظام والجماجم على الصخور المدببة السابحة فى ضياء القمر .

– هل تريد حبة من التين ، يا صديقى العزيز ؟ أيقظتنى زغزغات البراغيت . يا الهى ، كم أحس أحشائى تتقلص من اكل الصيام الذى قدموه لنا .

بحث عن شىء أخر يقوله لى ، ولكن ثمة ما صده عن ذلك . قال :

– هل سمحت لى بحبة تين جافة ؟

إجبته :

– تفضل ! انه تينك انت .

لم يأخذ الا واحدة ، وترك لى اللفافة . تناولت تينة بدورى . ثم سحب علبة الكبريت من بين يدى . واشعل عوداً . فهمت انه يتفرس فى وجهى .

– ارق ، هيه !

– البراغيت . .

– البراغيت ، القمر ، الاشجان .. واشياء اخرى كثيرة . نسيت ان أقول لك اليوم شيئاً . تعرف اننا يجب ان نبقى ممسكين بحزم على خيط هذا النمساوى . ان المسألة تهم بصفة عامة ، الحركة فى كل العالم .

انتظرت كى ارى الى اين سينتهى .

- ما قولك ان تعود للاقامة فى البنسيون ؟

- مستحيل !

- على اى حال ، رتّب أمورك على ما تريد . يكفى ان تقابل زوجته بانتظام .

- اى اعمال تلك التى تريدنى ان أقوم بها ؟ مستحيل . هذا أمر غير مقبول .

- مهلك ، ايها الرفيق . مستحيل . غير مقبول . كلام كبير هذا الذى تتشدق به . ان الضرورات تفرض الواجبات وليس ما يحلو لأحد .

- وهذا الذى قمت به كان كثيراً ، خنت ثقة امرأة مرة واحدة قد يكون هذا مقبولاً ، ولكن ان اواصل ذلك على نحو مبرمج ، هذا لا يطاق . ابحثوا عن غيرى .

- ان تكون قد فعلت ذلك مرة واحدة ، يعنى انك فكرت فى الامر ووجدت ان ما ستفعله ضرورى . لست صبياً غريراً . الا اذا كان فى الأمر غير ذلك .

- ماذا تعنى ؟

- لست ادرى . انتم معشر المثقفين حساسون للغاية . مشاجرة صغيرة . خيانة ...

- فلتذهب الى الجحيم !

قلت ذلك بصوت لفرط شدته رددت الصخرة المقابلة صداه . ويبدو ان

اصواتنا بدأت تجتذب الضباع ، لأنها راحت تعوى الآن عواء جماعياً ، على مبعدة مائة وخمسين متراً تحتنا فى أعماق الوادى .

- الجو بارد . سأذهب للرقاد . مالم تكن بك رغبة فى صحبة ...

اجبته قائلاً :

- نوماً طيباً !

قذف سيجارته المشتعلة بسبابته الى حيث تصيح الضباع ، وانصرف دون ان ينبس بكلمة أخرى .

بعد قليل ، أشعلت سيجارة أخرى . كانت بدورها مرة . راشيل ، سيباستبول ! كيف حدث اقتراننا بالموت ؟ كيف يترابط الحاضر بالماضى ؟ من بين كل رجال الدنيا ، لم تجد سوى أدم ! لا بد أنه كان يلاحقها فى ظلام بستان البرتقال ، وكانت تخشى أن تبقى هناك وحدها . لماذا لم تقل لى ذلك ؟ نقطة ضعفها ! اكتشفتها الآن . وكم كان منفراً ذلك العطش الذى كان يقودها الى الانحلال ! فيما مضى اعتقدت ان الضعف هو الدعامة التى يقوم عليها حب حقيقى ، وانه النواة لمثل هذا الحب ، ولكننى الآن ما عدت احتمل . بداخلى رفض . احد الاسلاف يتعذب ويصرخ . يستعصى على الفهم ، يستعصى على الغفران ، يستعصى على النسيان .

لماذا قفزت من على السور ؟ لماذا اضطررت الى ارتداء الزى العسكرى ثانية فى الليلة ذاتها التى اتخذت فيها قرارى ؟ كان زجاج النافذة بحجرة نوم أماليتسا مفتوحاً لأول مرة ، وضوء المصباح الكهربائى ينسكب خارجاً ، فى الحديقة ويصل الى الحوض . أى شيطان كان يدفعنى ؟ ان

اعرف انه على مبعدة شارعين ، تنتظرنى الصحبة التى ستذهب بى الى الزيارة ، ومع ذلك اتلكأ متلصصاً كى ارى آدم يطارح أرمنية بدينة الهوى ، واذا به لا يطارحها هى الهوى ، بل ايمى ! ايمى كما لم اراها قط ، وكما لن اراها ابداً ! واقفة ، فى ابهى صورها متكئة باحدى ركبتيها على حافة السرير ، تجفف بمنشفة صغيرة العرق من على جسدها اللدن وعلى شفتيها الحمراوين ابتسامة غريبة ، تكاد تكون شيطانية ، وقد ثبتت عليه عينيها العسليتين التى اتسعت اتساعاً مضاعفاً . وهو آدم الاسطورى ، مستلق على ظهره مثل قربة كثيفة الشعر ، مترهل الثديين معوج الساقين على نحو بالغ الدمامة ، مطبق الجفنين تعلوهما البثور . خنزير كان بالانتظار. ما عدت أريد أن اتذكر ! لازلت غير قادر ان أصدق أن ذلك الابتذال الجسيم يمكن ان يحدث لجمالها . دنوت بلا انتباه من النافذة ، واسندت قبضتى على لوح الزجاج . وفى هذه اللحظة ارادت ان تلتقط انفاسها ، وازاحت بذراعها خصلات شعرها الكستنائى بلون النحاس ، ولحتنى . تلاقت نظرتنا كنت كلى اقف فى الضوء . تظاهرت بانها لم تتعرف على ، لم تبصرنى ، وانصرفت بمزيد من الهوى الى ممارسة ما تقوم به من عمل بشع . كيف تقبع الخنازير فى الاحشاء . كيف تنفخ الضباع فى فم الانسان زخمها المميت ....

— ١٤ —

تنساب أيام إيمى الآن مثل الماء ، خالية دون تغيير ، ولكن شيئاً ما هادئاً يضفى عليها شعوراً بالامتلاء . ينقصها القليل كى تصفها بالايام السعيدة . من قبل كان يسيطر عليها فى كل لحظة حبها لمانوس الذى يملؤها إنتعاشاً واضطراباً ، ولكنه خرج من حياتها دفعة واحدة . اذا مر من خيالها مجرد التفكير فيه تبعده برفق وهدوء مثلما تمنع فى حنان شخصاً من السير فى الوحل . دبرت حياتها الجديدة بعدما استنتجت إنها غير جديرة بحبه ، هى فى الواقع لا تفعل شيئاً . تدور فى الغرف ذات الاسقف العالية بالفيلا القديمة وهى تسحب فى خمول الخف الذى اهداه اياها « بينى » . تتكفىء فوق الاريكة اللينة ، ومن خلف المشربية ، تراقب ساعات وساعات دون ادنى تفكير أو قلق الحركة والغبار عند بوابة دمشق . واحيانا اخرى تراقب البستانى العجوز ، يكنس بمقشته المصنوعة من سعف النخيل ، طرقات الحديقة ينظفها من الاوراق الجافة والحشرات والاشواك ثم يجمع كل هذا فى أكوام ويحرقها .

تدخن سجائر معطرة ، تمضغ حلوى تحتوى على صنوبر ، تتمتم بأغانى قديمة من فيينا ، تطلى أظافر قدميها ويديها كل يوم بلون مختلف ، وعندما تصل روزا تكلفها بأعداد الحمام . تستمتع بالصابون تغطى به روزا جسمها ، وتدعكها ، ثم تحملها وتلقى بها على الاريكة الصلبة ، وتدلك جسمها ببطء ، فتشعر باللذة تسرى فيها .

حظرت على بينى الاستماع الى المذياع وقراءة الصحف ، فبأمكان الناس الانتحار او الرجوع الى صوابهم دون حاجة لمتابعة الاخبار فى قلق ، ولكن ذلك لم يمنع من وصول تلك الاخبار الى الفيلا ، حيث كانت تأتى بها روزا فتحكى لها عن التحركات بحانات حيفا نتيجة وصول اللاجئين الأوائل من مصر . إناس من كل الألوان ، رجال بسترات قطيفية مبدرين يتراقصون ، فتيات بأشاربات مزركشة وسراويل ضيقة ، عجائز يرتدين الفراء فى حر الصيف ويتحلين بقلائد من الزجاج الملون ، يشغلون من الصباح الى المساء موائد « الاسكا » و « أستوريا » معبئين الهواء بالادخنة ، وصيحات العجب وبالسخونة والقلق ، وبعد قليل تجدهم جميعاً فى القاعة الكبيرة بفندق كنج دافيد يخالطون كبار ضباط الحلفاء يحتسون الويسكى ويرقصون متعانقين . نساء ثريات يقبلن بسيارتهن الفارهة حيث يجلس العشيق مكان السائق . روابط غير شرعية قديمة تكتسب الشرعية ، بعض الذين تجمع الصداقة بينهم يتبادلون ، بصورة نهائية ورسمية الازواج والزوجات . والمنحرفون يقبلون منبهرين على ما اكتسبوه حديثا من حرية . لن يصدق احد على الاطلاق إن مثل أولئك البشر جادون فى تصفية حساباتهم مع هتلر . تصغى لها إيمى دون دهشة ، وعندما تفرغ روزا من تدليكها تلقى عليها قميص نوم تركى من التل فضفاض يصل حتى الخلف وبهذا الرداء الخفيف ، تعاود إيمى التجوال فى ارجاء البيت .

غاب بينى يومين بالقاهرة ولكنه عندما عاد لم يرجع الى الفيلا . قال لها إنه سيمكث بأستوريا وفقاً لأوامر واشنطن ، حتى يكون هناك الى جوار كبار الشخصيات . حاول أن يشرح لها إن الفيلا خاصة به وبزميل له وقد سأله عما اذا كان يمكنه الاستمرار فى الانتفاع بها ولكن إيمى رفضت

بشكل قاطع ذلك . فهى تريد حريتها وراحتها ، وهو نفسه يعرف إنه من المستحيل أن تسير بتلك الثياب الخفيفة فى وجود رجل غريب بالمنزل . تجهم بينى بالطبع . يستطيع المجىء حينما يرغب ولكن من الأفضل الا يأتى ليلاً فقد كانت تخشى فتح الباب وهى بمفردها فلا تدرى منذا الذى سيظهر لها . لا تريد رؤية العالم ولا ترغب فى الحركة . لقد ملت المطاعم ، ودور الخيالة والنزهات . ان روزا طاهية ممتازة . اما هى فمستعدة دائماً لاستقبال عشيقها ، ولكن ياعزيزى بينى من الافضل المطارحة بالصباح . تجهم ثانية . جاء اليها مرة أو مرتين يجلب معه روزا فى سيارته ويأخذها معه فى الإياب . يسأم تلك السخرة ولكن إيمى اقنعته بأنه على خطأ اذ لا يضر بسعادته ان يريح الخادمة .

بدا لها مضطرباً فى المرة الأخيرة . ربما يرسلونه ، كما إعترف لها ، الى طهران لمدة شهر . لم تعقب إيمى على ذلك . احتاج أن يسألها بوضوح عما ستفعل فى المستقبل .

«أوه اعتقد إن الأفضل أن أمكث هنا وأنتظر »

لم توضح ماذا ستنتظر ، ولكن كان من الواضح إنها تعنى عودة هانز . انهما لم يذكراه منذ رحيله ، ربما كان ذلك من قبيل الصدفة حيث لم تصل أية اخبار بشأنه ولذلك لم يتحدثا عنه . بدا قرارها معقولا لبينى . ان شهراً لا يعنى نهاية العالم . لن تسقط بهذه السرعة اسوار أورشليم حتى ولو إنقلبت الأوضاع رأساً على عقب . علاقتهما تشبه ناراً مشتعلة فى اوراق جافة . تنطفىء سريعاً لأنها لا تتغذى .

لا يزال خطر مجيئه ليلاً ، وهو سكران ، قائما ، وفجأة يجد أدم راقداً فى فراشها ، لذلك فهى توصد الأبواب جيداً . درست تصميم الفيلا ،

مقررة ان تخرجه اذا لزم الأمر ، من باب المخزن الذى يؤدى إلى أشجار التوت . ولذلك سوف تجعله يضع عند وصوله كل ثيابه وحذائه فوق كرسى .

يالها من قصة ... ذلك الصباح ، الذى خرجت فيه من منزله ، هرولت مثل لص ، فى شوارع الحى الألمانى كى تختبىء ويفقد آثارها ، لكنه أبلغها بمعرفته إنها تقيم عند فلدمان ، وهو يراقبها منذ عدة أيام دون ان تدرى . ولكن منذ الليلة الأولى التى غاب فيها بينى ها هو يظهر . يطرق الباب كأنه رب المنزل . لم تندهش كثيراً فقد كانت تراه طيلة اليوم من خلال المشربية يسير عند بوابة دمشق . حاولت إعادته لرشده . فالخطر يحيط بكليهما ، حيث إن الأمريكان يستخدمون المسدس لأتفه الامور تضمن الرد ايماءة ، غالباً ما تكون اباحية المضمون ، ودفعها للداخل .

عندئذ تفتق ذهنها عن شىء بدا لها ذكياً ، وسيجعله يتركها فى حالها ، على الأقل لبضعة أيام . ولكن دون جدوى . وفى الليلة التالية حضر ايضاً يرتدى ثيابه الرمادية ، وقح ، عنيد ، تفوح منه رائحة الفلتر الهندى الذى يستخدمه ويصيب المرء بالدوار . وهكذا فإن المنزل الذى إختارته كملجأ فى . لحظة رعب سرعان ما أصبح سجنها . وفى واقع الأمر ، أصبحت إيمى رهينة البيت ، وخاصة لآدم دون أن يكلفه ذلك شيئاً فحتى الإيجار كان يدفعه الامريكان بالسنة . كانت جارية لأحط أنواع الغرام الحسى ، واكتسبت دون ان تدرى عادات نساء أخريات أغلقت الأبواب عليهن فى أزمنة أخرى ، يعشن فقط بين الجدران فى انتظار الرجل ، عندما يمضى الليل وتحين ساعة وصوله ، كانت دقات خفيها على الأرض الرخامية فى البيت فسيح الارجاء تزداد قلقاً .

ذات صباح ، وهى تفتح الباب لروزا المرهقة ، قالت لها بصوت خافت :

– صباح الخير .

صاحت الخادمة ، وهى تضع سلة المشتريات الثقيلة على الأرض :

– ياه هل أصبت بالبرد ، ياقرة عينى ؟

إحمر وجه إيمى ، ثم ضحكت . أخذت بيد روزا وذهبتا للجلوس على اريكة فى القاعة الكبيرة . أشعلت سيجارة وجذبت نفساً عميقاً وعندما نفثت الدخان لمعت عيناها :

– منذ العاشرة مساءً حتى الفجر وانا أصرخ رغماً عنى ، إنه لا ينضب ! كل جسمى يؤلمنى .

قالت الأخرى .

– هل عاد ، وافرحتاه .

وهروت الى الداخل .

– إنه ليس ماثوس . لا تبحثى عنه .

– شاهدت السيد بينى فى الفندق .

– لم يكن بينى .

بدت روزا جادة على الفور .

قالت إيمى :

ليس بالاسطورة ما يقال عن النذير والانسحاق الكامل . يحدث ذلك عندما تتخطين حواجز الحياء . يكفى ان تعرفى كيف تستخدمين هذا جيداً .

واشارت الى جسمها .

– ما هذا الكلام ؟ انك تمرضيننى اليوم .

ازاحت ايمى الذراعين الممدودتين نحوها . كشفت عن رقبتها ، واشارت لها الى علامات زرقاء ، مثل اثار اصابع مطبقة على فقرات العنق .

صاحت روزا :

– ياله من وحش !

– فكى كماشة . ست او سبع ساعات ، لم يبعدهما عنى ، وانظرى

رفعت قميص نومها دفعة واحدة .

– ياللجسم المسكين . لقد إفترسه . إنه شيطان ، ياقرة عينى .

صرخت إيمى وقد انتصب جسدها :

– وانا شيطان ايضاً . كان هانز على حق عندما قال إننى احتفظ بالشيطان داخلى .

استغرقت فى التفكير ، وقد سرت فى قسمات وجهها رويداً رويداً سكينة . اخذت تداعب بأصبعها خصلة من شعرها ، وقالت :

– لماذا يسمى عشيقى أدم الخطيئة الأولى ، هل تفهميننى يا فراو روزا ؟ هنا عند أقدام الجلجثة . هذه هى الرسالة كلما تعمقت أكثر كلما إستمتعت أكثر .

– هل قلت أدم ؟

– نعم وهو يونانى بدوره . مولود هنا .

– يا المصيبة ، يا العار الذى حل علينا !

نهضت وصفعتها بيديها الخشنتين صفعتين .

تحسست إيمى وجنتيها فى صمت ، وسرعان ما أغرورقت عيناها بالدموع .

– بأى حق تضربيننى يا فراو روزا ؟

– أخ أيتها الكلبة المسعورة !

– إننى امنعك !

صفعتها صفعة أخرى أشد ، فنزفت من أنفها نقاط من الدم لوثت على الفور قميص النوم المصنوع من التل .

صاحت روزا فى فزع :

– إبنتى ، إستلقى خلفاً ولا تتحركى . هل لدينا خل ؟

لم تبكى إيمى مثل هذا البكاء منذ سنوات . وعندما توقف النزيف بفضل ما أستخدمته روزا من وصفات بلدية ، صرخت إيمى « ماما » « هانز » وعندما ارادت الخادمة أن تستكمل الحديث ، أشارت اليها إيمى على نحو آمر بالذهاب إلى المطبخ . ثم أغلقت عينيها واستسلمت لموجة جديدة من الصراخ والبكاء . ثم كفت عن ذلك ، وراحت فى النوم . رأت نفسها فى الحلم عارية ملقاة على شاطىء رماله تغرق . تريد ان تقاوم ولكن الالم سرى فى اللحم والعظام . بجوارها سلحفاة عجوز منكفئة على ظهرها تحرك أرجلها على نحو مثير للضحك . تشرئب بعنقها الجعد وتخرج رأسها القبيح من سنمها وتصيح فيها إقلبينى ، اقلبينى ! كان عليها أن تندس تحتها ،

وتحتضنها بذراعيها وفخذيها ، وتلتصق التصاقاً شديداً بالبطن العظمية حتى يخرجا معاً وينجوا من الرمال التى تبتلعهما .

عندما إستيقظت شاهدت روزا راكعة بجوار الأريكة ، تنظر لها وهى تكز على شفتيها .

– اعددت حوائجنا ، فلنرحل من هنا

– ارحلى انت يا فراو خلياسكا ، لا أحد يمنعك .

– فلنرحل . لا زالت غرفتك لم تؤجر بعد .

– لا أرى مبرراً لذلك ، إننى على أحسن حال هنا .

– إذن سأنتقل بدورى الى هنا ، سأنام هنا غير مهتمة بالقذارة التى ستحل بحياتى ، فقد عشت بما فيه الكفاية !

– لا احتاجك ، ولم أطلب منك ذلك قط .

– سوف اخبر السيد بينى بكل شىء !

– إسمعى يا فراو روزا ، لم إعين أحداً وصياً على حياتى . إذا لم ترحلى سوف أرحل أنا . بيته فى انتظارى . سأذهب للإقامة معه حتى أتخلص منكم جميعاً .

– فى بيته سوف يأويك ، أيتها المجنونة ؟ انه فى افضل فندق سيجعلك تقيمين حيث سيرسل اليك الزبائن .

– إنى أمنعك !

– امنعينى كما تريدين . إنه قواد من حيفا ، وسمعته معروفة حتى غزة!

وقالت إيمى بعد قليل :

– وهذا ايضاً لا يفزعنى . ربما يجب ان أجرب أقصى تحقير حتى أنقذ روحى .

– اجادة انت فيما تقولين ؟

– ولكن ، يا فراو روزا انك لا تدركين ... كيف أوضح لك ؟

يوماً ما كنت مجرد جسد ، مكبل بغرائزه . ولكن ها أنا الآن حرة . أذهب إلى الخطيئة بمشيئتى وعندما تحين الساعة سوف أرغب فى خلاصى .

قالت روزا وهى تهز رأسها :

– يا للخسارة أفقدك هذا المجرم صوابك . فلأقل انا لك ماذا فهمت . انها المرة الأولى التى تجدين رجلاً يشبعك الى حد التخمة . كنت معتادة على نصف وجبة ، وها انت عندما التقيت به تنسعرين .

انصرفت إيمى دون ان تعنى بالرد عليها ، واغلقت باب حجرتها وراءها . مرت على ذلك عدة ساعات . وعند الغروب احضرت روزا لها حساءً وضعته على منضدة خفيفة بجوارها . ثم ارتمت عند قدميها واحتضنتها . وقالت لها :

– سامحينى ، أسأت التصرف ، ضربتك كما لو كنت أضرب ابنتى . نسيت إنك سيدتى . سوف أطيع أوامرك ، وأفعل ما تقولين . لا تطردينى .

كانت إيمى قد هدأت ، ولكنها ايضاً كانت قد إتخذت القرار بأن تضع

حداً لهذا التبسط مع خادمتها . أنهضت روزا من على الارض وامرتها ان تعود الى عملها . وعندما عادت روزا بعد قليل تقول لها إن الحمام جاهز لم تستطع ان ترفض . فهى تحتاج إليه للتخلص مما كان لا زال عالقاً من تعب بجسدها ، حتى تكون نشيطة مليئة بالحيوية عندما يصل أدم . تنتظره اليوم بقلق متحفظ ، مجنون ، مثل المصارع المهزوم الذى ينتظر الجولة الثانية ، فهى التى طلبت عند الفجر أن يرحمها .

وصلت روزا فى اليوم التالى برفقة بينى من عند الباب أومأت لها بأنها ليست السبب فى مجيئه . هو الذى عنّ له أن يأتى ، ولكن العجيب ان إيمى إبتسمت بمكر وهى تقضم شفتها السفلى . وفى الخفاء ، ضربتها بكفها على ظهرها كأنها تشكرها .

ثم خطفت بينى من ذراعه وسحبته الى الحجرة . وأغلقت الباب .

انصرفت روزا الى الغسيل والطهى ، مسرورة تترنم بأغنية فى صوت خفيض وبعد حين تذكرتهما . ألن يتأخر النقيب هكذا عن الذهاب إلى مكتبه ؟ ذهبت تتصنت . فهمت . وضعت فحماً فى السخان . خرجت تبحث عن البستانى . وجدته . بعيداً ، يمسمر الواحاً خشبية فى حظيرة الدجاج . إين ينام ، هنا ؟ كلا ، فى بيته ، بالمدينة القديمة ، لماذا ؟ قالت له لا شىء وارسلته يحضر شمامة . عادت الى المطبخ . الحمام ملىء بالبخار ... لا صوت يبدو منهما . ولا نأمة الوقت يقترب من الغروب هل تعد لهما قهوة ؟

- روزا ، أعدى الحمام !

خرجت عارية فكل قمصان النوم فى الغسيل . عيناها تلمعان بسعادة

مجنونة ، بينما تلقى فى فخار برأسها للخلف .

اما بينى فلم تبدو منه بادرة صوت . وقبل ان تضع الصابون على جسمها لاحظت روزا علامات زرقاء جديدة على جسدها الجميل . لمستها بأصبعها .

– ألم يلاحظها ذلك الموجود بالداخل ؟

– نصيحة لك ياروزا كلما تحدثت أقل كلما تحسنت علاقتنا أكثر .

إنتهى الحمام دون كلمة أخرى . ثم أعدت روزا المائدة . حضرت إيمى إلى المطبخ ، حافية القدمين ، ولا تزال عارية ، وأخذت زجاجة الوسكى قالت لها روزا « سوف تصابين بالبرد »

إبتسمت . عند الساعة الثانية جلس الأمريكى بالفانلة وسروال اسود كثيف الشعر ، كما لو كان يرتدى جلد حيوان . يبدو أكثر شحوباً ولا يرفع نظره من على عشيقته . فى إنتظار كلمة منها . أما هى فقد لبست بلوزة عارية الكتفين . وشعرها مربوط للخلف وأرنبة انفها تهتز مثل خضم ارنب . أخذت الطبق من روزا وبدأت فى وضع الأكل ، إنها المرة الأولى التى تفعل ذلك . فهمت الخادمة انها لا تريدها ان تبقى عند المائدة ، فأنسحبت الى باب المطبخ ، ووقفت هناك فقد يحتاجان شيئاً . انحنى بينى على إيمى وأخذ يتشممها . سألته :

– ما رأيك ؟

– لم أعد اجدها تلك الرائحة التى كانت مثل رائحة المسك . غريب جداً هذا الأمر .

– مادمت قد اغتسلت ! هكذا تكون رائحتى عندما أفرز عرقاً . وانت

تعرف متى يكون ذلك .

- لا أعرف .

- كيف لا تعرف . لقد كنت تهتم بى كثيراً من قبل ، ياسيد ! أما انا فمن اللحظة الأولى أعرف متى تفوح منك رائحة مثل تلك التى تفوح من مزرعة ترويض للوحوش .

- لم تكونى على هذا النحو من قبل . هذه الحمية ، وهذه الصنعة لم تكونا فيك قط . هل قرأت شيئاً فى هذا الخصوص مؤخراً ؟

- اننى لا أقرأ ، وانت تعرف ذلك . لكننى اعملت فكرى كثيراً فى الأمر . طلب بينى نبيذاً أحمر مع اللحم الروزبيف والى ان فرغت روزا من فتح الزجاجة تبدد جزء من حديثهما .

- تعرفين ، ربما لن أذهب الى طهران .

قالت بلا مبالاة :

- آه ؟

- وقد مللت من الفندق . هنا أفضل .

- أذن سأرحل انا . ألا تفكر فيما سيقوله الناس ؟

- أى ناس ؟ أخبرتك ان الجميع مشغولون باللاجئين .

- وانت عندما أتيت للأقامة هنا لم يكن هناك ناس ؟

- حقاً ، انك لم تخبرينى بسبب تركك للبنسيون .

- اصبحت متعباً للغاية يا بينى ! قلت لك إننى لم أعد أحتمل صوت

فلدمان . أليس كذلك يا روزا ؟

– انها تكون مزعجة عندما يعيرها المرء التفاتاً ، ولكن بمرور الزمن يمكن الاعتياد عليها ، يا فراو إيمى .

– بمرور الزمن ! عموماً يا صغيرى بينى آمل ان تكثر من زياراتك .

– ماذا يعنى ذلك ...

أطلقت إيمى ضحكتها الحسية الغليظة فترددت مثل صيحات انتقامية . ألقى بينى نظرة جانبية الى روزا ولكنها تظاهرت بعدم الفهم .

سألها حتى يغير الموضوع .

– ما الاخبار من الحى الألمانى ؟

– حضر زوجان اسبانيان للاقامة عند فراو أناه . يبدو ان الزوج كان قنصلاً فى بلد ما ، قبل مجىء فرانكو ، اما فى الغرفة العلوية فيقيم شخص ايطالى قالت عنه للبعض إنه صحفى وللبعض الآخر إنه قاض ، ولكنه على أى حال عجوز طيب . أما فى غرفة فراو إيمى فتنام ربة المنزل . لا تؤجرها لأى شخص فهى ، تخاف كما تقول ، أن تحل اللعنة بالمنزل ، أما عندنا فلم يتغير شيئاً فالحارس قال إنه سيطردنا جميعاً حيث يبدو له ان الايجار الذى ندفعه زهيد .

أفتى بينى فى الامر قائلاً :

– يبدو انه يريد رشوة .

– بل يفعل ذلك لأن أندريانو هجرته وعندما صدته التشيكية ، لأن مواعيدهما لا تتفق يقال إن شخصاً ما ، ان لم يكن اندريانو فهى مس

باميلا – إتصلت تليفونياً بزوجته ، ومنذ ذلك الحين فهى لا تتركه يخرج ليلاً بالعربة الجيب .

سألت إيمى :

– ولماذا ساءت العلاقة مع اندريانو ؟

قال بينى ، بينما تحاول روزا الحزينة ان تومىء له بشىء ولكنه لا يفهم :

– اوه ، انها تسرىّ عن اليمنى الأن ، انا شاهدتهما يتهامسان فى كافتريا الاسكا .

انبرت روزا صائحة :

– هل علمتما أخر أخبار فراو أناه ؟ طلبت ان ندفع رسم المياه حسب عدد الأفراد . حتى الان كانت تدفع النصف ونحن الباقى ، مقسماً على اربعة أما الأن فهى ترفض حيث إننى ، كما تقول ، مع أولادى والعجوز نستهلك كمية أكبر من باقى عملائها . لحسن الحظ فأن مس باميلا ...

قاطعتها إيمى وهى تنظر اليها بنظرات خائفة :

– ماذا تخفيان عنى بخصوص راشيل ؟

قال بينى :

– أه ، الا تعلمين ؟

قضى الأمر ، اندلق نبيذها فوق غطاء المائدة النظيف . أسرعت روزا تقول :

– البركة فيك انت ، ياقرة عينى . لم ابلغك حتى لا تتكدري لكنك كنت تتوقعين ذلك ، يا عزيزتى . انت قلت لنا عن الاستاذ

راحت الاهداب الطويلة ترتعش فى الوجه العارى من المساحيق . القت برأسهـا الى الخلـف ، وهى تكز على فكيها . تبتلع فى بطء الكلمات والدموع .

ازاحت الطبق من امامها .

– النبيذ ، يا بينى ، الاترى ؟

تجرعت كأسها دفعة واحدة ، مدت يدها وطلبت المزيد . شربت ثانية وألقت بالكأس شبه المليء عند قدمى روزا ، على الرخام . أمسك بينى بيديها . وقالت بأحتقار :

– وهو الذى كان يريد الانتحار من أجلها ... سوف ينساك الجميع ايتها الصغيرة الجميلة راشيل . اتذكرين ياروزا كم كان لها جسم رائع . لم اشعر قط بالغيرة من إمرأة ولكننى لو كنت أملك مثله لما حجبته عن أحد . سوف كنت اهديه لكم جميعاً . تعالوا ايها الرجال لتسعدوا بالتحفة ، ولكنت طلبت ان تكتب المقالات فى متداح الخالق المبدع الذى لا مثيل له . يالها من نهاية ! لا شيء بى ، يا صغيرى بينى ، سوف أنهض وحدى .

ولكن روزا سارعت وحملتها بين ذراعيها كطفلة مريضة . وما ان خلعا ثيابها ، ووضعاها على السرير ، نامت .

وتمتمت روزا قائلة :

– بالطبع بعد كل هذا العناء .

وكانت تقصد عناء الليالى السابقة . انتظرت ان يفتح الضابط فمه بكلمة حتى تبصره بما حدث ، ولكن ذهنه كان مشغولا بشىء آخر ، فهناك بعض الشخصيات الهامة التى عليه ان يستقبلها عند الغروب

قالت له روزا :

– إذهب إذن . سوف أبقى هنا معها ، ربما تحتاجنى . وسأعود الى البيت بالأتوبيس مثلما يحدث كل الأيام . تتوقع أن تبقى وتنام هناك . سوف تتصل بسرامك حتى تعتنى بالعجوز والاولاد لليلة واحدة . سوف تجد وسيلة للتحدث مع آدم ستهدده أو تتوسل اليه تبعاً لما يستجد من أمور .

ولكن الشىء الأول الذى قالته إيمى عندما إستيقظت :

– أما زلت هنا ؟ إتركى الكواء . أكمليه غداً . ذهبت ووقفت أمام المرآة الكبيرة الباهته تتفحص علامة دائرية على فخذها ، فى فخر كأنها وسام .

سألت :

– أتترك القضمات أثاراً عند القمحاويات ؟

همت روزا أن تنصحها :

– ابنتى ...

– لا تنطقى كلمة أخرى . أسمعت ؟ إرحلى ! حتى لا يجدك هنا . إستقلى عربة أجرة فقد حل الظلام . هناك موقف لعربات الأجرة عند البوابة . أولادك جوعى الأن ، ألاتفكرين فيهم ؟

فتحت درج التواليت وأخرجت جنيهاً . طوته روزا ووضعته بين نهديها .

– أتلكأ عمداً فى الأنصراف لأننا لم نجلس بمفردنا اليوم . أردت أن

أخبرك أنني شاهدته .

ـ أدم ؟

ـ أوه ، فليذهب الى الجحيم ! شاهدت السيد مانوس .

– هذا كذب ! لماذا لم تخبريني عندما كنا بمفردنا فى الحمام ؟

– لأنك نهرتنى منذ البداية . كيف كنت أجروء على فتح فمى ؟

– هل تحدثت معه ؟

– لم أستطع ، كان فى حديقة لويزيذس ، كانت العتمة قد زحفت وكان جالساً مع ضباط آخرين يحتسون الخمر .

– كيف كان حاله ؟

– كان بالزى العسكرى ، زى الملازم وقد صّعب على هذا التعرف عليه . نظر الى ، ثم نظر ، وعندما هممت بالإقتراب منه ادار وجهه كأنه يقول لى انصرفى آلان ولا تبدى انك تعرفيننى . ولكن ما دمنا عرفنا المكان الذى يتردد عليه ...

– هل كان يرتدى القبعة العسكرية ؟

– لم يكن يرتديها ، بل كان يضعها على مقعد .

كانت إيمى تتأمل بأعجاب أثار عضدة اخرى تحت الأبط ، ذات لون كستنائى اصفر منطفىء .

– انى أمنعك من الحديث إليه ، أتسمعين ؟ وحتى لو سألك عنى قولى له إننى رحلت ، ذهبت إلى القاهرة . إننى جادة فيما أقول . ولو فعلت غير ذلك

فسوف أذهب إلى أدم على الفور .

وعندما سمعت صوت الباب يغلق خلف الخادمة ، تنفست الصعداء ، حسنا تظاهرت ، ولم تكتشف مبلغ اضطرابها . كان هوماتوس أذن ! ذلك الغريب الذى لاح برهة من خلف الزجاج ، العينان المندهشتان ، الفم المفتوح ، القبعة العسكرية ، اليد المطبقة . كان هو ، أما هى فقد راحت تصغى بداخلها الى الشيطان يقول لها مجرد عابر سبيل هذا ، إتركيه يطل ، اتركيه يذهل . ثم بالفرنسية يقول «كلما زاد الاغبياء كلما كان ذلك مدعاة للضحك » اين قرأت هذا ؟ اين سمعتهم يقولونه ؟ قضى الامر ! لا أمل بعد الأن ما دام قد عرف . ومادام لم يجرؤ على الأبانة عن نفسه ، فسوف تزيد جسدها ايلاماً هذه الليلة فى هذا الموضع ، وهذا الموضع ، وهذا الموضع ، حتى ينزف جسدها الماً ودماً . ذهبت الى المخزن حتى ترى ما إذا كانت روزا حركت الكرسى من مكانه . اتعطيه مفتاحاً ؟ أتقول له ، خذنى من هنا ، إذهب بى إلى حيفا كما كنت تقول ؟ أواه ، أجل . كم ليلة أخرى ، ثم يلقى بها سريعاً فى فندق تصطف فيه ببابها طوابير الرجال مثلما فى كانتين « النافى »

« مانوس » ، لماذا تتركنى ؟ » أقلت له ذلك أم إعتقدت انها قالته ؟ رون ونانسى متلاصقان فى حلبة الرقص ، أو تحت أشجار البرتقال . اخذا الجين معهما . عاد ذلك الغريب ثانية وراح يتحدث باليونانية ، محنياً عليه . نهض مانوس لأمر عاجل ، على حد قوله لها ، وسوف يرافقها الأخران فى العودة الى البنسيون ، لا تستطيع البقاء أكثر من ذلك كما أن النادى يجب أن يغلق أبوابه ، فالساعة تقترب من الثانية « مانوس لماذا تتركنى ؟ » أقالت له هذا أم إعتقدت ذلك ؟ يصفر لها أدم مثل ثعبان ، من خلف الاشجار .

حاولت الهروب من الناحية الأخرى للحديقة . فى الظلام ، جرت بغية الاختباء ، الصفارة تتبعها ، تجرى متخبطة ، فى كل مكان . تعثرت فى خندق . وطأت وحلاً وحشائش ، فقدت حذاءها من جديد . الصيحات تدوى وافدة من حلبة الرقص مثيرة ، صارخة ، مستفزة . انهم يرقصون الآن رقصات يونانية . وهنا لحق بها يلهث ، لم يعد يصفر . أمسك يدها وقادها ، تفوح منه رائحته . فى تلك الليلة المنعشة المليئة بالنجوم « حسناً ، ولكن ليس هنا . انى خائفة . إسبقنى وسوف اتبعك . هل تقيم بمفردك فى المنزل ؟ »

إنتظرها حيث كانت السيارات واقفة . ارغمها ان تدخل فى عربة سوداء مثل عربات الموتى . كانت ترتعش ، تنتظر ان يكتشف أمرهما بين لحظة وأخرى . فى النهاية أضحت ثيابها كلها غارقة فى عرقها . قال لها « كان هذا هو العربون » وسحبها خارجاً . سارا مخترقين أشجار البرتقال . وخرجا من باب لا يوصد .

- ١٥ -

حدثنى الرجل الصغير مرة أخرى عن بنسيون « الغراب » ، لكن هذه المرة ليبلغنى بالغاء إقتراحه حول إقامتى هناك من جديد ، وكان ذلك عن طريق رجلنا ، الذى على صلة برابسكو ، منذ علموا إن إيمى تقيم الأن فى سراى قديمة ، بجوار بوابة دمشق . ادركت أن بينى كورتمغر لازال يحفظ الوعد الذى أعطاه لهانز ، ولكن لم أقل شيئاً فقد كنت أحتفظ بذلك لنفسى . إستطرد الرجل الصغير قائلاً إن الخطة تغيرت الأن ، ولكن ليس كثيراً ، وذلك لأننى إذا ذهبت الى نزل الغراب فسوف يضاف الى عمل أخر . سوف أستانف تقريباً ، حياتى القديمة ، أى الخروج ليلاً فقط . وحتى « أملأ وقت فراغى » سيكلفوننى بتحرير « المقاتل » ذلك المنشور السرى الذى تناقشنا منذ شهور فى اصداره وكان يعوق تنفيذ ذلك «بضع مشاكل فنية» . سوف نتقابل كل ليلة لأسلم مواداً أو أتسلم موضوعات ، خطابات ، نشرات إعلامية ، شكاوى ، صحف للحلفاء ، وما يحصلون عليه من الأذاعة . كان يجب على ان أترجم كل ذلك وأنسقه واضعه فى صياغة ميسرة حتى يتسنىّ للناس فهمها وارفق بكل ذلك ما يمكن ان يسمى « مقالاً رئيسياً » تكون خطوطه العريضة مستمدة من خطاب صغير يبعث به . اما التعديل فى خططى فسوف يكون على ما يلى : مادمت لن اذهب لاقيم عند الغراب ، فأنى أستطيع الإقامة عند الطبيبة وقد كانت الآلة الكاتبة موجودة هناك على أى حال ، آلة صغيرة من طراز رمنجتون ، قديمة ولكن متينة تكبدوا فى النهاية مشقة كبيرة لينقلوها من مصر . ولما كان منزل الطبيبة لا يتسع لرجلين فقد كان لزاماً علىّ أن أتولى ، بجانب التحرير ، الكتابة على الآلة

الكاتبة ، أما آلة النسخ والورق فقد كانا موجودين فى مكان آخر ، ولم أسأل أين سوف أسلم المادة جاهزة للطبع الى حلقة الإتصال .

– ألن تراجعونها ؟

– كلا ، وما الحاجة الى الأخذ والعطاء والإتصالات الإضافية ، وذهنك متفتح وتكتب أفضل منا . ومادمت ستنفذ ما يرد فى الخطاب ، سيسير كل شيء منضبطاً مثل الساعة . رقونى مرة واحدة الى رئيس تحرير ، اصدر النشرة دونما رقابة ثقة كبيرة ، وقلت للرجل الصغير « هذه ثقة كبيرة » والمحت له بطريقة جانبية ان هذا ربما كان من قبيل التهور ، حيث أن أسهل شيء لمن كان فى مكانى أن يمرر فى النشرة أراء ملتوية وناهيك ما سيحتاجه الأمر ... بعد ذلك ..

– مهلك . اننا لم نقل ذلك ، فهناك من سيقرأ النشرة قبل التوزيع طلبت ان أعرف ذلك الشخص الذى لديه فى الواقع سلطة الاعتراض على عملى الفكرى . وبعد تردد صارحنى بأنه غاريلاس ، وتتخذ الاجراءات لألحاقه بحامية أورشليم .

– إذن ڤاسيلاكس هو الذى سوف ...

قاطعنى قائلاً :

– لن تكون هذه مهمته الوحيدة . سوف يتولى الطباعة والتجهيز . رجلان فقط لكل النواحى الفنية والتصحيح . سوف يسلمك البيانات وسوف تعطيه المادة . ما رأيك ؟

– وإذا ما إختلفنا فى شيء ؟

– لن تختلفا . ثم إنى سأحضر بإستمرار ، سوف نتقابل .

أراد أن يحملنى عملية الإتصال برابسكو ، ما دام لن يستطيع رجلنا التفاهم معها بلغتها الفرنسية ، ولكن ابلغته رفضى .

– ولكن يجب عليك أن تقابل النمساوية .

– قلت لكم إننى لا أستطيع .

جاءت اجابته قاطعة :

– عليك أن تستطيع !

– هل اذهب واطرق بابها ؟

– كلا ، ليس الى هذا الحد ! من الأفضل ان يتم اللقاء الأول بالمصادفة ففى أورشليم المقاهى والكافتريات ومحال الحلوى كلها فى شارع واحد . وسوف يصطدم كل منكما بالآخر عند نقطة هناك . لست بحاجة للإختباء . لا تقابل احَداً منا فحسب ، ماعدا غاريلاس ، وفى الظلام . يجب ان تختلط بالناس الآخرين . سوف تعرف منهم أخباراً ولا تنسى إنك دائما على قوة حامية القاهرة . سوف نحضر لك تصريح مرور حتى تكون دائماً فى أمان فيما إذا استوقفك شخص ، وفيما يتعلق بإجرك ...

– لدى بعض المدخرات فى الوقت الحاضر .

– حسناً سنتقابل اليوم مع غاريلاس عند الحى الروسى أمام المحاكم الساعة العاشرة والربع تماماً . هل بقى شئ أخر ؟ مع السلامة .

هم بالرحيل لكنه عاد ثانية . أمسك يدى وحدّق فى عينى :

– حيثما ستقيم لا تبدأ ثانية وسائل الأغراء . انها شخص جاد .

وددت أن أقول له ، بل من الأفضل أن تقول ان اهتمامك انت بها

اهتمام جاد . على اننى لم أكن على إستعداد للشجار الكلامى من جديد وربما أفلتت منى كلمة يشتم منها ما أعانى منه فى الاعماق .

تقيم الطبيبة على مبعدة كبيرة ، فى الطرف الشمالى من المدينة الجديدة عند بداية الطريق الجبلى المتعرج الذى يصعد فى هدوء هضبة سكوبور . وعلى تلك الهضبة كان قد نصب « تيتوس فلافيوس » معسكر قواته الرومانية . ومن هناك راح يراقب أورشليم المحاصرة التى تمزقها الإنقسامات والاحقاد ، ولكنها مع ذلك مضت تقاومه فى يأس . فما كان منه الا ان احرقها ، وهدم أسوارها ، ودمر معابدها وآثارها ، وقلبها رأساً على عقب ، وأما مواطنوها المنقسمون على أنفسهم المتعصبون ، بل وحتى المعتدلين منهم فقد ذبحهم أو باعهم عبيداً واليوم ، بنى اليهود هناك مستشفى هداسا والجامعة والمكتبة وفيما أظن مرصدهم ايضاً .

تقع الشقة التى تسكنها الطبيبة على سطح عمارة جديدة . غرفة نوم اثاثها بسيط ودولابها مبنى فى الحائط ، وقاعة صغيرة بها اريكة ومنضدة صغيرتان . المنضدة سوف اكتب عليها والاريكة لنومى . سوف تنام الطبيبة على سريرها فى غرفة النوم اما انا فلكى أمدد رجلى يجب أن الصق بالأريكة كرسى غرفة النوم الذى غالباً ما تضع عليه ملابسها الداخلية ، ولذلك فلا أجرؤ على طلبه . الحمام صغير وبجواره المطبخ . هذه هى الشقة . لوحات ، كتب ، أصص زهور ، فونوغراف ، ولا شىء غير ذلك ، ولا حتى مطفأة سجائر . كل شىء نظيف ، مطلى باللون الأبيض حتى التليفون الداخلى المتصل بالبوابة . لا رائحة ، فقط عندما تضرب الشمس المكان ظهراً تفوح رائحة من دورة المياه تشبه رائحة الصيدلية نتيجة لزجاجات المواد المطهرة المرصوصة فوق رفها الزجاجى . بنى العمارة ويدير شئونها

إتحاد تعاونى . وحارسها شخص يتمتع بالثقة المطلقة ، هذا ما قالته الطبيبة وأوضحت لى الصوت المميز الذى سأسمعه فى التليفون عندما تظهر حركة غريبة . أما أروع ما هناك فكان المخبأ فى المطبخ . كان من غير الممكن اكتشافه الا بالخيانة فحسب . جريناه ، يتسع للآلة الكاتبة والورق الذى لم يستعمل بعد ، وأية أوراق لن يتسع الوقت للتخلص منها . منذ إعطاء الحارس للعلامة المميزة حتى وصول المصعد الى السطح هناك متسع من الوقت للإختباء ، وخلع الثياب والحصول على دش . سوف أفتح الباب وأنا عار حتى تبدو الأمور أكثر واقعية . ياللعناية التى يؤدى بها هؤلاء القوم اعمالهم ، وكم هو شاسع الفرق بينهم وبيننا نحن المرتجلين .

الطبيبة إسمها نينا ، يهودية ، إيطالية من « توسكانى » بخصوص الأمر الأخير فإنه ، كما قالت لى ، يستطيع المرء أن يخمنه من لون شعرها الأشقر النارى الذى عرف به أهل فلورنسه . ولكنها فى صحة جيدة . شيئان يسيئان الى جمالها ، ساقاها مكتنزتان باللحم ، وكعباها نحيلان فتبدو الساق مثل قنينة نبيذ مقلوبة على حد قولها هى . وجنتاها تحتفظان بآثار من جدرى قديم ، ولكنك سرعان ما تنسى ذلك كله عندما تضىء الابتسامة على فمها الواسع ، فتلمع العينان باهتتا الصفار بلون رمادى قشيب . اما عن ساقيها فإنهما تتوازنان مع النهدين المنتصبين والارداف الرجالية . أستطيع ان ارفع صوتى بالحديث فى حرية اذ كانت نينا لا تكف عن استعمال الدش ليل نهار طالما كانت فى البيت ، حتى ولو لم يرن جرس التليفون . كانت ، تقول لى ذلك وهى تبتسم أو تجفف جسمها أمامى بلا ادنى تحفظ ، فهى على اى حال تقيم بمنزلها ! اما انا فلكى اكتم صوت

الماكينة كنت أضع وسادة صغيرة تحت الآلة الكاتبة عندما أعمل عليها فى الصالة .

لا أجرو على عمل شىء أخر سوى الشاى والقهوة ، ، فأوانيها تلمع من النظافة مثل أدوات الجراحة . أخشى الا أستطيع اعادتها الى لمعانها السابق رغم الدعك المتواصل . لذلك كنت آكل بالخارج ، مرة هنا ومرة هناك . لا تذوق نينا الخمر أو السجائر . أما انا فأدخن بشراهة لا ينقصنى سوى القراءة ولا أعنى الكتب ، لأننى أستطيع شراء أى كتاب بالإنجليزية أو الفرنسية ، ولكن أعنى كتاباً واحداً ، وهو الكتاب المقدس وقد كنت تركت نسختى بالمدينة مع ثيابى فى مغسلة حاجى فاسيلى . من السهل شراء نسخة أخرى ولكنى لا أتخذ القرار . هكذا كان حالى فى أثينا وباريس حيث كنت لا أقدم على ان اشترى من الكشك صحيفة من صحف المعارضة .

نينا طبيبة داخلية ، تأكل فى المستشفى ، ولكنها تبيت بالخارج . لا تطيق الاقامة فى العنبر مع الأخريات . هذا فضلاً عن إن إمتلاك شقة صغيرة هو بمثابة تفرد ذاتى ، فى خضم ازمة الإسكان المستحكمة حالياً بأورشليم . وهذا ما قالته بكل بساطة كما لو كانت تعرض حالة مرضية فى مجلس طبى . تفكيرها عملى يتسم بالوضوح ولديها معلومات كثيرة ، شاهدت بلداناً كثيرة ولكنها لم تنضج ولا أعرف السبب ، كنت أقول لنفسى إن روحها تشبه أطباقها : بيضاء ، ثابتة ، جافة ، بلا عمق . تستطيع الحديث لعدة ساعات عن الاختلافات بين مدرسة فيينا للتحليل النفسى والمدرسة الامريكية ، ولكن عندما طلبت منها ان تلقى قصيدة لدانتى بلهجتها التوسكانية الجميلة تلعثمت منذ السطر الأول . لا تعرف أبسط الأبيات التى يرددها كل حلاق فى فلورنسا منذ صباه . اما من الناحية السياسية فكانت

منضبطة تتبع الخط المرسوم ، دون قلق . تذكرنى بتجربة الديك الذى رسموا أمام أنفه خطا بالطباشير ، فصار يتبعه كالمخدر . كنت أحاول يوماً ما الكتابة فشرد ذهنى . خرجت من الحمام جففت جسمها ، وقبل ان ترتدى ثيابها انحنت فوق كتفى لترى ما افعل .

– ولكنها قصيدة !

فى النهاية أقنعتنى أن أترجمها لها

– ما عنوانها ؟

– حنين ، إشتياق ، لم أنته منها بعد .

– كتبت حوارك مع الموت ؟

إعتقدت انها فهمت ، فأنتابنى اضطراب .

– لماذا تقولين ذلك ؟

– سمعت فى الجامعة أن كل شاعر تأتى عليه ساعة يكتب فيها حواره هذا .

قلت نادماً على اننى قرأت لها ما كتبت

لا أعرف ما اذا كنت شاعراً . ما عادت تعجبنى ، فبعد الأبيات الأولى تبدو القصيدة كأنها تغرق فى سلة مخلفات عفا عليها الزمن .

التقيت فى ذات الليلة بغاريلاس . انتهى لقاؤنا فى وقت متأخر اذ كان يرغب فى الحديث . لم الحق بأخر أتوبيس ولم أجد سيارة أجرة فقطعت المسافة كلها مشياً على قدمى . ليلة جميلة ، نسمات وسحاب ، وقمر . قلت لنفسى إن نينا فى وردية بالمستشفى وسيمكننى لذلك ان استلقى على

سريرها لأريح عظامى ، ولكنها كانت هناك وأخذت الكرسى معها بالداخل . شعرت بشىء أشبه بالأحباط . من المستحيل النوم متكوراً أو ساقاى يتدليان ، فالأريكة صغيرة وضيقة .

عندما سمعتنى أدخل دورة المياه وأشعل النور صاحت :

– هل تريد الكرسى ؟

– اذا كان ممكناً .

– الم تدرك أننى أخذ الكرسى عن قصد حتى تأتى الى سريرى ؟ انه يسعنا ، كما تلاحظ . ومادمت تنام هنا فى غيابى فلا داعى لتغيير مكانك .

لم أعقب . ذهبت للصنبور وشربت الماء بكفى ، كنت ظمأناً جداً . ثم خلعت ثيابى فى الصالة وبقيت بالسروال ، وأطفأت النور . أفسحت نينا مكاناً لى وعندما إستلقيت على السرير أطفأت مصباحها . يدخل ضوء القمر من النافذة المفتوحة ترافقه أصوات متفرقة قادمة من الحى البعيد . جرس سيارة أسعاف يرن ، بينما يلهث المحرك صاعداً المنحدر . شخص ذاهب الى المدينة يدق الارض بحذائه العسكرى . تموء القطط وتلقى بصفائح القمامة . أجراس كنائس تتحاور بتركيز بينما أجراس أخرى ترد عليها بجدية . إعتقدت إننى أسمع عواء ابن آوى . ولو خرجت الى السطح سوف اشاهد البحر الميت الذى ينعكس على اديمه ضوء القمر ويحجبه عنى جبل الزيتون .

احملق فى السقف المنخفض بلا حراك .

– إذا كنت تشمئز منى اعطنى ظهرك ونم

شعرت بعقدة تشل لسانى ، لم أنطق . مدت يدها ولمست أطراف

أصابعها برفق شفتى المطبقتين ووجنتى الجافتين .

- ما هى كيفيسيا التى تذكرها فى القصيدة ؟

- مكان ولادتى .

- لذلك ترغب فى الوفاة هناك ؟

- هناك يقيم أقاربى ، عندى أمل فى ذلك ، على الأقل .

- بالضبط تريد العودة من حيث اتيت . الاترى ، كي لا تأمل ، ولا تحس ، ولا تشعر بالخوف .

- تعنين اننى أحن الى حيث ولدت .

- كلا ، بل ثمة شىء جرحك ، ولا تريد أن تحياه .

- الحرب ؟

- بالأكثر هناك امرأة .

لم اعقب .

- إمرأة من بلدى ؟

- كلا .

- يونانية ؟

- كلا .

- متزوجة ؟

- أجل

- إكانت تحبك ؟

- هيه ! تحب الرجال وخاصة جزءاً معيناً فيهم .

- لا تجرح نفسك أكثر من ذلك . لا جدوى . كل الأذواق موجودة فى الطبيعة . هل ضاجعتها ؟

- قط .

- وما عساك كنت تفعل لو أنها معك الآن ؟

لم أقل شيئاً . بعد قليل تحسست بأصابعها وجنتى . كانتا مبللتين .

- طابت ليلتك .

لا اعرف ماذا اصابنى . ربما كى ابدد غضبها أو أبرر موقفى . عندما أدارت لى ظهرها وشعرت بجسدها الى جوارى إستعدت النطق ورويت لها الحكاية دونما ذكر للأماكن والأسماء . شىء ما يقول لى لا تذكر لها آدم وأماليتسا . لأنها ربما استخرجت لك عقداً دفينة ، مثل عقدة أوديب أوما شاكل ذلك .

عندما فرغت قالت لى وظهرها بأتجاهى :

- انت السبب . لقد دفعتها إلى احضانه بأفعالك المهذبة . كانت على إستعداد لذلك دون تفكير أو ترو . الا تعلم إن قلق الحرب يثير حواسنا بصورة ضخمة ؟ تريد أن تأخذ وتعطى . المعركة الغرامية تهدىء من الأعصاب المتوترة ، تروض النفس الهائجة . لا يهم الكيفية وشخصية الآخر ، فالأمر أصبح متعلقاً بالناحية الصحية . حالتك طبعاً معقدة نظراً لوجود المثالية عندك وهو ما نطلق عليه الحب ، العاطفة . لا أفهم كيف حدث

ذلك فأنتما لم تعرفا بعضكما إلا قليلاً .

دعني أقول لك إنني لا أؤمن بالحب من أول نظرة . فربما أحببتم صورة ما موجودة في ذهنكم من الماضي . النتيجة إنك لم تعد نافعاً لها ويالها من خسارة .

أصبحت يسيطر عليك الشوق إلى الرحيل بمعنى الموت ، وهو ما يجب أن تنتبه اليه سريعاً . أما حالها فليس بأفضل . فتصرفاتها تقربها بشكل خطير من الإنحراف ، او السوداوية أو الهوس الديني ، فهي حالة تقليدية . حاول ان تضاجعها ولو لمرة واحدة ، وسوف تلاحظان النتيجة ربما تكون متاعبكما حالة عابرة . لا أدعي انكما تستطيعان العثور على ما يبحث عنه كل الأزواج في جهنم الحالية ، دون جدوى ، فذلك يعد بمثابة المعجزة . عموماً ليس من حقك أن تدمر نفسك عندما تكون الحركة في حاجة إليك . وما ذنبي أن تروي لي ذلك وتتركني بأعصاب متوترة ؟ طابت ليلتك .

وهكذا فرغت من الحديث . كل انسان يتأقلم داخل فلسفة عن الحياة :

هيومانية ريتشاردز ، توق الغراب الى الابهة ، التزام هانز ، مسيحية باميلا ، التعذيب الذاتي عند ثيوفيلوس ، فوضوية روزا ، عدم اعتراف نينا بقانون اخلاقي ... الكوميديا والدراما .

– هل أستطيع إشعال سيجارة ؟

– إنك تريد أن تأخذ الكرسي وتذهب إلى الاريكة . دعك من هذه الادعاءات ، واذهب .

– طاب مساؤك ، يانينا .

– طاب مساؤك ، حاول ان تنام

تحدد اللقاء التالى مع غاريلاس عند جهة المورستان الشرقية ، فى المدينة القديمة ، يوم الثلاثاء اخر يوم فى يونيو . كنت امضى الى هناك ولكن يقلقنى شىء ما ، أشبه بشعور مسبق . صدر العدد الأول من « المقاتل » المقال الرئيسى غطى الصفحة الأولى ٧٠٠ كلمة استطعنا فى العدد الثانى ، اجراء مزيد من الاختصار بصعوبة . ادرجنا فى هذا العدد الشكاوى ، والأخبار ، والشائعات والشعارات . الأن وأنا اتصفحه فى ذهنى ، لا يرضينى فهو غير جذاب حتى قبل التوزيع . لا تعجبنى النبرة المستخدمة فلا وجود لسخونة الحالة الطارئة ، الأزمة التى تميز الأحداث الأخيرة . بين لحظة وأخرى ننتظر سقوط الاسكندرية . فالاسطول أجلى عن الميناء . فى القاهرة القيادات العسكرية والسفارات تحرق وثائقها . أغرق الألمان ، خارج بورسعيد ، حاملة طائرات كانت تقل تسعمائة من العاملين بالبحرية الانجليزية كان يراد ترحيلهم من مصر . يصل اللاجئون الى فلسطين بكافة وسائل النقل . تعج المواصلات بأفراد متعبين ومترددين . من لا يجد وسيلة لكسب العيش ، يقيم فى معسكر للاجئين فى بيت لحم حيث البؤس والخراب . انها لمصيدة . سوف يعثر روميل عليهم مجتمعين هنا وهم مناهضو الفاشية فى الشرق الأوسط الذين لم يرتدوا الثياب الكاكى . أسبان ، إيطاليون ، بولنديون ، يوغسلاف ، البان ، ومواطنينا . هل راحت الكتيبة النيوزيلندية هباء أم إنها لم تشترك بعد فى المعركة ؟ عموماً فإن تحصينات مرسى مطروح كانت بمثابة الأسطورة . شىء مختلف عن خط ماجينو .

سرت في الجهة الغربية للمورستان[١] . محلات السوق الجديد تغلق ابوابها ومازال منها البعض مفتوحاً يغطى اضواءه ، فبالأمس كان القمر

بدراً ، الخيال الشعبى محتاج الى بعض الإثارة حتى يكسر الرتابة ، ويتخلص من الكابوس الجاثم فوق الصدور ، أسير فى الجهة الجنوبية وبعد مائتى خطوة أصعد للجهة الشرقية وأكاد الحق بموعدى مع غاريلاس . ماذا سيقول لى عن العدد الأول ؟ وصلت . وجدت حجر الرحى وكان من الجرانيت الأحمر مستنداً الى الجدار بجوار الباب الذى بلا ضلف والعتبة الزلقة ، بل ورأيت ذراع العربة فى ظلمة معصرة الزيتون . أما هو فلم يكن له وجود . هل أتوقف ام اواصل المسير ؟ كانت الحركة قليلة هنا . وكذلك كانت الأضاءة ، لأن الدير القبطى كان يلقى بجرمه الثقيل الظلمة على الدرب . تعثرت فى حاخام . شعرت بخصلات شعره رفيعة على وجهى . إعتذرت له ولكنه أخذ يصيح بى . توقف ثلاثة أعراب كانوا يتحدثون حديثاً مرحاً على مقربة عن حديثهم ، بانتظار ان يروا ما اذا كنت سأحتاج الى مساعدة . قررت الإنتظار . هنا أمام الدير سقط السيد المسيح للمرة الثالثة وهو ذاهب يحمل صليبه إلى الجلجثة . أخذت اضحك . قلت وأنا أتوجه فى خيالى بالحديث لنفسى « مانوس إنك تربط الإمور ببلاهة »

قال غاريلاس الواقف بجوارى :

– هل تتحدث الى نفسك الأن ؟

كان يرتدى هذه الليلة حذاء ذا نعل من الكريب ، ولذلك لم اسمع وقع اقدامه قادماً .

– هل ضللت طريقك فى الأزقة ، يا ڤاسيلى ؟

– لم أضل طريقى . لقد أخرتنى الصحيفة .

وأشار الى الحزمة التى يحملها وقد كانت تحتوى على ألفى نسخة

من « المقاتل »

– اين نذهب الأن ؟

– على مبعدة قليلة من هنا ، فى السوق القديم ، يوجد بقال من بلدتى سوف أترك عنده الحزمة ليحملوها غداً .

مررنا من أزقة لم تكن تتسع لكلينا معاً الا بصعوبة . الظلام الدامس يخيم على المكان بينما تفد منه رائحة ابصال مقلية وزخم بشرى ، وصوت مذياع غير مرئى يبث بجوارنا من القاهرة بعض الأغانى العاطفية المليئة بالنواح والشجن ، ومن خلف ابواب محلات العطارة المتأكل تفد رائحة حريفة من بهارات مخلطة تسد علينا الطريق ، ثم فجأة تلقى علينا التحية بالعربية ، بمودة أو ببعض السخرية . يقطع المذياع ارساله فجأة ، غارة جوية . تحلق القاذفات الالمانية فى سماء مصر .

– أهذا البقال من بلدنا ؟

– قلت لك انه من بلدتى .

تذكرت «الرجل الصغير» وابن بلدته ثيوفيلوس . ايكمن سر التضامن الاجتماعى هنا فى هذه الروابط المحلية ؟ إن الأمر على غاية من البساطة إذن . كانت أقامتى الطويلة خارج البلاد هى السبب الذى يدفعنى على الدوام ان اتطلب ضمانات ايديولوجية قبل أن أتبسط مع أحد ؟ ام ان السبب الذى يرغمنى على طلب الحصول على ضمانات أيديولوجية قبل التودد إلى أى إنسان – كما يقول «الرجل الصغير» – هو تحفظ المثقفين ؟ ولكن الم افعل المثل بالفطرة عندما طلبت المساعدة من حاجى ڤاسيلى ؟ على ان الامر يختلف ، ذلك ان تلك المساعدة التى طلبتها كانت مجرد خدمة

شخصية ليس من شأنها ان تعطى لغرض أعم من العلاقة الذاتية التى بيننا .

- وهل يعرف ماذا تعطيه لأخفائه ؟

- يعرف إن كل ما أفعله ليس للضرر .

- كيف يعرف ؟ وهل ذلك بكاف ؟

ولكن لم يسعفنى الوقت كى أسأل المزيد ، فقد كنا قد وصلنا إلى باب بضلفة واحدة ، ذى لون لبنى . الباب موارب ومن الفتحة يخرج الضوء خافتا الى الزقاق . روائح البقالة المعتادة ، صابون ، رنجة وكيروسين ، ذكرت غاريلاس ، الذى يدفعنى للدخول ، بالأوامر التى لدينا .

- لا عليك ، منذا الذى سيرانا . ان كل من يحضر إلى هنا يونانيون . إحترس من الإنجليز فحسب .

هل نسى اننا نحترس من اليونانيين ايضاً أم أن من مصلحته الآن أن يقول ذلك ؟

اضاف قائلاً :

- إجلس لنأكل لقمة ، لم أعد أستطيع مواصلة السير . أنهكنى الإنحناء على آلة النسخ .

كان المحل محلاً للبقالة ، وفى ذات الوقت مطعماً أيضاً . أرفف خالية ، وبضاعة قليلة . يقف ابن بلدة غاريلاس خلف البنك . أصلع الرأس ، فى الخمسين من عمره ، بدين ، بوجه ضاحك يذكرنى بالسيد « بابى » فى كيفسيا : « إمسك يا غلام كيس ورق لخدمة السيدة . أوخ ، عفواً لم ادرك

إنك تحركت الى الخلف » .

– مساء الخير يا جورجى . آراك وحيداً

وضع غاريلاس اللفافة على البنك فأخذها جورجى على الفور ، ووضعها اسفله . وغمس يديه فى برميل ، ثم غمسها ثانية . أخرجهما ونظفهما من آثار السلمون بمسحهما ببطء على ميدعته .

– أرى إنك لا تقول شيئاً .

– ماذا أقول ياسى ڤاسيلى ، سوف يصلون الى عندنا سريعاً .

التفت نحو غاريلاس وقال :

– اسمعت ؟ لا يمكنك ان تتصور مبلغ الضرر الذى يلحقه بنا النازحون من مصر . عمداً يبعث بهم الينا الطابور الخامس .

سألته :

– ولماذا الطابور الخامس ؟

– من لا يؤمن بالأنتصار من الطابور الخامس هو .

وها أنذا أمام شيء لم اكن أعرفه فيه : روحه القتالية . لم يكن موجوداً فى الأجتماع الذى تقرر فيه « الصمود » . ترى ماذا كان سيكون موقفه لو أنه حضر ؟ ربما إتفق مع « الرجل الصغير » فى قوله إن هذا هو الطريق الوحيد الذى بقى لنا لمواصلة النضال .

سألته :

– هل تؤمن بذلك ؟

– وأنت ؟

– أعتقد أننا سنخسر الحرب . لا تحتاج المسألة إلى فلسفة .

– ها ها ها ! حسناً يطلقون عليكم لقب المثقفين !

لقد بدونا اليوم بصورة سيئة . سحب غاريلاس منضدة حديدية ليضعها على الأرضية الأسمنت أسفل مصباح الكهرباء الباهت . أخذتها منه ، وحملتها بعيداً إلى اكثر الاركان ظلاماً ، خلف بعض الأجولة . أحضرنا مقعدين وأحضر جورجى دون سؤالنا زجاجة زبيب ، وزيتوناً ، وجبناً وسمكاً مملحاً . وبدلاً من الخبز أحضر كعكة بسمسم . كل شىء لذيذ والذها السمك المملح ... له مذاق خاص ... والشراب من الدرجة الأولى . المحل المعتم يتفق مع احاسيس البقال المكتئب ، ولكن جودة البضاعة تسطع على وجهه الوردى .

قال لى غاريلاس :

– تذكر جيداً ما سوف أقوله لك . تذكره جيداً حتى لا تنحرف عن المسار ابداً . سوف تُسْحَقُ الهتلرية . لا تتشدق لى بالمال ، والعتاد ، والحديد والنار ، وما شابه ذلك من السخافات . ان سخط الناس هو الذى سيقضى عليها قبل كل شىء . اننى لم أذهب إلى المانيا لأهدم منزل هتلر ، وأقتل زوجته ، وأجوع ابنه حتى الموت . ولكنّ هو هذا الداعر فعل كل ذلك .

وصاح جورجى :

– هذا الداعر ! هذا حق ! صحيح ما يقوله لك . أن أسرة زوجته تنحدر من نفس جزيرتنا « الونيسوس » هل سمعت بها ؟ أجل هى بنواحى «سكوبلوس» حضر هذا الرجل من ميناء « بيريه » وتزوجها ، وبعد مشقة

استطاعا ان يبنيا لهما حجرة ، ولكن قضى على كل شىء فى الغارة الكبيرة على الجزيرة . نجا الطفل بفضل معجزة من السيدة العذراء وارسله أبوه إلى أم زوجته ، وهناك مات الطفل المسكين ضمن من ماتوا فى المجاعة .

سمعت كوب غاريلاس يتراقص على المنضدة ، والشراب ينسكب منه . نظرت إليه ، فوجدته لا يحرك ساكناً ، تجمد فى مقعده ، يده فقط ترتعش ، وضعت يدى عليها ، فتوقفت عن الارتعاش . تركت يدى هناك برهة . سألنى :

– اليس لك أقارب هناك فى الوطن ؟

– أمى وأخى .

– لا يبدو عليك ذلك .

– لا أفهمك . وهل يبدو عليك أنت شىء من ذلك ؟

– لا أعنى ذلك . لا يبدو عليك إنك تريد أن ننتهى الحرب حتى تلحق بهم أحياء .

– دعك من هذا ايها العم ڤاسيلى . ماذا تريد منى ؟ أن أرسم ذلك على جبينى ؟

بدأ النقد دون ميعاد ومن زاوية غريبة .

– أنك تكتب وتكتب لتدفع اناسنا الى الاقتناع بوجوب ان يحاربوا .

– وماذا تريدنى ان أفعل غير ذلك ؟

– لا داعى لأن تقول لهم ذلك ، فهم يعرفونه جيداً . أما الذين بحاجة إلى أن تقول لهم ذلك فهم الضباط الفاشيون الذين يجثمون على انفاسنا .

ولكن هؤلاء لن يقرأوا ما تكتب . سوف يجدونك مملاً .

– أنا أيضاً من الضباط .

– تذكر انني قلت الفاشيين . ولكن بما انك تقول إننا سنخسر الحرب ، فأنت تحتاج إلى حقن مقوية . حاولت جاهداً ألا أقول لك ذلك .

خفض من صوته حتى لا يسمعنا جورجي رغم أن الرجل لا يبدو عليه إنه يتصنت علينا . إنه مشغول ببعض الأعمال . ويفرغ البرميل فى الزجاجات . إذن ، غاريلاس على حق . قلت لنفسى « أنظر هذا الرجل المنحدر من ميناء بيريه ، صانع الأوانى النحاسية يدرك أفضل منى ما يدور بداخلى ، أريد ان أموت ولكن لا أجرؤ على الحرب . هذا هو بيت القصيد ! إذا أخبرته عن أمورى فهل يستطيع ان يقدم لى نصيحة ؟ يمد إلى خيطاً يساعدنى على الخروج من المأزق ؟ شاهدته فى ليلة يسحب احدى المجندات من يدها ، وقد كان قد فقد زوجته فى الغارة الكبيرة على بيريه . أكان ذلك قد حدث له من زمن بعيد ؟ كيف يستطيع ان يرتب الأمور بداخله دون أن تقضى عليه ؟ »

وقال لى :

– ثمة شىء آخر ايضاً . لماذا تكتب دائماً وتقول « الشعب اليونانى » ؟ لماذا لا تقول ، ولو قليلاً « شعبنا » الذى لا يرضى الاستعباد ، الذى لا يموت ، كأنك ترتدى قفازاً وتخشى أن ألوث بيدى المتسخة .

– ولكن يا فاسيلى هذه مسألة منهج تعبير . انت تطلب أن تخاطب العواطف اكثر مما تخاطب المنطق . ليكن ذلك ، ولكن لا تنسى إن لدينا صفحتين فقط أى قرابة ١٢٠٠ كلمة شاملة العناوين والفراغات . وقد حاولت

أن أسرد فيها أحداثا وارقاماً كثيرة حتى يتسنى للناس أن يحصلوا على صورة للجبهات كلها .

– حسناً . يرون كل العالم ولا يرون وطنهم . ثم لماذا وضعت تلك الأنباء عن اليابان ؟ كان من الأفضل أن تذكر بدلاً من ذلك شيئاً عن شعبنا . كنت ذات مرة فى مطعم هناك ، وسمعت شخصاً من جزيرة إيكاروس يقول «أعرف حفرة بها بعض الاسماك الصغيرة » كان يجب أن تشاهدهم وهم يتنهدون معبرين عن أملهم أن يذهبوا لجزيرتهم ليصطادوا ، ولو مثل هذه الاسماك الصغيرة .

– كنت انتظر منك اشياء أخرى يا فاسيلاكى ، وها أنت توجه إلى انتقادات أدبية .

– ليس ثمة فرق بين أدب وسياسة ، الهدف فى الحالتين واحد ، وهو أن ننقض على العدو كعاصفة أو طوفان ، وننتصر . كيف أوضح لك ذلك ؟ ومادمت تنتظر منى أن أوضح لك امراً صعباً ، دعنى اسألك ما الذى تستهدفه مما تكتب ؟ سوف اشرح لك الأمر حسب أحساسى ، وعليك أنت أن تضع لما اقوله فى ذهنك الاطار الذى تراه . كانت لدينا فى بيتنا شجرة سنط ذات نتوءات واوراق صفراء ، وكانت هذه الأوراق تتساقط ما ان تهب الرياح ، فقد كانت الشجرة لا تروى بإنتظام . ضاعت هى الأخرى فى القصف الجوى . ولذلك ، كلما تخيلت ما الذى ستكون عليه الاحوال عند عودتنا تبادرت شجرة السنط الى ذهنى . أريد الغرفة ذات الحوائط غير المطلية ، والنوافذ التى لا تغلق خصاصها جيداً ، فيدخل منها برد الشتاء كالرصاص قارصاً وشجرة السنط . ها نحن الآن نتحدث عن صنع عالم أفضل دون مظالم أو استغلال .

فى هذه الحالة أنا « فاسيلى » ، لن أقيم فى منزل حقير ما دمنا سنلغى مثل تلك الاشياء ، وسنبنى عمارات للطبقة العاملة ، بها النور والمياه ووسائل الراحة . وشجرة السنط ؟ إنى لا أريد سواها . لا أريد أشجاراً ولكن هى أريدها هناك ، هى بنفسها . أريد أن أقول كيف تستطيع صنع عالم أفضل من السابق ويكون من جديد هو نفسه السابق ؟

- الا تلاحظ إنك تتعجل الأمور بعض الشىء ؟

- هذا محتمل . لم أحصل على كل ما حصلت عليه انت من تعليم ، ولكنى اعتقد اننى بنيت تصورى على مشكلة معاصرة . وانه لشىء آخر إلا أكون قادراً على ان أصفه لك .

قلت له :

- اسمع . شجرة السنط تمثل حنينك الى الماضى ولكنك لا تحن قطعاً الى المنزل الحقير والحياة القاسية ، والى القذارة والبرد بل تحن إلى العلاقات الانسانية التى نشأت هناك ، فى المنزل المتواضع ، تحن إلى حب زوجتك وبراءة طفلك ، إلى تقدير جيرانك . هذا ما ترمز اليه بداخلك شجرة السنط ، وعندما تحين ساعة الانتصار ، فبالتأكيد سوف تكون قد تغيرت . سوف تفتح أفاقاً جديدة للعلاقات الانسانية ، ولا أعنى إنك ستنسى زوجتك وابنك . ويجب ان اكون فى هذا واضحاً . فاذا كانت ذكراهم اليوم هى التى تجعلك على استعداد لحمل مدفع رشاش للقضاء على كتيبة فاشية بأكملها ، فان هذه الذكرى ، عندما يجىء الانتصار ستظل حلوة ودافئة . ستفتح قلبك ليتسع لكثيرين ، ربما لأمرأة أخرى ، ولطفل آخر ، بل ولبيت آخر يكون أكثر متانة وأكثر صحية .

– هل تعتقد ذلك ؟ على أن أفكر فى الأمر . يخيل الى أنك على حق .

– انك على النحو الذى شرحت لى ، ساعدتنى على العثور على التفسير المنشود . لقد فهمت الموضوع . أعنى اننا معاً توصلنا إلى المعنى ، وليس مثلما تفعل بعض الرؤوس المقطوعة ... إنتظر أيها الصديق ! لا أريدك أن تقول لى من تقصد بالرأس المقطوع . وإذا كان هو من أفكر فيه فأننى أقول لك بصراحة أنك مخطىء ، فميزاته لا تتوافر لأى منا .

– بمعنى ؟

– الصمود ، مثلاً فعند الشدائد يعرف الانسان ، إذا فقد المرء توازنه وهدوءه وانهار أمام المحنة ، فهو لا نفع منه ، وقل عليه السلام . اما ذاك الذى تومىء اليه فهو على العكس يصمد ويمضى قدماً فى طريق البناء .

كان على حق فيما قال . ادركت انه يلقننى بطريقة غير مباشرة درساً ، حيث اننى خررت على ركبتى وركعت عند أول محنة حلت بى ، ولكن الذى يستثيرنى ان يكون ما قاله لى بإيعاز من الرجل الصغير ، دون ان يبصر عناده ، واصراره على عدم الاعتراف بخطئه قط . الم يلاحظ حيله ومكائده؟

لم يتسع لى الوقت لأتكلم فقد إنزلق من الباب الموارب رجل قصير ، بدين ، يرتدى ثياباً رمادية . انه أدم ! تسلل مثل القطط إلى البنك ، وقال شيئاً لجورجى الذى لم يكلف نفسه حتى النظر اليه . أتجه أدم نحونا منتظراً أية إشارة حتى يلتصق بنا .

انتهره جورجى قائلاً على نحو مباغت :

– ماذا أفعل لك ؟ أذهب إلى الشارع . لن يراك أحد فى مثل هذه

الساعة .

تظاهر أدم بأنه لم يسمع . أما نحن فقد صمتنا . انسحب وخرج .

طلب غاريلاس طبقاً آخر . قلت له :

- لا داعى لذلك . سننصرف

- من الآن ؟ إجلس قليلاً ، أين ستذهب وتغلق الباب على نفسك ؟ هل لديك يا جورجى مزه لذيذة مثل السمك المملح ؟

أقبل جورجى وقد أعد طبقاً من السجق جافاً ومقطعاً إلى قطع جد صغيرة ، ومرشوشا عليه كثير من الفلفل. كما أحضر زبيباً أيضاً كى نشرب . أطل ناحية الباب ، وقال لنا :

- احترسا منه ، فهو قواد .

- مخبر أمن ؟

- كلا ، قواد نساء .

قال غاريلاس مادا ساقيه :

- أه ، حسنا اذن .

قلت لجورجى :

- ابقه بعيداً عنا . نريد ان نتحدث قليلاً .

قال غاريلاس :

- ما الذى يجعلك تريد ذلك الآن ؟ اتركه يأتى حتى نمزح قليلاً .

- ارجوك !

ذات ليلة لم اكن مرتبطاً فيها بموعد . مللت التردد بين استوريا والاسكا جيئة وذهابا ، فدخلت محل البقالة الكبير المملوك للويزيذيس كى اشترى بعض الشطائر ... وهنك التقيت لقاء لم أكن فى استطاعتى الفكاك منه بماكريذيس ، من قوة الحامية ، والرائد سبيرو . كانا يتحدثان عن شخص يعرض عليهما على الدوام نساء بدينات فى منتصف العمر . بل انهما أشارا إلى روزا التى دخلت مصادفة لتشترى بعض الحاجيات وقال أحدهما للآخر : « انظر هذا هو القوام » واشارا الى ان هذا الشخص الذى يتحدثان عنه سوف يحضر لهما بعد قليل صنفاً ممتازا ، وانه قال لهما هذا الصنف بالفرن الآن . وهى أجمل امرأة فى أورشليم كلها . وكان سبيرو قد لمحها فى استوريا منذ بضعة أيام . لم أعر الأمر التفاتاً لأن بالى كان منصرفاً إلى روزا خشية ان تتجه ناحيتى ، وتتحدث الى امامهما . وهكذا ، وقد علمت ماهى الاعمال التى يقوم بها آدم ، فهمت ايضاً من هى المرأة التى كان يعدها لهما . دوى الطنين فى أذنى .

قلت لغاريلاس بصوت خفيض :

هل تحمل معك سلاحاً ؟

– احمل مطواة من دمشق .

– اعطنى اياها ، يا فاسيلى .

– لم أفقد صوابى بعد ! وأنت من أين تعرفه ؟

– أريدها يا أبله للسمك المقطوعة ، فبالأمس الأول رجعت إلى البيت سيراً على قدمى .

– لا أصدق إنك تخاف منه هل تعرفه ؟

- كلا ، أقول لك .

دخل آدم ثانية ، ويدأ يتلكأ امام أجولة الحمص والعدس الموجودة بالقرب منا . يأخذ بعض الحبات ويلقيها فى فمه ، الى ان إنتهى به المطاف عند « البنك » . صب له جورجى قدحاً من النبيذ فتجرعه . ثم إنحنى ويدأ يهمس ثانية . يتحدث غاريلاس فى الوقت ذاته فلا أستطيع التقاط كلمة مما يقوله لا هذا ولا ذاك .

صاح جورجى :

- يا أخى ، أنى أعرفك مثل العملة المزيفة ، قل هذا لحميك الذى هو دقة قديمة .

- إنهن يطلبن ذلك بأنفسهن ، أقول لك . وعندما يتملكنى التعب من الحاحهن أبيعهن فهل ذنبى إنهن يطلبنه ؟ إذا لم تكن تصدقنى فلنحتكم إلى ابنى بلدك الجالسين هناك .

امسكت غاريلاس بشدة ، وكان يتحرق شوقاً ان يشترك فى الحديث معهما ، ومن فرط ضغطى عليه ادرك اننى لا امزح فيما اطلبه منه .

وقال له جورجى :

- دع ابنى بلدى فى حالهما ، فهما ليسا من الصنف الذى تعرفه .

يحاول آدم جاهداً أن يتبين وجهينا ونحن نتظاهر بعدم الالتفات اليه متبادلين الأنخاب . حاولنا معاودة الحديث من جديد عن «المقاتل» ولكننا لم نفلح ، فقد كان ذهنانا متجهين إلى ما يقال عند البنك . صاح جورجى مرة أخرى :

– ابعد عنى يا أخى ! أهذا معقول . مثل كرباج انت . خذ نصف أقة من حبل الغسيل – بل كلا لن أعطيك هذا – فأنت لن تدفع لى شيئاً . لديك حزاماً ملفوفاً حول وسطك . اذهب اذن ، واشبعها به ضرباً . ما دامت هى تريد ذلك .

شعرت إن خلطاً ما يحدث ، اعتقدت إنهما يتحدثان عن إيمى . إننى أربط بين الأمور فى بلاهة ، فهى فى حماية بينى الأن لحسن الحظ !

الهذا الحد إلتبس على الأمر ؟ ألم اشاهدها وهى تركع على سرير أمالتسا وتسجد كالمجنونة مرتضية إباحية هذا الحيوان ؟ هل كان هذا أيضاً خلطاً ؟ ألم تعترف هى نفسها بشهوتها ، ألم تطلب هذه التى تتحلى بالروح الشاعرية ، والتى تغوص فى مياه إحلام هايدرلين – الم تطلب مساعدتى لأطفاء شهواتها ؟ عمن ابحث إذن لأخدعه بشكوكى ؟ هل كنت جباناً أم إننى ، ببساطة واقعى ؟ ماذا يطردنى ، يسحبنى خارجاً من محل البقالة وكابوسه ؟ الواجب ، التفكير فى وجوب عدم التورط ، وانا جندى ، فى فضائح إمرأة فاسقة من فيينا ، أم انها كرامتى كرجل هى التى جرحت لتفضيلها آدم على ؟

لماذا لا أدعوه للجلوس معنا ؟ سوف يتضح كل شىء فى كلمتين . ولكننى كنت أخشى الحقيقة . وأفضل عليها شكوكى الوهمية . الهذا الحد أحبها ؟ كيف أحبها ؟ وماذا أنتظر من هذه المرأة سوى مجرد الشوق اليها ، ونزوات زمن مضطرب ؟ أنترك زوجها ونتزوج ؟ لم تتحدث عن ذلك قط ولكنى متاكد انها لم تفكر فى هذا لحظة . أبراج على الرمال . إذن أحبها برغم كل انحرافها هذا ؟ أم لهذا على وجه التحديد احبها ؟ لنفترض اننى تحدثت الى آدم ونجحت فى ان أحمله على ان يأخذنى الليلة إلى هناك . ماذا

سيحدث ؟ إعترافات ميلودرامية ، نحيب ، حركات تراجيدية أم افاعيل شهوة بشعة لا يطلع لها فجر ؟ بأى حق اجرؤ على محاسبة غاريلاس أو « الرجل الصغير » ما دمت لست أفضل منهما ؟ انهما على الأقل لا يسمحان لنزواتهما الغرامية ان تلجم من نشاطهما في سبيل الحركة . ان « الرجل الصغير » يغير نمط حياته بارسالى للاقامة عند نينا ، فهو يعلى ان تصدر ا«لمقاتل» على كل اعتبار أخر . وعلى أن أتصور كم من متاعب يعانيانها من أجل التلاقى . ربما يلتقيان بالليالى التى اخرج فيها لمقابلة غاريلاس . فى هـذه الحـالة كان يجب الاتكون نينا مرتبطـة بورديـة ليليـة ، وان يتواجـد « الرجل الصغير » فى أروشليم باذن تغيب ومبيت . الهذا يحاول غاريلاس ان يستبقينى معه ملحاً على ألا انصرف ؟ وبعد ؟ لماذا لا أضع حداً للأمور بنفسى ، بدلاً من ان اترك لفضائح إيمى امكانية تدمير معنوياتى ؟ يجب ، بأمانة وصراحة ، ان أعترف باننى كنت أعلى اهتماماتى بجسدى ونزواتى على اهتمامى بالحركة النضالية . وكان هذا قد بدأ منذ اليوم الذى فصلت فيه نفسى عن مصائر الآخرين . ترديت فى متاهة الذاتية . ولمدة اربعة شهور مضيت اقتات مما يقتات اولئك الذين انصرفوا عن الحرب . وكانت مغامرة بلا هدف ، لأن عودتى الى اليونان كانت من وحى كرامتى المجروحة ، منذ اجتماع ذلك الشتاء . ولكننى ارتديت الأن الزى العسكرى من جديد ، وعدت الى من انتمى اليهم حقاً ، على ان هذا لا يكفى . كان يجب أن أمحو بقضيب من حديد ملتهب خاتم الساحرة كيركيس من على . كان سر ما يتمتع به غاريلاس من توازن نفسى بسيطاً ، ويتمثل فى الأتى : كل شىء فى آوانه . والأن نحن فى حرب مع الفاشية .

قلت ، فلنذهب . ولكن دخل بعض الناس فلم يتسن للبقال ان يحضر لنا

الحساب . كان الوافدون قسيساً منتا وأعرابيين . تبادلوا التحية مع أدم . ثم وقفوا جميعاً أمام – البنك . أخرج لهم جورجى أقداحاً وملأها نبيذاً . انعكس الضوء على الأعرابى القريب منا ، فتعرفت عليه . كان هو السائق الذى أخذنا الى دير القديس سابا . بأية لغة يتحدثون ؟ إذا كان يفهم اليونانية ، فذلك يعنى إنه ... عرف سر الأرشيف والديناميت ؟ ارهفت سمعى . المنطق يحدسنى بأنه اذا كان قد أدرك ما عملناه فما كان بإستطاعته ان يظل بذلك الهدوء الذى كان عليه داخل التاكسى ، ولا كان يُقدم على إشعال سيجارة . أثرت أن أتحقق بنفسى . الكل يتحدث بالعربية ، حتى القس . كانوا يتفاهمون على شىء ، لأن السائق راح يتحدث بحدة مع أدم مديراً رأسه خلف ظهر الأخرين حتى ينظر كل منهما الى الآخر . الحساب يتم على أصابع اليد . السائق يمسك يده بيده الأخرى ، ويهزها حتى ليكاد ينتزعها « قل له موافق وإتركه لى ، اعرف كيف اسوى الأمور معه » قال القس ذلك باليونانية لأدم . تنفست الصعداء . ناديت جورجى . انحنى يجمع النقود ، وهمس لنا قائلاً :

– يتعاملون فى السوق السوداء . هذه المرة يبيع لهم سكراً .

– خذ بالك ياجورجى ، غداً ...

– إتفقنا يا ڤاسيلى ، مع السلامة .

كان القمر الأن يطل على الأزقة ، ويغمرها بنوره . اسرعنا الخطى ، كنت أنا بالتحديد أتعجل الإبتعاد عن المكان . احتج غاريلاس على ذلك ، اذ كان لدينا متسع من الوقت لنلحق بالأتوبيس الأخير . حقاً ماذا حدث لى ، قلت مازحاً :

– ما دمت لا تريد أن تعيرني مطواتك .

– دعك من الخداع ، يا سيمونيديس . من اين تعرفه ؟

– لا أعرفه ، قلت لك ! ولكن كان الرائد سبيرو معهم ، هل تراه فى الحامية ؟

– أتقصد ياسيمى المختص بالأغذية ؟

هكذا تتضح الأمور جميعاً . من معسكر اللاجئين فى رفح يصدر النساء والأطفال النازحين من اليونان ، خطابات مؤثرة عن المعاملة القاسية والإنحرافات التى يتعرضون لها . يذكر مرسلو هذه الخطابات على الأخص ياسيمى بالإسم ويشيرون الى تورطه فى تهريب الأرز والسكر . أتتم المقايضة على جسم إيمى هكذا ومقدماً ؟ ثم تنتظر بعد ذلك ان ننتصر فى الحرب .

قلت :

– فى ظنى أن السكر الذى كانوا يتفاوضون عليه فى محل البقالة يخص ياسيمى .

توقف غاريلاس عن السير . كنا من جديد خارج المورستان ، ولكننا فى ضوء القمر نلمح الآن المارة على مدى الطريق كله . إنهم على حق عندما يقولون إن الحركة لا تتوقف هنا الا عند الفجر .

– أنت على حق ياأخى ! شاهدتهما بدورى سوياً ، سبيرو وهذا القواد ، قلت لى ما أسمه ؟

– لم أقل لك شيئاً عن أسمه .

– حسناً لا تغضب . من الأفضل إنك لا تعرفه . إبق بعيداً عن هذه الامور يا سيمونيديس . وركز جهودك على « المقاتل » . سوف يجيء كل عدد أفضل من سابقه . كان لا زال لدينا الكثير نقوله حول العدد . اندسسنا فى مقهى عربى ، وطلبنا شاياً . لا زال المذياع ينقل أهات المطربة وعذاباتها ، ترافقها جوقة من الرجال تردد كلمة بعينها فى صحبة الطبول والشخاشيخ . نفدت سجائرنا كلها وما زلنا نتحدث . أخيراً ، تركت غاريلاس وسط شارع « اللينبى » وإسرعت حتى الحق بالأتوبيس الأخير الذى يتحرك الساعة الواحدة .

- ١٦ -

كل شيء على منضدة مستطيلة : سترة ، سروال ، قميصان ، بلوفر ، قفاز ، رباط عنق ، ونسخة من الكتاب المقدس . هرباتلر ، لا وجود لزوج الاحذية ، وفانلتين ، وسروالين داخليين ، وزوج من الجوارب ، ومشط ، ومقص الاظافر . كان ثمة كاتب ذو شعر احمر يدون ذلك . انك تعرف مثل هذه الأشياء بالطبع فهي مشتراة من هنا . أعلم ذلك ولكن منذا الذي كان يرتديها ؟ قلت له ، بالطبع ، السيد كالويانوس . وانت ما قولك يا مدام رابسكو ، لا أعرف شيئاً . كم هي كاذبة ولا برء لها من كذبها . قلت لها دعك من الادعاء بأنك لا تعرفين السيد كالويانوس . لم أقل هذا يا فراو آناه ، لقد عرفني وعرفته . سألها ألا تذكرين ما كان يرتديه ؟ تعارفنا بالمعنى الانجيلي للتعارف ، اما الثياب فهي جزئية ليست بذي بال . احمر وجهه ، وأصبح في لون الاستاكوزا . قال لأخته بصوت عال مس باتلر اذهبي الى الغرفة الأخرى ، سوف ندعوك اذا احتاج الأمر . والآن يا مدام رابسكو أرجو أن تحتفظي بميلك للمزاح لأوقات أفضل من هذه . أسألك مرة أخرى ، هل لاحظت ما كان يرتديه . عفواً يا مستر باتلر ولكن دون مزاح أبلغكم إن الثياب ليست هي التي تلفت إنتباهي للرجال بعكس غيري من النساء ، فمثلاً أستطيع أن أخبرك إن مس باتلر ترتدي صيفاً وشتاء الجونلات الاسكوتلندية ذاتها بثنيات كثيرة عند الأرداف وانه برغم كل هذا التواضع الانجيلي الذي تتظاهر به فانها تفعل ذلك بقصد لفت الانظار الى مفاتنها ، لأن جلوس موظفة الشرطة المتواصل بلا عمل وإبتعادها الطويل

عن ممارسة الرياضة أدى الى زيادة الدهون على مؤخرتها . امتقع وجهه ، ولكنه لم يفقد هدوءه ، لأنه ادرك حيلتها . وقال للكاتب أن يفتح النافذة البحرية قليلاً لأن الطقس حار ولكن الهواء طوى خريطة فلسطين المستطيلة المعلقة خلفه على الحائط ، وكاد يلقى بها على رأسه الصلعاء . نهض وأغلق بنفسه النافذة . فى الحقيقة إنها المرة الأولى فى حياتى الوظيفية التى أقابل فيها مثل هـذا الاستخفاف بالسلطات ، وتأكدى اننى سأرفع الأمر الى المسئولين . إنك تستفزيننى يا مدام ، حتى أخرج عن رشدى ، وهو ما لا أرغب حتى فى افتراضه ، ولكن أنبهك الى ان القانون صارم تجاه من يخفى مشتبه فيهم أو يساعد على إيوائهم . لو كان أحداً غيرى لقال لك انه ليس بحاجة الى اقوالك وكان سيضعك تحت المراقبة ولكننى اعرفك معرفة طيبة منذ فترة لذلك سنسعد ببقائك معنا حتى نهاية التحقيق . أخرجت له لسانها فى سخرية . وضعت ساقاً على ساق ، وفتحت علبة دخانها الفضية . جرى الكاتب وأشعل لها سيجارتها . إنتبهى الآن يافراو فلدمان . الآن أنصتى الى سؤالى وأجيبينى بكل دقة لماذا تعتقدين إنه أخفى ملابسه فى مغسلة العجوز الذى تعرفينه . سألت هل عثرتم عليها هناك . عثرنا عليها بداخل هذه اللفافة . أقول لك يا هر باتلر ان كل شئ سواء تفاهم . تعتقد إننا نعلم ولكن الكل يخطئ فى شأن الجميع . انه لأمر طيب أن تجد من يستطيع أن يقول لك من هو . فأنا مثلاً أعتقد عادة إنى صاحبة بنسيون ، بنسيون صغير سئ السمعة منذ ان حل به شخص لا داعى لذكره ، وأنسى إنى اناه روزنتال ، سليلة النساجين المشهورين فى كولونيا التى اضطرتها الظروف الصعبة ان تحضر الى هذا البلد الذى تحكمه بريطانيا العظمى مؤقتاً . كلمة مؤقتاً . تقصدين بها أقامتك انت . ولكن ها هو قد أساء فهمها واكفهر وجهه . دعك الآن من الآراء السياسية يافراو

فيلدمان فما كنت اعرف عنك ذلك ، ولكن يجدر بك على الاقل ان تبدى بعض العرفان للأبطال المساكين الذين يضحون بدمائهم لحمايتك . اساءت التعبير يا هر باتلر فأنا لا أشغل بالى ابداً بأمور من يحكم هذا البلد . يتابع الكاتب ورابسكو الحوار ويضحكان ، اما الآخر فقد هوى بقبضته غاضباً « ما الذى ألم بهن جميعاً اليوم . لم يعد هذا تحقيقاً ابتدائياً بل مسرحية فكاهية .» وانبرت رابسكو تقول بجدية لا تقاطعها لأنها بذلك تفقد تسلسل افكارها . اردت ان تفهميها انك لم تعهدى اليها بالدفاع عنك . ولكن هر باتلر عاد يطلب منك ان تكملى أقوالك ، ففضلت تجاهلها احتقاراً لها ، وتحدثت عن إريك الذى اجمع الكل على انه فتى من معدن نفيس ، وينحدر عن أسرة عريقة ، بينما هو مخادع خئون . وتحدثت عن فيلدمان ، الزوج الخائن ذلك المعمارى العبقرى الذى مات بين احضان عشيقته وحرمك من العقارات الكائنة بأكبر شارعين فى كولونيا فضلاً عن نصيبك فى المصنع . كنت على وشك البكاء ولكنك تماسكت وتحدثت عن سلمون مثال الأمانة الذى باع الى «الفون ريبنتروب» استثمارات والدك فى صناعة الشمبانيا نظير ثلاثين قطعة من الفضة على حد قول المسيحيين عن يهوذا . وتحدثت عن استاذ كبير اشتهر بغزواته . وقلت عنه انه مصاب بالشذوذ . وقلت عن سيدة معروفة بالذوق والاناقة اموراً لا داعى لذكرها وتحدثت عن احدى الآنسات الالمانيات بانها كانت تقلب الدنيا رأساً على عقب اذا لمسها رجل ، ولكنها كانت تجلب التلميذات الصغيرات لمدير « سبينى » . وتحدثت عن إسحق بن لاشين الذى أقسم أن ينتحر إذا توفت زوجته وفاجأتيه يتمرغ على أرض الحديقة مع من لا داعي لذكر إسمها . وتحدثت عن روزا خلياسكا التي تسأل شخصاً عزيزاً دائما عن المسيح والإنجيل وعندما يكون هذا الشخص بعيداً تصيح بأن الله والانبياء والحاخامات جميعاً خدعونا . وبدأت تحكين

عن الليدى نانسى . عفواً يا فراو فلدمان فعندما طلبت منك أن يجئ حديثك دقيقاً نسيت ان اضيف ان يجئ حديثك موجزاً ايضاً . وقالت هذه نسيت فراو بمبرتسبرج ، ولكنك عدت تتجاهلينها . قال إختصرى ، اختصرى . قلت ، فلنتحدث عن السيد كالوبانوس ، فأستأنف الكاتب التدوين . كما انخدعت بالأخرين خدعت به هو الآخر . لم يكن يعمل بالإذاعة كمالن الأستاذ ريتشاردز خدع ايضاً . ذات مرة قال لى إنه ليس بهارب ، ولكن ما دام ليس بهارب ، فلماذا يختبىء من الضابط الذى يأخذ دروساً عند الآنسة بوئيم . متى حدث ذلك يا فراو فلدمان ؟ أدركت إنك ارتكبت حماقة فقلت ما عدت اذكر . قال للكاتب ناد مس باتلر ، وقالت مس باميلا إن هذا حدث فى مارس فقد أخذ خادع النساء ذاك أربعة دروس ، ولم يدفع أجرها اذن فهو يقيم عندك من مارس بينما ذكرت من قبل انه حضر الى بنسيونك فى يونيه ولمدة قصيرة جداً حتى ان الوقت لم يتسع لتسجيله . قالت رابسكو دعك من هذا يا مستر باتلر ، فأن عقل المرأة لا يحفظ كل التواريخ . كلا هذا لا يسرى على ذاكرتى انا . عقبت بذلك أخته ، عموماً أستطيع إحضار الكراسة التى أدون بها الدروس إذن تسجلين ما يحدث ، بهذه المناسبة هل يمكنك أن تقولى متى تعرفت انا على هذا الرجل فقد ارتبك حسابى لدورات حيضى الشهرية فلا تؤاخذينى . احتقن وجه الرجل وصاح فيها اغلقى فمك ، ياله من جنس معدوم الحياء على أى حال . ابتدرته مجيبة عليه فى الحال يالكم من جنس بارد . أواه ، يا أناه ، خشيت ان يدب بينهما شجار ويتماسكان بالأيدى ، ومن يدرى ماذا تمسك عليه ، حتى صفح عنها .

فلنعد الى الموضوع يا فراو فلدمان ، ما الذى تخلصين اليه من ذلك . اخلص الى انه القى بالثياب المدنية ، وعاد يرتدى الملابس العسكرية . هذه

ملاحظة فى محلها ، على ان الحامية اليونانية تبلغنا بأنه لا يوجد فى صفوفهم من يدعى بهذا الأسم . هل تدركين الآن ماذا تسببينه لنا بأهمالك وعدم انضباطك ؟ لزمت انت الصمت ، ولكن خبريني : رجل يختبىء تحت أسم مستعار ويغير من ثيابه متخفياً فى ثياب عسكرية ، ما الذى يمكن ان يكون فى مثل هذه الايام التى نعيشها ، قلت انه جاسوس . قال ، وهل توصلت الى ذلك بنفسك . تدخلت هذه الرابيسكو وقالت هذا هراء ياله من ضجيج يثار حول انتحار تاجر سوق سوداء . وسألت منذا الذى انتحر . قال انه لم ينتحر ، وعدت تسألين من جديد : ولكن منذا الذى انتحر . قال السكرتير ذو الشعر الأحمر رجل من أهل البلد اسمه أدم . اتصل الطبيب الشرعى تليفونيا وافاد بأنه لم يجد ماء فى رئتيه ، واضاف قائلاً انهم قتلوه خنقاً ، ثم القوا بجثته فى الحوض . طبيبكم الشرعى يا مستر باتلر افاد بإن راشيل بنت لاشين توفيت بالإلتهاب السحائى . لماذا تخلطين الأمور يا مدام رابسكو . قلت الطبيب الشرعى على صواب . إذا كان على صواب فإنه يستحق ان يقتل لأنه كان يجب أن يأمر بتطهير المنزل ، ولكن ما أخبار أريكة مانيه الزرقاء . قلت هذه ليست أريكة مانيه . قال لماذا تخلطين الأمور . انه انتم الذين تخلطونها يا مستر باتلر ، فليس من المعقول لو ان هناك قاتلاً ان يترك بطاقته الشخصية فى مكان الجريمة . وسأل أية بطاقة شخصية تقصدين . قال الكاتب ذو الشعر الأحمر ثيابه . ولكن بأي حوض وجدتم جثة هذا الشخص الذى ذكرتموه . فى حوض منزله أعنى عند العجوز الذى تعرفه ، كيف فات عليك ذلك ، يا علام الغيوب ، أما هى فقالت تهيؤات . بالطبع يا مدام رابسكو أنت تدافعين عن والد طفلك . عفواً يا مستر باتلر أنا لم أقل إننى حامل ، قلت فقط إننى اعتقد ذلك . ولكن جن جنونك لأنك لم تستطيعى ان تتوصلى ان تصبحى بالحال الذى اعتقد اننى

اصبحت عليه يامس باتلر . صرخ فى أخته من جديد يا مس باتلر لم يطلب منك احد البقاء هنا . والآن يا فراو فلدمان بغية ان ننتهى من هذه القضية الملعونة ، هل انت دائما على إستعداد ان تكررى ان العجوز محل النقاش يعرف صاحب هذه الثياب . قلت ، بالطبع . أمر السكرتير بأدخال العجوز الذى ارسلوه من يافا . أحضروه مقيدا بالحديد . اهذا هو يا فراو فلدمان . انه هو يا هر باتلر . هذه السيدة تؤكد إنها شاهدتك تتحدث مع المشتبه فيه فى منزلها . حدثه بلغة أخرى يا هر باتلر فهو لا يفهم العربية . ولكن العجوز أجاب بأنه يعرف السيدة شكلاً فقط فنحن جيران ولكن لم اذهب الى منزلها قط . صاحت رابيسكو التى لا تفهم من الامر شيئاً ، آه ، هكذا تسير الأمور اذن . كانت سعيدة اذ وجدت العجوز يتحدث العربية . معذرة ، فقد كان اليوم يوم الاربعاء ١٧ يونيه وانى اذكر ذلك التاريخ جيداً لأن السيد كالويانوس كان متأخراً عن سداد الايجار منذ ثلاثة ايام وسدده ما ان انصرفت . هذه نقطة هامة ، طلب باتلر من السكرتير اثباتها . وقالت رابيسكو وما المهم فى ذلك ، وما كانت تعى شيئاً . المهم فى ذلك ان العجوز دفع كى يخلص صهره من ربقة الدين . وها نحن قد تحصلنا على الدليل . سألتك هل قلت شيئاً من هذا القبيل . قال لا لا تجيبيها يا فراو فلدمان . وكان العجوز مكتئباً صامتاً .

ودخلت اخته دون ان يستدعيها وهمست بشىء فى اذنه . قال لها فلتحضر ، ودخلت روزا مرتدية أفضل ثيابها ، بل وقد طلت شفتيها بطلاء وردى وكانت تحمل باقة من الزهر قدمتها له . وسألها مرتبكاً ولكن اين وجدتها قالت فى حديقتك ذاتها ، وقد ذهبت أرى ماذا يجرى . سألها مستر باتلر كيف علمت بذلك ، فقد صدرت التعليمات الى الصحف بعدم نشر شىء

عن الأمر. اننى لا اعرف القراءة فضلاً عن ان الصحف مليئة بالأكاذيب . لقد علمنا بالأمر من بائع اللبن . قلت ، عجباً فبائع اللبن لم يذكر لى شيئاً من هذا . وما العجيب فى الأمر يا فراو أناه فأنت تصدمين الجميع بفطرستك ، بل انك حتى بلبل الحى الألمانى كله قد أخرسته . ماالذى تردين به على هذه الغسالة ، وآثرت ان تتجاهليها . قال مستر باتلر دعك من هذا الشجار ، استدعيتك لتخبرينى من كان يرتدى هذه الثياب . مضت روزا اليها ورفعتها ناحية الضوء . ادارت رأسها نحوك ولبثت تنظر اليك ممتقعة اللون برهة . ثم اجابت قائلة لا أعرف . ابتدرتها قائلة الا تعرفين الثياب التى كان يرتديها السيد كالويانوس . كى لا اخفى عليك شيئاً ، رأيتها من قبل يا فراو فيلدمان ، ولكننى لم أتشممها ، ولعلمك فأن محل ستاين بشارع حيفا يبيع كميات كبيرة منها ، اما بالنسبة للقمصان ، فلم اكن انا التى اغسلها أو أرفوها ، فكيف تريدينى ان اعرف من أمرها شيئاً . قلت لها ولا انا . اذن ما الذى يجعلنا نتشاجر بشأنها كما لو كنا نتشاجر على أجرة الغسيل . يالها من أمرأة شرسة . وقال لها السكرتير ذو الشعر الأحمر وماذا عن رباط العنق . انه لم يكن يرتدى رباط عنق ، وهذا الذى كان يخرج مهندماً لم يأخذنى قط الى السينما ، كنت أراه على الدوام بقميص بنصف كم . ولا انا ايضاً اخذنى الى السينما قالت لك ما الذى يجعلنا نتشاجر اذن . معذرة ما الذى يحدث لهم اليوم ، صاح هر باتلر ما الذى يحدث اليوم ، انه ما عاد تحقيقاً هذا ، وسألت روزا والعجوز ما الذى يعرفه عن الثياب . اجاب السكرتير انه لا يعرف شيئاً ، لا بد ان المتوفى هو الذى اخفاها . خبأها . احتقن وجه الهر باتلر وصاح سكوت . وقالت رابيسكو ولكن ما الذى يجعلكم تضعون الاصفاد فى يديه . هذا مخالف للقانون . خيم الصمت ، واحتقن وجهه من جديد ، ولكنه أمر بعد ذلك برفع الأصفاد

من يديه . اجابها بلغة فرنسية جيدة اشكرك ياسيدتى ارى انهم لازالوا يحترمون الشعر الأبيض . اشتعل الهر باتلر وبحق . لم ار فى حياتى جنساً يحلو له الشجار مثل اليونانيين . ولكن العجوز لم يفهم ما قيل باللغة الانجليزية . ليست المسألة مسألة سن ، يا سيدتى ، بل هى مسألة حقوقك التى تجاهلتها السلطات . احتقن وجهه وصاح سكوت ومادمت قد نصبت نفسك محامية عنه فأعلمى ان موكلك قد وقع على محضر يخولنا كل الحق ان نستبقيه مكبلاً بالاصفاد للمدة التى نراها . أقرأه على المدام وقرأه السكرتير . كان العجوز معترف فيه انه كان بينه وبين زوج ابنته خلاف على الميراث وانه هدده بقطع رقبته . قال العجوز بالانجليزية هذه المرة اقرأ باقى ماهو مدون فى المحضر . قال السكرتير ليس ثمة شىء آخر مكتوب . كيف لا يوجد غير ذلك فى المحضر . اذكر اننى حدثتكم عن الأرمنية وزوجها . قال هر باتلر ليس هناك شىء آخر وإذا كنت تقصد بذلك آرام كريكوريان ، فهذا الرجل لم يحرك ساكناً من حيفا . فرد عليه العجوز ولا انا حركت ساكناً من حيفا . انها حجة معروفة . الجريمة وقعت من شخص كلف بها ، والمقومات كلها هنا .

فى هذه اللحظة ، كانت روزا قد طفح كيلها غضباً عن أى جريمة تتحدثون . هذا الكلب انتحر . توجهت اليها مس باميلا بهدوء وحاولت ان تجلسها ، ولكن روزا ما عادت تصغى لأحد . نحتها جانباً بخشونة وانغرست وسط غرفة المكتب وأخذت تلوح بيديها . قلت انه كلب ولقى ميتة الكلاب . تقول انه لم ينتحر وإنهم قتلوه ؟ سوف اركع على ركبتى لأقبل يدى ذلك الذى خلص العالم من هذه القذارة . لماذا تعذبون العجوز . ولماذا تسعون الى الزج بفتى شجاع طيب فى كل هذه القذارات . قالت رابيسكو

احسنت يا روزا ان لك فما من ذهب

قلت لها ما عدت بقادرة ان تلزمى الهدوء ، وسوف ينتهى بك الأمر الى الادعاء بانه مجرد حمامة بريئة . انت التى تتكلمين هكذا يا فراو اناه وقد كنت تبقين مستيقظة حتى الفجر لمجرد ان تتلقى منه تحية الصباح . ان الساعة التى انام فيها ليست من شأنك يا فراو خاليسكا وما دمت كنت تتابعين ما يحدث فى منزلنا ، فأعلمى ان بيتنا لن يكون بعد الآن ما كان عليه من قبل . ولو انك كنت أوليت الأمور بعض الأهتمام ، لما أضحى بيتنا ما أضحى عليه . وسألت ما الذى يعنى ذلك . يعنى ذلك الذى فهمته ، أم اننى لا أعرف من دفع بشخص ما الى احضان اسحاق ، وبشخص آخر الى احضان كالويانوس فما الذى يعنيه كل ذلك . فلنوجز من فضلكم . عذراً ياهر باتلر ، لكنني لم احتمل أن يكال المديح امامى لمخادع عاق . وانت ايتها المرأة المسعورة تقبلين على نفسك ان ترسلى الى المشنقة برجل لمجرد انك لم تكونى تروقين له . هكذا تكلمت روزا ولكنها كانت تتكلم ذلك بالعبرية فلم يكن يفهم احدا ما تقوله ، فيما عدا ربما الكاتب ذو الشعر الأحمر . ماذا تقول . مضى ينظر اليك منتظراً ان يسمعك تجيبين على ذلك . وهنا رن التليفون ، فرفع السماعة وقال الجاويش وينتر يطلبك . التقط السماعة ، وراح يجيب أجل ، أجل ، كلا ، ما الذى تقوله لى . هذا غير معقول . آخ ، اسمعك جيداً . ما هذا الذى تقول ورفع عينيه ليرى ما اذا كان احد يسمعه . وقال له حسناً ما دمت متأكداً ان رجلكم غائب فى مأمورية ، فليس ثمة داع لأن تزج به فى هذه العملية القذرة ، شكرا وطاب صباحكم ، ذكرينى يا مدام رابسكو قبل ان تنصرفى ان اقول لك شيئاً طريفاً . سكوت . اخذ قلمه ونهض يتريض فى غرفة المكتب وكانت روزا لا

زالت واقفة وسط الغرفة ، وكان ذلك يضايقه . اجلسى ولاداعى للتعب ، اقترب من العجوز . كيف كان المجنى عليه يكسب عيشه . انه انت الذى يجب ان يعرف . كانت له بعض الاشغال فى حيفا ، ولكنه لم يحك عن ذلك اكثر من هذا . انبرت روزا تقول سوف اخبرك انا . انتِ تتكلم عن بعض الاشغال وقاطعتها رابيسكو بأنّه كان قواداً . وانبريت تقولين صائحة مهلك وتاجراً بالسوق السوداء . وانبرى العجوز يقول صائحاً مهلكم . قد يكون مهرباً ولكنه لم يكن قواداً قد يكون تاجراً بالسوق السوداء ولكنه لم يكن قواداً قط . وقالت خاليسكا انكم لا تعرفونه جيداً اسألونى انا . كان له مأخوران فى حيفا يجلب لهما البحارة وآخر فى غزة وآخر هنا ، وضع مدام كريكوريان التى تحدثتم عنها فى بيت اعرابى بسوق الخواجات وراح يجلب اليه ضباطاً يونانيين . وسألها العجوز وكيف عرفت كل هذا . اننى غسالة يا سيدى ، وادخل كافة انواع البيوت ، وهناك ارى واسمع . نظر هر باتلر الى اخته التى أومأت اليه برأسها بمعنى ان هذا تعرفه . ومن ثم فما عدنا بحاجة اليك يا روزا ، وبأمكانك الانصراف . بلغى تحياتى الى فراو بومبرتسبرج ، لو كنت ترينها . وقالت روزا اننى اراها كل يوم . ذهبت لتحية العجوز بلمسة من يدها . ثم حيت بالمثل رابسكو ، واصطحبتها مس باميلا ، وانصرفا سوياً .

وقف الهر باتلر بجوار الكاتب . جهز أمر قبض وأرسله الى قيادة الحامية اليونانية بالأسم المستعار مانوس كالويانوس أو مانوليس أو ايمانويل او كالويانيس اما بقية المواصفات فستعطيها لك فراو فلدمان . من المرجح انه يرتدى زى الجيش اليونانى الخ .. مطلوب القبض عليه لقتله تاجرا معروفاً بالسوق السوداء وقواداً من الجالية اليونانية بأورشليم .

البواعث المحتملة هى المنافسة ، أو الانتقام أو الخلافات المالية إلخ .

ذهب ووقف بجوار العجوز سأله أين زوجتك . أجابه فى حيفا أحضرها ، سأطلق سراحك ، ولكننى أريدكم هنا فى أورشليم . حسناً ولكن فى البداية سأطلى المنزل ، سأطلب من قسيس أن يصلى لنا . ثم أتصل تليفونياً بشقيقها كى يحضرها . اتفقنا ، ارى انك فهمت إنك لا يجب أن تتحرك خارجاً من المدينة ولا حتى من البيت . لن انحرك بالطبع مادام انك تنتظر ان يأتى المشتبه فيه كى يسترد ثيابه . لا اعرف أي مشتبه فيه قلت لكم ، حسناً ، حسناً ، ولكن فقط حذارى لو اننا ضبطناكما معاً فقد ضعت انت ايضاً . لن تضبطانا معاً مادام ليس لمثل هذا المشتبه وجود . حسناً ، حسناً ، هذا فى معلومنا . اذهب ، فأنت الذى سوف تخرج رابحاً . يبقى لك البيت .

ينظر العجوز اليه فى حزن ، ويهز رأسه . ثم أقترب منك وصافحك . ثم صافح رابسكو التى اخذت يده وقبلتها واغرورقت عيناهما بالدموع .

بعد أن سجل الكاتب ذو الشعر الأحمر شهادتك ، خرجت الى الشارع ، كان الوقت ظهراً ومن . بواكي بنك باركليز يصعد طريق يافا المزدحم بالبشر والسيارات تحت قيظ الشمس . ريح متقلبه .. وسحب صغيرة تمضى فوق البوابة . إنعكاس الشمس فوق الطريق المغطى بالبلاط يشبه الطلاء ، وظلال الحمام الذى كان يرسم هناك عالياً دوائر ثم دوائر تمر على الأرض والحوائط . وتجتهد الريح ان تنزع من يديك المظلة التى كان سام قد بعث بها اليك . وتحركين بقبضتك مقبضها العاجى ، ولكن ما من أحد كان يلتفت اليك . ما من أحد قال كلمة عن زينتك اليوم ولا حتى تلك الثرثارة التى لا يفوت عليها شىء . منذ سنوات صباك وانت تتزينين دون جدوى . كل شىء

يروح ، الصبا والجمال والمال . ومن خطأ الى خطأ تمضى حياتك . وعود وأقسام كل ذلك يلمع عالياً ولا يلمس ظلال الأجنحة الخفاقة سوى روث الطريق حيث تنعكس عليه ، ولكن ما من أحد أدى واجبه . لماذا اذن تتحملين مسئولية مخادع ناكر للجميل . كانت رابسكو وروزا على حق لقد ربحا شيئاً ما أو يتوقعان ان يربحاه . ولكن انت لم يقل لك حتى كلمة وداع عند رحيله . لماذا اذن تتصرفين ضد القانون انك لا تنتظرين .

- ١٧ -

شيئاً . أنه لم يقتل وماذا بعد ؟ لابد ان الثياب كان قد اخفاها فى المغسلة منذ الليلة التى تركك فيها . وماذا بعد ؟ انك لم تذكرى ذلك ، مادام لم يسألك عنه احد . لقد اجبت على ما كانوا يسألونك . قلت الحقيقة بلا خوف ولا هوى . انتقمت منه ؟ على الأطلاق . لقد عاقب نفسه ، سوف تقول القذرتان انك انت التى بعته فليقولاه ومنذا الذى فهمك قط ، انت يا من تسكتين البلابل .

تستطيع إيمى ان تجزم بأن حرارتها لم تعد مرتفعة ، تتنفس بسهولة ولطف فوق وسادتها الناعمة . الطنين العجيب الذى كان يملأ أذنيها ، حتى الأمس أفسح مكانه لأصوات الحياة الصباحية الواضحة . ضربات الفأس المنتظمة على طبقة الحصى السميكة تنشر شعوراً مبهما بالنشاط والنجاح . سمعت البستانى العجوز يتوقف ويشعل سيجارة ثم يسعل بذلك الصوت المميز الناتج عن الربو كما يصدر حذاؤه الغليظ صوتاً وهو يسير على المشى . يفد من بعيد صوت معدنى كأنهم يثبتون ماسورة ربما كانت الماسورة الرئيسية هناك وهسيس الماء ينساب داخل القناة المحفورة حديثاً ، موازية لحائط غرفة النوم . أرادت ان تخلص أذنيها من شعرها ولكن « شكة » فى ظهرها جعلتها تعدل عن فكرتها . كم مضى من الزمن منذ ذلك الصباح ، وهى نائمة منكفئة على وجهها فوق غطاء السرير . تسمع صوتاً واعداً ، تسمع همسة السعادة التى تحوم حولها . اكانت سنوات أم أياماً تلك التى مرت بها ؟ ولكن السعادة لا تشبه الوعود بها وعندما تجئ

تكون دائماً مختلفة ودائبة التبدل ، هذه الوعود تعطيك التغير والنضوج . أهى مثل التعاسة إذن ؟ السعادة والتعاسة ، اللذة والآم ، الجميل والقبيح ، اليست كلها متشابهة ، وجهان لعملة واحدة ؟

وبدون معاودة للتفكير فى هذه الأمور ثنت ساقها ، وضربت بكعبها اردافها . أجل كانت أحسن حالاً اليوم . تستطيع النهوض والاستلقاء على ظهرها . وهذا بفضل دهان روزا . يالها من وصفات تلك التى تعرفها هذه القرويات ! رائحة السمك تفوح منه ، وهو يترك بقعاً على كل شئ يلمسه ، ولكن ها هو يأتى بمفعوله . على أى حال سوف تهب واقفة ، وسوف تشعر المًا ، ولكن حتى للألم لذته . ترى كم تكون الساعة ، وهى تشعر بالجوع الى هذا الحد ؟ وفجأة شعرت بذلك الذى كان ينقصها اكثر من أى شئ أخر . كانت قد نامت وحيدة . هل تكون روزا قد حرمت عليه الدخول ؟ انها كانت قد نهتها ان تفعل ذلك بشدة . هل يكون قد طرق الباب وكانت مستغرقة فى نومها ؟ كلا ، انها كانت طوال الليل بأنتظاره وكانت روحها تتلهف اليه . لو لم يأت الليلة ، لن يكون بأستطاعتى الاحتمال . كان جسدها يتسمع الى كل صوت أو حركة ومع ذلك فهو لم يأت . كانت قد نهتها بشدة فقط لبينى عهدت اليها ان تخبره انها متوعكة حتى لا يضجرها بأسئلته . أخرجت ساقيها من السرير ، وانزلقت على بطنها ، وعندما لمس قدماها الأرض هبت واقفة . ندت منها صيحة . لكن الألم كان محتملاً وقفت امام المرآة الكبيرة . لحسن الحظ لم يفقأ الجلد فى أي موضع من مواضع البثور . على ان التشققات العريضة امتدت من أعلى الظهر حتى أسفله ، وراحت تتقاطع وتختلط مثل رماد وردى وبنفسجى من فعل يد عصابية . ها قد مضت خمسة وثلاثون أو أربعون ساعة ، ولم يظهر على جسدها أى تجمع

دموى ، فيما عدا العلامة التى احدثتها عقدة حزامه على مؤخرتها . كانت قد نزفت فى البداية ولكنها اوقفته عن ذلك . ليس بالجسم الحديدى ، اخشى من التلوث وهو ما أخاف روزا بدورها . وقد صاحت « بالجسم الحديدى ، بالجسم الحديدى . ياله من مجرم » . ولولت ثم اردفت تقول ولكن اين هو الآن ؟ بسرعة خذى حماماً كى ينظف الجرح . ويجب ان تتناولى طعاماً . جلبت السيجارة التى اشعلتها دواراً فذهبت تجلس على السرير ، وعندئذ صعد الألم مثل سكين محمى وجعل الدموع تطفر من عينيها . قالت بداخلها « من حسن الحظ انه لم يأت الليلة » « سوف كنت نزفت الليلة . كل شئ سيمضى على ما يرام . »

بحثت عن خفها فترة ، وعندما وجدته تساءلت كيف لم تره بينما كان امامها انها فى الحقيقة لم تكن تبحث عنه . كانت منشغلة باستدارات جسدها ، وباللذة التى حققتها كل وخزة حارقة ارتج لها جسدها . سعل البستانى من جديد . لو انه الصق وجهه بالمشربية لرآها ؟ حقاً ، فليلحق الموت بالرجال ، رجال أورشليم طبعاً . يوما بعد يوم يذبل الجسد الذى يدق بداخله قلب صغير دافئ وممتلئ بالقسوة . كم سيكون آخذاً بالالباب ان تنادى فجاءة « حسن » من داخل غرفتها المفعمة بالضياء تناديه فى نعومة ورفق . وعندما تتأكد من انه الصق وجهه بثقوب المشربية بديعة الصنع ، سوف تدعوه اليها بحركة من يدها بتؤده وعذوبة ، حتى لا ينتابه الجزع . أواه يا إيمى . كم أضحيت شيطانة ، كنت على الدوام هكذا فقط انك الآن تعرفين ماذا تفعلين ويروق لك ذلك .

وقالت للمرأة العارية الماثلة امامها فى المرآة ، والتى كانت تنظر اليها بعينين ناعستين :

– اجل ، يروق لى الى حد مخيف . ما الذى تريدينى ان أفعل ؟

ارتدت خفها ، وذهبت الى المطبخ تخطر ويتمايل جسمها ولكنها وجدت روزا – بحجة ان الفناء القديم يلملم صراصير – قد رفعت كل كسرة خبز وبقية من طعام ، فلم تجد هناك سوى معلبات ومشروبات . وفى انائين وجدت بناً وسكراً فحسب . حاولت أن تشعل وابور الجاز ، ولكنها لم تجد جازاً أفرغت درج الشوك والسكاكين فوق رخام الحوض . ولكن مفتاح المعلبات كان غير موجود . عندئذ أخذت الوسيكى وعندما استدارت وضعت الزجاجة على فمها وشربت منها . كانت جائعة ومن ثم كانت مضطرة لأن تطلب العون من البستانى ولكن لن تستقبله على هذا الشكل . سترتدى شيئاً . ذهبت من جديد الى حجرة النوم . وقفت امام المرآة . كان ما شربته قد آتى مفعوله بجوفها وشعرت بدخان معطر يحرق جوانحها ، ويصيبها بالدوار . اصبحت عاهرة ، يا إيمى . اجل ، ولكن ذلك يروق لى كثيراً فلأصبح امرأة وضيعة . احقر مجدلية فى بلاد اليهود ، ملطخة بالمساحيق ، قذرة أتسكع فى أزقة حيفا سيئة السمعة ، واعطى نفسى لعمال الميناء الذين تفوح منهم راعحة المازوت . أجل اعرف اننى امام نانسى أو نساء آخريات على مشاكلها ، سأخفض عينى ، واشعر كم انحططت عن مستواى ، ولكن بداخلى سأقول لنفسى ما من احداهن عرفت ماذا يعنى فى الحقيقة ان « اعطى نفسى » وفى النهاية ! ان تكون ملكاً لاحد ملكية مطلقة ، ان تخضع له خضوعاً كاملاً عن قناعة ورضاء ، مثل الروح امام سيدها . كان هانز وحده يعرف ماذا يعنى ذلك ، لكنه كان جباناً . فضل الأمان على ان يخاطر من أجل خلاص روحه ، لم يجرؤ على ان يكون فى الوقت ذاته مقراً بعقيدة وأداة لها ، آداة عمياء لا تلين ، سوط المعذب الولهان .

كانت الساعة تشير الى الواحدة والنصف عندما طرق الباب . فتحت لتجد روزا أمامها حزينة شاحبة الوجه . ذهبت مباشرة الى المطبخ حاملة سلة المشتريات .

– هل أعد لك الأفطار أم الغذاء ؟

– ماذا حدث لك اليوم ؟

– ذهبت الى حفل زفاف .

– لم تسألينى عن درجة حرارتى ، أو عما إذا كنت اتألم أم لا .

– ولماذا أسأل ما دمت أرى . ضعى بعض العقل فى رأسك . هذا كل ما فى الأمر .

عادت ترفع الكلفة من جديد مثلما يوم ان صفعتها ولعله كان من طبعها أن تتعمد البساطة عندما كانت بازاء أمر غير صحيح .

– حاولت ان أشعل وابور الجاز ، ولكن ليس لدينا جاز ، ولا عندنا لبن ولا كسرة من خبز جاف . اشعر بالجوع ، ولكن ان آكل ثم آخذ حماماً ، سوف يضرنى هذا . اعدى لى لبناً بالقهوة .

– هذا ما اعده لك ، ولكن لا استحمام اليوم .

– لماذا ؟ هل انت تستعجلين الانصراف ؟

– لا يجب أن تغتسلى ولا حتى غداً كى يؤتى الدهان مفعوله والا ستتجولين بالعلامات على جسمك ، مثل أحصنة الجيش .

– لن اغتسل ؟ وكيف اذن سأمارس الجنس ، ياعزيزتى روزا ؟ انضح برائحة السمك المقدد .

– دعك من ذلك . ستمارسينه ، مثلما مارستيه أمس .

ولم يدع وجهها الجهم مجالاً لكى يفهم أحد ما اذا كانت جادة فيما قالته ، ولكن لم يكن يبدو انها عرفت ان آدم قد تخلف عن المجئ ليلة البارحة ، وقد فضلت ايمى من قبيل الدلال ان تتركها على غير معرفة بذلك .

– ماذا قال لك بينى ؟

– لم أره . رحل من جديد مخبراً أندريانو انه سيتغيب بضعة ايام .

راحت ايمى تضحك ، ويرتج عن عمد نهداها اللذان بدا عليهما آثار العض تناولت قطعة من الخبز المقدد المكسو بالزبد ، ونثرت عليه سكراً وراحت تقضمه بأسنانها .

قالت لها الخادمة :

– يناسبك هذا ، هيه ؟

– يناسبنى ! إنها هزيمة منكرة من جانبه !

أتت الخادمة بحركة من يدها ، لكنها لم تكملها . كانت يدها ملطخة بالسمن ، ولكنها بعد قليل ربتت بظهر يدها على عنق إيمى ، كما لو كانت تلاطف كلباً .

– هيا إذهبى ، وأستلقى على بطنك . سوف أحضر لك اللبن . وسوف ادهنك مرة أخرى . وعليك أن تبقى على هذا الوضع حتى استطيع ان أطهو الطعام . وجدت فى السوق شرائح من لحم الخنزير التى كنت تبحثين عنها . سوف اطلب من حسن ان يأتى ليشعل لنا الفحم وسأعد لك وجبة شهية ،

تلعقين اصابعك بعدها . كونى مطيعة ، واذهبى للرقاد الآن .

وقبلتها للمرة الأولى قبلة خاطفة طبعتها على شعرها كما لو كانت تسرقها منها .

عندما أحضرت الصينية النحاسية وضعتها على المنضدة لم تعد ترتدى ثياب الخروج ، واكتفت بملابسها الداخلية . وجلست على الأرض بجوار السرير تناول إيمى مرة الفنجال ومرة الطبق بشرائح الخبز متابعة إياها فيما تمضغ وفيما تبلع . ثم ذهبت وأحضرت سجائرها من الداخل ، لأنها كانت تشمئز من تلك السجائر المعطرة . دخنتا سوياً . ثم ازاحت المنضدة واخذت الوعاء الصغير الذى به الدهان

– اليوم وغداً ونخلص من ذلك ايضاً.

قالت ايمى ، وقد دست انفها بين الوسائد :

– انت صانعة معجزات .

– اعطتنى حماتى هذا الدهان ليس الآن بل ايام ان كانت بصحبتنا . هكذا كانت تدعكنى ، تلك المسكينة ، ولكنها لم تفكر قط فى ان تنهر ابنها .

– هل كان يضربك ؟

– يضربنى ؟ لا تعتقدى اننى كنت من تلك النساء الطائشات ولا انه كان غيوراً . هكذا كان يحلو له بعض الاحيان . كنا نتبادل الكلام واذا به يضربنى . الجوع يجلب نكداً .

– وأنت ؟

– كنت أرد عليه ببعض الضربات ، ضربه أو ضربتين ، لكننى لم أكن

أقدر عليه ، فقد كان يا بنيتى من القوة بمكان انه كان يمسك بجلد ثور ينفضه من الملح الذى علق به ، كما لو كان هذا الملح فتات خبز علق بمنشفته .

– أقصد هل كان يروق لك ان يضربك ؟

– كنت اتمنى الموت من خجلى . وانت ؟

– ولكن هانز لم يرفع يده لضربى قط .

– لا اتحدث عن زوجك ، بل اقول عن هذه الكدمات .

– الأمر مختلف .

– ماذا تعنين ؟

لم تصدر من إيمى اية اجابة .

كفت روزا عن دعكها بالدهان . رفعت ايمى رأسها من على الوسادة ، ونظرت اليها . تسمرت فى مكانها كتمثال ، وقد اكتسى وجهها بتعبير من الآسى البالغ .

– انت بالانحدار الذى ترديت فيه ، سوف تطلبين ان تتذوقى الروث !

– روزا !

ولكن الخادمة انصرفت ، وهى تمسح يديها بقطعة من القطن .

مضى بعض الوقت .

صاحت إيمى :

– سخن جسمى ، يا روزا ، أريد ان انقلب على ظهرى .

اجابتها روزا من المطبخ قائلة :

– لا تتقلبى . انتظرى حتى ينصرف الرجل ، ثم انهضى لتمشى فى الغرفة قليلاً .

– أى رجل ؟

– البستانى .

– اعطنى قميص نومى .

– عندما ينصرف الرجل .

ولكن إيمى لم تجسر على النهوض . وبعد قليل وفدت اليها رائحة الشواء من على الفحم . سمع حسن الأن يطارد دجاجة فى الحديقة وكانت تنقنق متحدية اياه ، وعندما كان يضيق عليها الخناق ، كانت تعاود الصياح ، كما لو كانوا يذبحونها . كان العجوز يناديها بالعربية بصوت هادئ منغم ولم تكن حظيرة الدجاج تنتج بيضاً او لعل حسناً كان يحتجزه لنفسه ، او كانت روزا تأخذه لأولادها . كان ذلك مثار دهشها ، ولكن لم تكن تنوى ان تحقق فى الأمر ، تماماً كما لم تكن تطلب مراجعة حساب المشتريات . انزلقت على بطنها من جديد ، ووضعت قدميها حافيتين على أرض الغرفة ، حتى تستمتع برطوبتها وذهبت الى المطبخ . كانت روزا تمسح عينيها بطرف ثوبها الداخلى وكانتا شديدا الأحمرار .

– هل تبكين ؟

– ولماذا ابكى . هل أخذوا منى عزبى وضياعى ؟ أعمانى الدخان المتصاعد من الفحم .

طوقت ايمى عنقها بذراعيها وقبلتها عند التقاء حاجبيها المعقودين فى غضب :

– ليس لى إلا روزا واحدة . ماذا كان سيكون حالى بدونها .

صدر عن الخادمة صوت مثل النباح ، واخفت وجهها فى ثوبها الداخلى ، وهى تدفع سيدتها جانباً ، كانت تبكى بحرقة من كل قلبها .

– ماذا حدث لك يا روزا ؟ هل ضايقتك ؟ يا الهى لم أرك على هذه الحال من قبل ! هل حدث شئ تخفينه عنى ؟

قالت ، وهى تمسح وجهها بثوبها الداخلى فى حيوية ، كما لو كانت تنظف الزجاج بمزقة من قماش :

– لا تتصورى ان مكروها حدث . ثمة ما كان يعتصر قلبى منذ أيام ، وها هو ينفجر خارجاً . ينتابنى ذلك احيانا بدون سبب . عندما كنت اكثر شبابا كنت أعالج ذلك بالفودكا . اى احزان مهما تراكمت ، كنت احتملها . اما أن ارى آخرين يتألمون من ضراوة الناس ، فهذا لا احتمله .

– ولكنى ما الذى رأيته من جديد ؟

– وما الذى بقى كى لا نراه . هل تعتبرينه امرا هيناً ان يضيع كل يوم كل هذا البشر ؟ هل رأيت قطعاناً من العجول تساق الى المذبح ، وكيف تتشمم الموت ، وتنخرط فى البكاء ؟ البعض ينقلب ويتخبط مثل العميان ، والبعض يمضى خفيضى الرؤوس تذرف الدمع السخين . ويكون الأمر اكثر فظاعة فى المدن ، عندما تساق فى الفجر على عربات كارو أو سيارات نقل . انها تتشمم الهواء مشمئزة وترى عربات ترام الصباح الأولى ، والعمائر الكئيبة ، والعمال على دراجاتهم . عالم آخر هذا ، أو بالحرى هى

روائح اخرى . تشعر بالخوف ، لكنها لا زالت لا تعرف السبب . وبالمثل ايضاً فتياننا المساكين . اننا نراهم الان يرتدون الكاكى ، ملقى بهم فى القطارات . كل الفرق انهم يغنون ، فلم يتمكن منهم الخوف بعد .

– أهو مانوس ! ما الذى تخفينه عنى ، ياروزا ؟

– سرىّ عنك . اننى اتحدث هكذا عن الرجال بصفة عامة تظلين انت مغلق عليك الباب فى قصرك ، ولا يدور بخلدك ان ألاف الناس يموتون بعيداً فى كل لحظة ، فى بولنده ، فى روسيا ، فى انجلترا ، فى كل مكان .

– أمن أجل هؤلاء تبكين الأن ؟

– من أجلهم ، ومن اجلى ، ومن أجل طفلى اليتيمين ، ومن اجلك انت ، التى تركك زوجك وسلكت طريق السوء .

قالت إيمى بلهجة قاطعة :

– لم يتركنى هانز على الاطلاق .

– اين هو اذن ؟ باعك لهذا الامريكى الأحمق الذى ما عاد يهتم بك .

– روزا !

– اى رجل هذا الذى يغمض عينيه ، ويتظاهر بانه لا يرى ؟ لماذا لا يأتى ليلملمك قبل ان يقع المكروه ؟

– ان هانز غائب فى مأمورية ، ولا يجوز لنا ان نتحدث عنها . اما نزواتى ، فحتى لو حاولت شرحها لك فأنك لن تفهميها . اننى الآن آتى اعمالاً شريرة ولا شك ، الا اننى لا أسبب بها الأذى إلا لنفسى وعلاقتى بالله . اما انت فتريدين ان تتصورينى كتلك النسوة اللاتى لا يجدن سعادة

الا فى التخريب .

– اننى لا أتى بأشياء من عندياتى ! انت نفسك كنت تقولين منذ بضعة ايام انك الشيطان بعينه . وسوف أقول لكي انا من انت : انت طفل افسده كثرة التدليل ، حتى أصبح لا يعرف ماذا يفعل . اما البقية ، فثرثرات واحتياجات أمرأة أشتعلت غرائزها . قد لا تريدين ، ولكن اينما حللت تجلبين الفسق والمجون ، لا تعترفين بأى قانون . لا قانون قومك ، ولا قوانين الآخرين .

– انك توجهين الى سباباً ، يا فراو روزا . اننى أفعل ما يروق لى . ولو كنت افعل ما افعل مع مانوس لمنحتينى بركتك !

– انه ما كان سيغمض عنك عينيه ، ولكن من يدرى ماذا نما الى علمه عنك ، فأختفى من على وجه الأرض ؟

– كان يعلم اننى متزوجة .

– وماذا فى ذلك ؟ لعله كان سيعمدك من جديد ، ويجعل منك مخلوقة جديدة والا ما فائدة نهر الأردن ؟

– لا جدوى من ذلك ، يا فراو روزا .

تتمالك ايمى نفسها حتى لا تضحك . ومن كان سيصدقها لو روت هذه المحادثة بكل تفاصيلها ؟ هى عارية ، ظهرها واردافها مدهونة بمرهم ينضح برائحة السمك العطن ، وروزا ترتدى ثوباً داخلياً قذراً منتفخة العينين شعثاء الشعر ، تحرك المروحة على الفحم دون ان تتوقف عن الكلام ، بينما اللحم على الشواية يئن ، وتفوح منه رائحة يسيل لها اللعاب . كل هذا كان مشهداً مضحكاً للغاية . احست بالضحكة تتكور عند سرتها

مثل ثعبان حتى لا تنزلق الى فوفق وتنفجر من فمها . كما سمعت سعال حسن الذى جاء يدق باب الخدم دقات خفيفة .

قالت لروزا :

- اختفى بسرعة .

وكانت على وشك ان تضربها ، لولا انها خشيت ان تتلوث يدها .

هكذا مر اليوم سريعاً ، خاصة بالنسبة لروزا . وعندما آكلت ايمى الشواء شعرت بالخمول فنامت . رأت حلماً من تلك الاحلام المليئة بالآفاق الذهبية والافاريز اليونانية ، والبحيرات الزرقاء بطيور البجع المنتشية بالقبلات . وربما كان حلماً غرامياً فقد إستيقظت على صرير أسنانها ، وما زال فكاها يؤلمانها ، ولم تلحق عيناها سوى بخفى هيبيريون الملتهبين وهو يرحل على مركبته ذات الضياء الباهرة . تمتمت تقول لنفسها بصوت يكاد يكون مرتفعاً « لو لم يأت ولا هذه الليلة ، ماالذى سأفعل ؟ »

- انت هنا يا روزا ؟

- كنت اقول « لحسن » إننا ما عدنا بحاجة اليه .

- وانت ايضاً تستطعين الانصراف . لن ينتابنى الجوع ثانية .

- فكرت ان ابقى فى صحبتك . فكيف تفتحين الباب لو جاء أحد ؟

- وهل سيكون لدينا ضيوف الليلة ؟

- قلت لك انصرفى .

تمتمت روزا بشىء وهى تفتح وتغلق الدواليب والأدراج بعصبية .

– ماذا تقولين ؟

– اقول اننى لم استطيع الانتهاء من كى الثياب ، لذلك سأخذها وأكويها عندى .

– الكواء مرة أخرى ! إتركى هذه لصباح باكر ، فغداً يوم من خلق الله أيضاً . وما احتياجى الى الثياب بكل هذه المراهم على جسمى . او أفعلى ما تريدين ، فقط انصرفى .

فكرت فجأة إنها ستطلب منه أنه يمسح جسمها جيداً بالقطن ثم يعود فيدهنها قبل انصرافه عند الفجر من اناء روزا الصغير . اما عن الرائحة ، فقد كانت شغوفة أن تعرف ردود الافعال التى ستأتيها عليه .

– إننى ذاهبة . تركت شرائح خبز وجبناً ، ولبنا ، وتفاحاً فى دولاب المطبخ .

– شكراً . اعطينى قبلة ، أم انك سترحلين هكذا ؟

تمتمت روزا قائلة متظاهرة بالاستياء من ذلك :

– هاقد بدأنا سخافات جديدة .

– ليس الذنب ذنبى ، انت التى بدأت ذلك .

سمعُ طرق على الباب فى وقت متأخر من الليل . اندفعت الى الباب حافية القدمين ، تكبت داخلها غضباً من حضوره متأخراً عن موعده . على رخام الردهة الفسيحة رسمت المشربية بساطاً خياليا ، إذ كان القمر قد ارتفع صاعداً فوق بوابة دمشق ، وراح يسكب ضياءه مباشرة عليها . لم

تضيء الانوار ، ولكن سألت فحسب مثلما في كل مرة :

- هل هو انت ؟

صمت .

- من هناك ؟

اجاب شخص مجهول بالانجليزية :

- افتحي يا سيدتي . من الضروري ان اتحدث اليك .

- ما الذي تريد ؟ من انت ؟

- لست متأكداً مما اذا كنت تعرفينني . انا الجاويش وينتر .

- ماذا حدث ؟ اخ ، هل أصاب زوجي مكروهاً ؟ تكلم !!

- لا تجزعي . الأمر لا يتعلق بزوجك . من الضروري ان آراك .

- هل انت متأكد انه ليس لديك ما تقوله لي عن زوجي ؟

- بالتأكيد .

- اذن ، فلترحل ليست هذه ساعة مناسبة للزيارة .

- انت على حق ، ولكن من الضروري أن أراك .

- لا اريد ان يكون لي اية صلة بك .

- الأمر يتعلق بشخص تعرفينه .

- تعال غداً في وضح النهار .

- ولكن لا يجوز ان يراني أحد . وانك هكذا ، اذ تتركيني في ضوء

القمر تعرضينني للخطر .

– لعل هذا سبباً أخر يدعوك للانصراف .

صمت .

– انزل بضع درجات حتى اراك من المشربية .

كان رجلاً سيء الهندام ، له اذنان غليظتان كبيرتان ، يكاد يكون ليس له عنق ، أقرب الى الصلع ، عادى القوام ، ولكنه معدوم الخصر ، وساقاه جد قصيرتين .

كان يرتدى شورتا وقميصاً كاكى ، وحذاء عادياً ، بلا حزام ، ولا ما يدل على رتبته . بالامكان ان يكون فرداً من المدنيين ، وقد كان اليهود على الأخص يألفون هذا النوع من الثياب لأنها اقتصادية .

– عن أى من معارفى تريد ان تحدثنى ؟

– عن كالويانيس ، اليونانى .

صمت .

– سيدتى ، هل تسمعينني أم انـك انصرفت ؟ من الضرورى ان تفتحى لى .

– برهة ، انتظر .

جرت الى حجرة النوم ، كى تضع شيئاً على جسمها ، ولكن روزا كانت قد جمعت كل شيء ، الثياب المكوية وغير المكوية من قمصان نوم ، وملابس داخلية ، وأرواب ، وسراويل ، وفساتين ، واحذية ، بل والمعطف ايضاً . لماذا فعلت ذلك ؟ كيف حملتها معها ؟ ملأها ذلك بأحساس غير مستحب بعدم

الامان . هل كانت روزا سارقة ؟ يا الهى ، هذا مستحيل ! عاد وينتر يدق الباب من جديد ، فقد نفد صبره . عادت الى البهو . إستلقت على بطنها فوق الاريكة ، خلف المشربية قالت بصوت خافت :

– مستر وينتر ، تعال من هنا . يحزننى جداً اننى لن استطيع ان افتح لك . اجلس على الارض ، على الافريز ، لصق الحائط ستكون اقل عرضة للعيان وتحدث بصوت خفيض .

– لماذا لا تفتحين لى ؟

– قلت لك اننى أسفة على ذلك .

– انك تحطين بذلك من شانى . انا لا اراك ، وفى الحقيقة ، ياسيدتى ، انك تعوقيننى عن اداء واجبى .

– لو كنت جئت تأدية لواجب لما كنت تخاف ان يراك احد .

– ولكننى لا أفعل ما افعل بغير علم من رؤسائى . لا أريد أن يرانى المدعو كالويانيس ، الذى قد يكون مختبئاً فى مكان ما هنا .

– يبدو لى هذا غير معقول .

– ان لدى السلطات المحلية تحريات بأنه متيم بك .

– السلطات المحلية ؟ تقصد مس باتلر .

– لا اعرف من أبلغهم بذلك .

– وما هى الخلافات التى بينكم وبين هذا الرجل ؟

– هناك تحريات تقول انه هو الذى ارتكب جريمة القتل .

صاحت ايمى :

– اى جريمة قتل ؟

– دعك ياسيدتى من مثل هذا الكلام . ليس سليماً أن تلاعبينا هكذا !

– اى جريمة قتل ؟ قل لى بسرعة أه يا الهى ؟ أهو بينى ؟

– ان الضابط كورتمارير لا تحيط به أى شكوك ولقد تحريت عنه بنفسى ، وهو لا زال بالقاهرة

– ولكن من القتيل اذن ؟

– لو تأذنين لى بأن اسدى اليك نصيحة . لا تتظاهرى بأنك لا تعرفين بالأمر . انك بذلك تحيطين نفسك بشبهات لا مبرر لها . من غير الممكن الا تكونى قد علمت . غسالتك جاءت الى هنا تواً بعد التحقيق .

– روزا جاءت الى بعد التحقيق ؟ دعنى اضحك على ذلك . كانت روزا فى حفل زواج ...

– أهذا ما قالته لك ؟

– بكل تاكيد .

– أهى متعلقة بك ؟

– كل منا يعرف الأخر ، هى أمرأة طيبة .

– بكل تاكيد ، والدليل على ذلك انها تخفى عنك النبأ ، حتى لا تصدمك به .

– تصدمنى ؟

– منذ الذى تنتظرينه طوال ليليتين ولم يحضر ؟

خيم الصمت . احست ايمى شيئاً يخفق بجناحيه فى البهو ، شيئاً مثل خفاش كبير . زحفت عليها غمامة باردة ، من كعبيها حتى الكتفين . أقشعر بدنها . آدم ! أظلم البهو اظلاماً دامساً .

– مستر وينتر .

– اجل ، يا سيدتى ، كنت اتسأل عما اذا كنت لازلت هنا .

– كيف حدث ذلك ؟ اين ؟

– فى بيته . امس ظهراً أو بعد الظهر . وهو نائم خنقوه ، ثم القوا بجثته فى البالوعة . وجده بستانى الجيران الذى يروى اشجارهم كل ليلة .

صمت .

– هل تصلين ياسيدتى ؟ انا كاثوليكى بدورى .

خيم الصمت من جديد . اذن اخذت روزا ثيابها ، كى تمنعها من الخروج ، والجرى وراءه ...

– يا سيدتى هل كالويانوس هذا قوى البنية ؟

– ولماذا تسأل ؟ أوه ، كلا ، تخطئون كل الخطأ . هو اميل الى ان يكون رجلاً رقيقاً ووديعاً . كما انه لم يعرف علاقاتى بـ .... بالقتيل .

– هل كان يعرفها غيره ؟

– لا أحد سوى ربىّ ، وانت كما أرى .

– وروزا هذه ، لماذا اخفت الخبر عنك ما دامت لم تكن تعلم بالعلاقة ؟

– لا أفهم . كنت على الدوام اصرفها عن البيت وتتركه مبكراً ، ولم تره قط . وانت كيف عرفت بالأمر ؟

– تعرفين من انا . هذا البيت كان موضوعاً تحت المراقبة حتى قبل ان تسكنيه انت .

– اذن ، انت تعرف ان كالويانوس لم يأت الى هنا قط . انه لا يعرف حتى اين أقيم . وما دام لم يتبعنى كيف كان بأمكانه ان يعرف ما تعرفه انت ؟

– بالضبط . فقط ان الشرطة وجدت ثيابه وانجيلاً فى مغسلة القتيل .

صمت . يا الهى ، قتله مانوس ؟ هذا أمر مورث للجنون ! ما معنى ان تكون ثيابه هناك ؟ يبدو انه كان يعرف البيت وتركها هناك منذ ايام .. متى رأته روزا فى ثياب عسكرية ؟ اليوم السابق على آخر مرة جاء فيها بينى وكان آدم على قيد الحياة . عاش ايضاً ثلاث ليال أخرى . أواه وأى ليال كانت هذه ! هل تخبره بذلك ؟ سوف يسألها من اين تدرى بذلك ، وكان عليها ان تشير الى روزا ، فاذا كانت هى قد أدلت فى التحقيق بأقوال مناقضة ؟ كم كانت حمقاء اذا أخفت عنها الأمر ... حمقاء ؟ كلامها الذى قالته لها هذا المساء وتذكر على الأخص قولها « ليس لك قانون » لا تميزين الخير من الشر ، اينما حللت جلبت الفسق والمجون ، اوه ، يا الهى ، لو كنت قد أخطأت فلماذا يدفع غيرى ؟

– سيدتى ، لا أعرف لماذا تبكين . أجزم لك انه لا يستحق ذلك . لم يكن لك صلة بهذا الرجل الحثالة . ترديت فى اغراء عابر سبيل ، وليس فى ذلك ما يشين ، فالأمر انسانى للغاية ، ولو عرفت فى كم من العمليات القذرة كان

ضالعاً لقلت حمداً لله انه من على وجه الأرض اختفى ، وبالنسبة لكالويانوس ، مهما احاطت به من شبهات ، فأنني احتفظ بوجهة نظرى . اليساريون ينتقمون على نحو مختلف . انهم يقتلون ، ولكنهم لا يقتلون سوى الخونة . ليس بمستبعد ان يكون قد قتله بعض من تجار السوق السوداء أو من القوادين . الا تريدين ان تفتحى لى صدرك ؟

انزاحت السحب التى كانت قد حجبت القمر ، وظهر الأن رأس وينتر ملتصقاً بركن المشربية . كان يجاهد كى يطل الى الداخل ، ولكن ايمى عملت حسابها كى لا يتبين منها سوى ما هو أسفل الركبتين وقد تجلت اذناه الكبيرتان فى الضوء ورديتى اللون . وسمعته يتنفس بصوت عال كتنهيدة ممتدة عميقة .

- اذا كنت قد فقدت مفاتيحك استطيع ان اجىء اليك من باب الخدم . لا تتركينى بالخارج اكثر من ذلك فقد القى البعض فى مكان ما هنا احشاء اسماك وقد اصابتنى الرائحة بالدوار منذ ان جلست هنا .

قال ذلك بصوت مرح اما ايمى فقد راحت مستندة الى مرفقيها تنظر الى البوابة السابحة فى بهاء السماء الفيروزية الفضية . وقد بدا القمر فى انحداره مثل قطعة كبيرة من عملة قديمة ، متآكلة عند الحواف ، بينما بدت البوابة مثل حصالة ضخمة . جمال العالم - موت ، ذروة العشق موت القرين - موت ، السوط - موت .

- مستر وينتر بأسم المسيح المصلوب ، ما الذى جاء بك الليلة ؟

صمت .

- من الصعب ياسيدتى ان تطلبى منى ان أقسم لك بذلك . كنت أتوقع

ان يكون استقبالك لى مختلفاً عن ذلك . لم اكن اتصور انك منى ستعرفين بما حدث . ولكن اقسم لك اننى لم احضر من اجل هذا فقط ... والحقيقة اننى للأمر الآخر الذى جئت من اجله كان بأمكانى ان انتظر للغد ايضاً . هل ستفتحين لى الأن ؟

– وما هو الامر الأخر ، يامستر وينتر ؟

– قائدى عهد الى ان اسألك عما اذا كنت قد قلت شيئاً لكالويانيس عن مهمة زوجك .

– سؤال غريب . وانى لأعجب كيف دار بخلدكم شىء كهذا .

– هذه مسائل تخص العمل ، ولكن الأن وقد بدأت ... بالنسبة للجريمة ليس هذا من شأننا ولتتول السلطات المحلية انهاءه على ان الشخص الذى ابلغ الجنرال بأمر القبض على كالويانيس وهو على ما يبدو من العسكريين ايضاً ، اضاف انه منضم الى مجموعة صغيرة من اليساريين ومغرم بك ، ويجدر أن تعلمى ايضاً انه فى احدى المنشورات التى وزعها بعض المتطرفين اليونانيين تلميحاً صغير ليس الى شخص زوجك بل الى دلالة المهمة المكلف بها . من المفهوم ان هذا يمكن ان يكون مجرد افتراض جزافى من عندياتهم ولمجرد الشوشرة . وهو ما ليس مستحباً . إننا من حيث يوجد السيد بويتسبرج نوافى بأن احدى السفارات ، ولنقل أنها من سفارات الحلفاء ، عرفت فيما يبدو الغاية من مهمته ، لأن تلك السفارة تتابع خطولته عن كثب . ولهذا ، فقد دار بخلدنا انه ربما ...

– هانز فى خطر ؟

– مبدئياً ، كلا ان الخطر الذى يواجهه أقل على كل حال من الخطر

الذى يواجهه المحاربون على الجبهة .

– هل سيطرتم على كل امكانيات الهرب ؟

–ليس كلها ، بل على قسط معقول منها ! فضلاً عن انه لم يكن لدينا الوقت لذلك لم يسأل النقيب كورتماير بعد .

– ثق اننى لم اتكلم قط عن هذا الأمر مع أحد ، ولا حتى مع بينى . منذ اليوم الذى سافر فيه هانز ، وفى النزل هناك ، الجميع يعتقدون انه سافر الى القاهرة ، ولا شىء اكثر من ذلك .

– اشكرك ، يا سيدتى . والأن هل أستطيع ان أدخل ؟

– اضحى الدخول فكرة متسلطة عليك ، على ما أرى .

– انا فى عذاب ، يا سيدتى . لم يحدث قط ان احسست بركبتى ترتعشان الى هذا الحد . منذ الساعة التى انصرفت فيها الغسالة التى تعمل طرفك ، اقاوم الاغراء . ما عدت احتمل المزيد .

– اننى افهمك ، نحن الكاثوليك وحدنا نعرف المتعة الحلوة المريرة للخطيئة . اسمع ، لو فتحت لك الأن ، سأفتح .. انت محق بالنسبة لأدم ، كنت أحبه ! هل تستطيع ان تحضر غداً ؟

– سوف استطيع ، ولكن كيف سأحتمل الى ذلك الحين ؟

– طابت ليلتك ، يا مستر وينتر .

– ما دمت تريدين ذلك .. من الأفضل ان انصرف . آه ، نسيت شيئاً . لو استدعاك رئيس الشرطة . اطلبى ان أحضر التحقيق . سوف تحتاجين الى .

– لن أنسى ذلك . اشكرك .

– عفواً ، انه مبتز رهيب .

– آه ، الهذا ؟ طابت ليلتك .

– هل رأيت القمر ، هذه الليلة ؟ ما الذى قاله لك ؟

– طابت ليلتك .

– طابت ليلتك ، مادامت تحتملين العزلة ... طابت ليلتك .

كانت تشفق عليه ، ولكن ماذا تفعل . لم يكن بالأمكان ان تجعله فى اول لقاء يمسح عن جسمها الدهان ! كم من دموع تحتويها كلمة العزلة « مادامت تحتملينها .. » انها اصعب الكلمات على الشهوانين المشتاقين . ما من شئ يملأ تلك العزلة لا الخيال ولا الاحلام . لو لم يكن قد قال ذلك الكلام السمج عن أحشاء السمك ربما كانت ستلين له . مضى منصرفاً الآن ، محنى الرأس ، قصير الساقين ، مترددا ، يركل حصى الحديقة ناقماً . أغلق وراءه باب السور الحديدى ومضى مبتعداً وحيداً ، وتركها هى ايضاً وحيدة

دارت ايمى زاحفة على بطنها . لمست بقدميها المشربية ابعدت رأسها عن الاريكة وأحنتها كما لو كانت تريد أن تقبل بلاطات الأرض الرخامية . يا ايتها المياه التى تغطيك اريج الزنابق الذهبية ، يا ايها البجع المنتشى بالقبلات . اواه يا آدم ، كم كان توحدنا كاملاً . ابدا لن يستطيع زوجان غيرنا ان يعرفا الاسرار التى عرفناها معاً . الشهوة والأشتياق معاً كان ينبعثان من جسدك بتدفق وبطلاقة مثل ينبوع ماء يتجدد مولده لحظة موته

ذاتها ، بكل حكمة وتمكن دائم ومتكرر مثل فكرة المشربية التى من جزئية الى جزئية ، وبكل رهافة ، تمضى وتتماوج فى وله دائم ومتجدد ، تتلوى وتتعانق الوحدات وفقاً لايقاعها الخاص ذاته ، ذلك الايقاع الذى يبعث فيه النغم لحظة موته ، تلقائياً منهجياً ، منقاداً دون انقياد نبيلاً ومحتوما دائماً ، وتبعث فيه الحياة باتجاه ما لا بداية له ولا نهاية ، فى بهجة ابدية ، وانتشاء متيم ، أواه ، يا أدم ، كم انا معترفة لك بالجميل ، اذا لم تشعرنى بأى تعاسة أو ندم .

مضى القمر فى مسيرته ، يجذب من على الرخام البساط الخيالى مرتفعاً به الى اعلى ، ناقلاً اياه الى الأريكة . نهضت ايمي مدت ساقها الطويلة المتوترة كى تلمس ضياء نجمية ، ولكن النجمية اختفت . حاولت بساقها الأخرى مع نجمية أخرى . رفعت ركبتيها ودفعت بجسمها الى الوراء أتت بالخطوة الأولى . فى انصرافه داس هيبيريون على ظهرها بخفية الملتهبين . من أجل هذا لم تفض وشاحها حتي لا ينتشر شعرها علي خصرها . راحت ترقص علي ايقاع رغباتها المتماوجة مثل المشربية .

- ١٨ -

يمكن للمرء ان يكرس ذاته كلها لفكرة نبيلة وعادلة والا يحيا ويتنفس إلا من اجلها ، ومع ذلك يمضي يخادعه من مكان ما بداخله شخص آخر لا يكف ابداً عن أن يحلم ويبني آمالاً ، يفرح ويتعذب بمفرده واستقلالاً وخفية تقريباً عن قرينه الايديولوجي . هذا ما كنت افكر فيه وانا انظر الى سحنتي في المرآة . كان شاربي قد بدأ ينمو من جديد ، واذا بي وانا اجتهد كي أعيد الى جانبيه بعض التناسق أضبط نفسي متسائلاً عما اذا كانت أيمي وقد مشطت شعري الى اعلى هكذا ، ستعرفني تواً متى قررت ان اذهب ؟ لا ادري . راجعت بفكري كل ما أتيته بعد الظهيرة . حسناً ! كل شيء تم من آجل هذا الهدف دون أن اعرف . منذ وقت مبكر توقفت عن الكتابة على الآلة الكاتبة . اعدتها الى مكانها في مخبئها مع الستنسل والورق ، ودخلت تحت الدش ومضيت أدعك جسمي بشدة ، حتى كاد جلدي يتهرأ . وعندما انتهيت من ذلك عدت الى الاستحمام ، ودعكت جسدي بالصابون من البداية ، وعلى الأخص تحت إبطي وبين فخدي واصابع قدمي وخلف الأذنين وفي كل موضع اخر بالإمكان ان تتراكم عليه روائح عرق أو قذارة . ثم اخرجت من دولاب نينا ثيابي الداخلية القليلة ، واخترت بتأن اكثر غياراتي تماسكا . اين تلك الايام التي كانت الغراب تخيط لي الازرار خفية ! كنت احلق ذقني بينما كان همي منصرفاً الى جواربي وقد بقي افضل زوجين منها بدون غسيل ، وما كان الوقت يتسع لأن تجف لو انني أقدمت على الغسيل الان . واذ مضيت في تقصياتي قلت لنفسي ان ما أتخذت من قرار يرجع الى الاقوال الغامضة التي سمعتها من آدم في محل

بقالة جورجى ولابد ان نفسى الأخرى كانت قد خططت لقرارى منذ ذلك الحين أو بعبارة أخرى بأي كيفية أدخل دون ان يلحظنى احد الى السراى القديم . درت دورة فى اعقاب دورة نازلاً التل الصغير الذى يحمى الحدود الجنوبية للبستان المنزرع بأشجار التوت . سوف أذهب بوازع من الاهتمام بايمى ، كى أتأكد مما اذا كان قد أصابتها حقاً تلك الأمور المريعة التى كان يصورها لى خيالى ، وعند اللزوم أمد لها الحماية او على الأقل أقدم لها عونى . ولكن خلف كل هذا كان يكمن ذلك الجانب من ذاتى المكبل بالنفعال والشهوة ، الذى كان يأمل انه مهما استحالت اليه الاحوال فأن اللقاء سيتم على الفراش – ولهذا فقد كان يتهيأ للقاء كعريس ! وفوق كل ذلك كان هناك ذلك الجانب من الذات الذى يريد أن يخدع الايديولوجى . وكانت ذاته فى هذا الجانب تقول له انه قد مضت ايام كثيرة ، ومادام ان الحظ او الصدفة لم يهيأ ان يلتقيا مصادفة فى احد المقاهى أو محلات الحلوى ، فقد وجب الاقدام على مزيد من الجرأة للتعرف على ما وصلت اليه مهمة هانز فى انقرة . وقد كانت الصحيفة التى جلبتها نينا معها من ورديتها الليلية تقول أن أول امس الثانى من يوليه سقطت أخر قلاع سيباستبول وقد حرك هذا النبأ من آليات المخطط . وهكذا وراء التضافر مع اولئك هناك فى تلك الجبهة ، الذين كانوا عزلاً يتصدون لطوفان الهتلرية ومضت مكافأة المجاهد : جسد ايمى الذهبى ، عاريا ولدنا مثل دمية عشق يابانية . أواه ، كم كان يمكن لمن كان فى حالتى ان يجرؤ على الكتابة فى « المجاهد » ؟ وماذا كانت الصفحات التى ادبجها فير كلمات ، كلمات عاجزة ومزيفة ! واذا لم يبن للعيان هذا منذ اول وهلة ، الن تنتهى هذه الكلمات الى افساد معنويات جنودنا ؟ كيف كان بامكانى ان أشد من أزر الابطال المتواضعين على بلوغ نصر فى هذه الحرب الملتبسة ؟ انا ... ودميتى !

بالعار ! ولكن بالله لحظة ! اكان يجب ان تصدر النشرة ؟ اجل كان يجب ذلك ، ولن يتأتى ذلك الا لقاء كفاح مرير مع ذاتي . كى اتحاشى الفساد الذى اخشاه . والدمية ؟ حسناً فلتمضى تلمع فى الغسق البنفسجى ، بابتسامتها الغريبة . وفى النهاية فما من أحد يراها سواى !

وهكذا رتبت الأمور مؤقتاً ، وكانت اتاهب للنزول ، عندما دق جرس التليفون . لم يكن الرنين على النحو المتفق عليه ، ولعله شخصاً يطلب نينا ، قلت لنفسى فالامتنع عن الرد ، ولكن البواب الذى كان يعرف اننى لم انزل بعد ، ولا شك انه رآها وهى تصعد ، ظل يدق التليفون . رفعت السماعة : فقال لى بالانجليزية « صديق آت اليك » ووضع السماعة وبعد قليل سمعت المفتاح يدس فى طبلة الباب بشكل حازم ، ويدار فى ثقب المفتاح كان الرجل الصغير ومن ورائه غاريلاس .

قال هذا :

- حسن ان وجدناك . جئنا فى زيارة .

لم أكن انتظر هذه الزيارة ، وتعكر مزاجى ، وذهب الاستجمام بالصابون وغيار الملابس ادراج الرياح ! قلت لنفسى « لو لم نكن سندور حول آفاق السياسة ، فسنمضى على الأقل حتى منتصف الليل » خلع الرجل الصغير قميصه وعلقه فى دولاب نينا . ثم جلس على الأريكة الصغيرة ، وطلب من غاريلاس ان يجلس الى جواره .

- الا تقدم لنا كأساً من الشراب قبل ان نبدأ ؟

وقال الرجل الصغير :

- قدحاً من القهوة ، قدحاً من القهوة .

قلت :

– سوف أغلق النوافذ تنفيذاً لتعليمات الاطفاء . سوف نشعر بالحر قليلاً ، ولكن لا مفر من ذلك ، مادامت السماء ليست مقمرة الليلة مما يهدد بالغارات .

ذهبت الى غرفة النوم . اسدلت الستائر السوداء ، وخلعت نصف ملابسى ، ثم ذهبت الى المطبخ واحضرت فناجيل واطباقاً صغيرة . اشعلت الموقد ووضعت الأبريق بالماء كى يغلى . راح الرجل الصغير يتابعنى . لمحت فى نظرته غيرة من دخولى وخروجى فى أرجاء الشقة ، كما لو كنت صاحبها ، ومحاولة لاستنتاج ما هو اكثر . وكنت اجيب عليه بتصرفاتى « ليس عليك الا ان تسألها هى . عندما تلتقيان اما منى فلا تنتظر اجابة »

احضرت القهوة ، وطبقاً من اطباق نينا كى ينفض فيه رماد السجائر ويلقى أعقابها . واخرج الرجل الصغير من حذائه ورقة ، كان لونها من لون الفسدق ، وبسطها . كانت العدد الاول من « المقاتل » . الان فحسب رأيتها مطبوعة .

– برنامج اليوم أولاً : سيباستبول ثانياً : تعليقات « المقاتل » ثالثاً : تحركات الكتيبة ، رابعاً : الواجبات العاجلة . هل هناك شىء أخر ؟

– ومقال « آفاق الموقف الدولى » اليس على صفحات العدد ؟

نظر الى ببرود . بادلته النظر ملتزماً تحفظى . قال :

– دعك من هذا ، شىء أخر على أن افعله الليلة . يجب ان انصرف خلال ساعة .

وابتدرنى غاريلاس :

– اما انا فسأبقى . لست بحاجة الى .

عدنا الى محتويات العدد . سأل الرجل الصغير عما اذا كنت اعرف الاخبار بشأن سيباستبول . وازاء اجابتى رجانى ان اكتب « بضعة سطور حماسية وقوية ، على نحو يخلص الى ان التضحيات لم تذهب هباءً ، لأنها افضت الى تعويق الاعداء ، الى آخره .. وبعبارة موجزة ان الهتلرية قد اندحرت . تذكرت راشيل وتصورت كيف اننى من خلال العاطفة التى ولدتها فينا كتبت نصاً بسيطاً وصادقاً . ومع صمود سيباستبول تعالت من جديد صيحات المعاناة الانسانية فى وجه الطغيان ، كما حدث بالنسبة لموسكو العام الماضى . وقال غاريلاس :

– لا تقل له اكثر من ذلك . انه يجيد الكتابة عن هذه الأمور .

قاطعه قائلاً :

– ومن اين تعرف ذلك ؟

– اقول لك اننى اعرف . ستقرأ فى العدد الجديد عن مثل هذه الامور ، وسوف ترى .

– هل طبع العدد الثانى ؟

– من بعض النواحى . كلما ننتهى من موضوع اطبعه وامضى الى أخر .

كانت ساق الرجل الصغير ترتعش بعصبية منذ أن جلس الى الاريكة ، وكانت تنتفض بين الفينة والفينة ، وكانت المنضدة الصغيرة وما عليها من

فناجيل تتراقص . وكان يبدو كما لو كان يسير واقفاً فى محله .

- عليك ان تقوم بالعمل من البداية . الا ترى يا فاسيلى ان الورق غير مناسب؟

- ألأنه أخضر ؟ ان الورق يمتص الحبر على نحو ممتاز ، ويبدو الكلام واضحاً . الورق الأبيض غير متوافر . لا يصرفه الانجليز لأحد إلا فى اضيق الحدود ، ولصحفهم هم فحسب ، ولم يبق لهم منه إلا ما يكفى لمدة شهر واحد من ارسالية فنلندية ترجع الى عام ١٩٤٠ .

- ليس بالامكان ذلك ، يا رجلى العجوز . ان هذا سوف يلفت الانظار الينا . كيف استطيع ان اشرح لك ؟ منذ العدد الاول ثارت ثائرة الانجليز . فشرعوا فى التحقيق . أين تعتقد ان اناسنا يقرأون النشرة ؟ فى الخنادق ، وخلف اشجار البرتقال ، وليس الواشون بحاجة الى الاقتراب ، فأن اللون ينبئهم بالأمر تواً !

واجاب فاسيلى بأننا بالمال نستطيع ان نفعل شيئاً آخر . وقد كان لدى الفرنسيسكان فى مطبعتهم كمية من الورق الأبيض لأجل الطباعة على الرونيو . والصعوبة هى المال ثم الشبهات التى نجلبها علينا اذا اشترينا كمية كبيرة من الورق دفعة واحدة . تذكرت الجنيهات التى كانت تدخرها الأم ماريتولا . والى ذلك الحين ، كنت اعتزم ان أتركها للعجوزين للأنفاق منها على احتياجاتهما ، ولكننى لم أقل شيئاً لأن ذلك كان سيقتضينى أن اعطى تفسيرات . سوف أذهب ذات صباح الى يافا فى زيارة خاطفة لأخذ تلك الجنيهات ، واسلمها الى غاريلاس موضحاً له من أين اتيت بها . سأل الرجل الصغير عما اذا كنا قد طرحنا الموضوع على اصحابنا فى اورشليم ، وأوضح غاريلاس اننا تلقينا اجابة سلبية . انهم يواجهون

الصعاب ذاتها .

– اذن ، فلن نضيع وقتنا . الى العمل ! فلنشكل مجموعة من ثلاثة اشخاص . هذا يكفى . واحد تتوفر لديه عربة نقل . تعرف من أقصد . وواحد قوى البنية كى يحمل بالات الورق ، ويسدد اللكمات عند اللزوم . سأرسل اليك بأحد المصارعين القدامى من يونانيى مصر . متوحش هو ، لكنه ساذج بعض الشيء ، فأحترسوا منه . وواحد يعمل حداداً ولدينا هذا الرجل ايضاً . . بحار يوجد فى حيفا . على شريطة الا يبحر الاسطول فى هذه الآونة ! أما انت يافاسيلى فسنحاول العثور على انسب المخازن لذلك . سوف ارسل اليكم بهؤلاء الاولاد مساء الأحد . اتفقنا ؟

– سوف يتوقف الأمر على أى مخزن سنجد . لو كان ليهودى ، فالأفضل ان يكون دخولنا اليه يوم الجمعة ، اما اذا كان لمسيحى فليكن ذلك يوم السبت ، اما اذا كان المخزن لتركى ، فلا اظن ان لدينا متسعاً من الوقت لذلك .

قلت :

– مهلكما . فلنفترض ان المال توافر لنا . عندئذ سوف يمكننا الذهاب بشكل رسمى بعربة النقل ، ونشترى الورق من الفرنسسيكان . سوف نتركهم يعتقدون اننا انما نشترى الورق للكتيبة ، وعندئذ سوف نحصل على تخفيض كبير ، ليس علينا إلا أن نغير من لافتات السيارة .

– واين سنجد مائتى جنيه بهذه السرعة ؟

– اتعهد باقتراضها ثم نقوم بسدادها فيما بعد عن طريق جمع تبرعات .

سأل الرجل الصغير مقطباً حاجبيه :

- من الهواء ستقترضها ؟

- كلا ، بل من غيره .

وقال غاريلاس :

- لو كان في خلدك العجوز حاجي فاسيلي فلا تعول عليه . ان بيته موضوع تحت المراقبة .

تساءلت دهشاً :

- وانت من أين تعرف حاجي فاسيلي ؟

- بأي اسم اقمت في نزل اليهودية ؟

سألته :

- ولماذا تريد ان تعرفه ؟

- لأن الشرطة عثرت على ثيابك في مغسل حاجي فاسيلي .

- وماذا في ذلك ؟

- يعتقدون انك قتلت زوج ابنته ، وهم في اعقابك .

صدم الرجل الصغير المنضدة بساقه ، ولكننا حمداً لله كنا قد خلفنا الفناجيل فارغة .

- قلنا يا فاسيلي الا نخرج عن محتويات العدد . كنت اترك هذا الموضوع للمنوعات .

قلت :

– مهلك . تقصد آدم ! أبهذه السرعة اجهزت عليه ، يا غاريلاس ؟

اجابنى كما لو كان قد سقط من حالق :

– انا ؟ وما الذى فعل بى ، هذا التعس ؟

– الا تعرف من هو آدم . انه القواد الذى اراد أن يلصق بنا عند جورجى .

صاح فينا الرجل الصغير :

– لعنة الله عليكما ! فى الظلام تتحركان ، ايها الاحمقان . الم أقل لكما ذلك ؟ وها انتما تتصرفان كما يعن لكما .

كان غاريلاس يريد ان يقول شيئاً ، لكنه كان يمضى فى الاحجام . لعله تذكر اننى طلبت منه فى تلك الليلة ان يعيرنى مديته ، ولابد أنه يرتب على ذلك الكثير الآن .

قال لى :

– إسمع ، يا سيميونيدس انك متورط فى الامر تورطاً سيئاً . ومن الأفضل ان تقول لنا ما تعرفه ، كى نتخذ نحن بدورنا احتياطاتنا .

– عليكما أنتما ان تقولا لى ما نما إلى علمكما . عن جريمة القتل هذه لم أسمع شيئاً .

تكلم الرجل الصغير قائلاً :

– سنقول لك . تلك الرومانية التى من طرفك ارسلت لنا تقول ان كالويانوس الذى نعرفه مطلوب من أجل مقتل فلان ، وان ثيابه عثر عليها عند العجوز ، وان عليه ألا يقترب من أية امرأة من اللاتى يعرفهن لأن

بيوتهن جميعاً موضوعة تحت المراقبة . وإنها لمسألة قذرة . هذا ما قالته لنا . لا شيء اكثر من ذلك ، وقد جئت مع غاريلاس كي نلحق بك قبل ان تنزل .

– قابلت حاجي فاسيلي في فبراير الماضي ، وهو صديق عائلي قديم . جدي وجدتي مولدان هنا . رجوته ان يحتفظ لي بملابسي العسكرية ، وعندما قررت العودة إلى الجيش كنت اعرف اين كان يخبئها . ذهبت الى هناك وغيرت ثيابي . وكان العجوز متغيباً في يافا . اما آدم فلم التق به في بيته قط . ولم يحدث ان تعارفنا .

– كيف كنت تعرف انه هو عندما رأيناه عند جورجي ؟

– كيف ... كنت قد رأيت صوراً له في بيت حماه .

نظر الى غاريلاس ، محدقاً في عيني . لم يكن يصدقني .

قال الرجل الصغير :

– حسنا ، اننا متأكدون من انك لست ضالعاً في هذه المسألة . رأيت الطبيبة قبل ان أجئ إلى هنا ، انك في اليوم الذي حدثت فيه الجريمة كنت جالساً تكتب على الآلة الكاتبة حتى التاسعة . وفي التاسعة والنصف قابلت غاريلاس ، وسلمته اوراق العدد الثاني . وقد حدث القتل فيما بين الظهر وما بعد الظهر ، ولكن لعلك تعرف الدوافع على ذلك .

قلت له متوتراً ، وقد تبينت انه عاد إلى تحرياته عني :

– وبأي لغة قالت لك الطبيبة ذلك ؟

اجابني بخشونة :

– ليس ذلك من شأنك . كى تطلب الرومانية ان نحذرك من التردد على أى من النساء اللاتى تعرفهن ، فان ذلك يعنى أن النمساوية ضالعة فى الأمر .

– ربما عنت رابيسكو بذلك نفسها أو صاحبة المنزل الذى تقطنه .

– انت لا تعرف ، أو لاتريد أن تفصح عما تعرف . لكن هذه ليست مجرد مسألة شخصية : ان كل جهاز النشر فى خطر .

لم ينزل غاريلاس عينيه من على . كان يبدو عليه عدم الارتياح ، وانه يشاركنى فى معاناتى .

– لا أعرف .

– حسنا ، كما تشاء . بطبيعة الحال انت لن تتحرك من هنا . سوف تتولى الطبية الاتصال بغاريلاس ، اما عن شراء الورق ، حدد يافاسيلى اليوم ، واتصل تليفونيا بحيث يعرف ، دون ان تنسى ما تعارفنا عليه ، هيه ؟

– هناك مشكلة الاكل . سأنزل ليلاً وسوف اتخذ الاحتياطات كافة .

– سوف تحضر لك الطبيبة طعامك . تعرف انه ليس علينا فحسب ان نحمى شخصك بل والبيت كله ، والمنظمة .

ابتدرته قائلاً بجفاء :

– فلنعد الى محتويات العدد .

– نعانى كثيراً من حدة طبعك ، ولا نعرف الى اين سيوصلنا تعكر مزاجك !

واثناء حديثه ذاك ، راح يحرك ساقه بعصبية شديدة ، كما لو كان يقطع الاميال الأخيرة فى سباق للدراجات .

طلبا أن ننتقل الى الموضوع الثانى ، ولكننى عدت بهما من جديد لموضوع « المقاتل » وفيما عدا لون الورق ، هل هناك ما تريدان اضافته ؟ قال الرجل الصغير عن النشرة انه لا بأس بها كعدد أول ، ولكن هناك بعض نقاط الضعف يمكن اصلاحها مستقبلاً . وسألت ما هى على وجه التحديد ؟

– الثرثرة الزائدة فى المقال الافتتاحى . على سبيل المثال اعرف بعضاً ممن لم يقرأوه . ان الملم بنى وطننا بالقراءة قليل وتفزعهم المقالات الطويلة .

اما غاريلاس فقال :

– كانت لى بعض الانتقادات أول الامر ، ولكننى أرى انك قد راعيتها فى العدد الثانى . كما اننى مدين لك بأن اصارحك بشىء ، قرأ ضباط الحامية النشرة ، وكانوا يقولون « هذا قلم قوى . لا بد انه لواحد ممن أوفدهم كانيللوبولوس فى الآونة الأخيرة ، وها هو الأن ينقلب عليه » .

– لا تنخدع بما يقال يا فاسيلى . وعلى أى حال ، فأنهم لا يخطئون كثيراً فيما اجروه من تحريات عنا .

طلبت ان يقولا لى انا ايضاً عن هذه التحريات ، وكيف تقبل الناس النشرة . وشرعا يحكيان لي . تحدث الرجل الصغير بتحفظ ومواربة ، كما لو كان هذا الموضوع لا يخصنى . اما غاريلاس فقد مضى يحكى بأنشراح وتحمس اكثر ، مما جعل انفعالات السرور تسرى الينا سريعاً

وعلى المنضدة الصغيرة الحافلة باقداح القهوة الخالية ، راحت تتوالى المعلومات وتتجمع هناك متواصلة مثل قشر الفسدق فى رقصة مجنونة . ومن جديد عشت لحظة من العواطف الغامرة . ذات صباح فى باريس ، وانا انزل من غرفتى فى ساعة مبكرة كانت اشجار القسطل فى طريق آرجو مغطاه بأوراق خضراء صغيرة وكانت البراعم قد تفتحت فى الليل . كان شهر مارس يقترب من الانتهاء ، اذكر ذلك ، ومنذ ذلك حين يختلط عندى مقدم الربيع بهذه الرؤية للون أخضر غيرمتوقع ، على جذوع رمادية ، وأغصان ناحلة لا زالت تلفها حركات شتائية قانطة ، بينما فوق ذلك كله تنبسط سماء لؤلؤية مراوغة الضياء ، ويعكس أسفلت الطريق الندى شذرات من تلك السماء ، هنا وهناك ، فى برك جد صغيرة من المياه الساكنة .

جرى توزيع النشرة بمهابة فى الليل ، قامت مجموعات خاصة بتعليق هذه الاوراق الخضراء بلون الفسدق على اشجار البرتقال ، فى أفنية كل بيت ، وعلى اشجار الأوكاليبتوس فى معسكر حديرة ، واشجار الأرز فى مرجيوم . وثبت بعضها على الخيام فى كفاريونا ورفح . كما الصقت على بيوت تولكاريم الصغيرة . وفى القاعدة البحرية بحيفا وزعت النشرة علناً فى وقت الافطار . وقد وجد الضباط جميعاً نسخة تحت أغطية كل منهم . وسقطت نسخة مدير المخازن من جيبه عندما أخرج منديله ، كان قد قرأها كلها . فى اربعة وعشرين ساعة من الحدود التركية الى مصر ، اجتاحت اليونانين قوة غير معروفة بدلت من أحوالهم . كفوا عن اعتبار أنفسهم لاجئين ، وزايلهم الاحساس بانهم مخذولون متخلى عنهم ، واستعادوا افضل ما فيهم وهو الايمان الذى اضاء الدنيا ايام حملة البانيا . كل هذا بغير ما شئ سوى ورقة خضراء . راح الرجل الصغير يدلى بملاحظاته قائلاً لم يكن

الفضل فى ذلك الى مجرد الورق ، أو اللون ، أو حتى الكلمات المطبوعة ، بل كان ذلك الدليل الحى على وجود تنظيم يعرف ماذا يريد : هذا ما اجج ذلك الحماس كله « سوف اقوله لك بالكلمات ذاتها للاجئ من ساموس : كنا ايتاماً ، يا صغيرى لم نكن نعرف الى اين نذهب ، ولا ما سوف يضحى عليه مصيرنا ، ولا من نصدق ، وكل ما حولنا خداع واكاذيب ! اما الان فنحن نعرف ماهو واجبنا ، الى اين نذهب ، من الذى يناضل ، ومنذا يعرقل الجهود ، نحن نعرف ، الاسباب ، ولدينا نوراً يضئ امامنا ! »

ولا بد ان وضاءة هذا النور قد غمرت وجهى ، لأن الرجل الصغير توقف عن اندفاعه الحماسى ليقول لى :

– منذ اول يونية ، والآلية جاهزة . تأخر النشر شهراً بأكمله بسبب عنادك . كنت تختبئ ، وعندما وجدناك استقبلتنا بالسباب . إحسب كم خسرنا طوال هذا الشهر ، فكر على سبيل المثال فى النحو الذى كنا سنستثمر عليه خيانة طبرق وسترى كم هى جسيمة المسئوليات الواقعة على عاتقنا . هاك ما تقودنا اليه الاعصاب المتوترة . والآن ، سوف تفسد كل شئ بهذه الحكاية القذرة .

كان يحاول استفزازى ، لكننى لم اترد فى الشرك . هذا فضلا عن اننى كنت أود ان اسأله كيف كان يمكن ان يكون كل شئ جاهزاً مادمنا حتى اليوم نبحث مشكلة الورق ؟ ثم أى نوع من الجهاد ذاك الذى يتوقف كلية على مزاج فرد واحد ؟ ولكن ضياء الربيع الخضراء المباغتة راحت تملأنى تماماً . كنت أحس بأن ثمة شيئاً ينبت على غير هدى بداخلى . أحسست بجسدى يهدأ ، وروحى تستعيد سكينتها . تحسنت ونسيت حبى الصغير الخاص وطموحاتى . ما عاد يعنينى سوى الغاية والنتيجة . وجدت

نفسى حصاة صغيرة فى لوحة الفسيفساء التى على أهبة الولادة . وليس ذلك لأننى حررت « المقاتل » بل لأن القليل الذى كنت أقدمه كان له من الأن هدف ، منفعة . وقد نما الى علمى شئ على غاية من الأهمية ، ألا وهو ان الاستاذ الكبير مبدع هذا الفسيفساء لم يكن لا الرجل الصغير ولا غاريلاس ولا أحد منا ، بل كان هو مثلنا الأعلى ذاته الذى يدفع بنا الى ان نكرس افضل ما فى ذواتنا للمعركة وتحرير اليونان .

قال غاريلاس انه سمع اثنين من ذوى الاشرطة ، واحد منهما من قدامى انصار متاكساس والآخر عجوز من الاحرار ، يتناقشان حول هذا العدد ، ويقولان انهما وجداه يفيض بالوطنية ، ويعربان عن نيتهما الاتصال بهؤلاء القائمين على النشر .

قلت :

– هذا أمر طبيعى ، الآن وقد احسا بعريهما انتابهما الخوف .

قال لى الرجل الصغير مصححاً :

– لا تأخذ الأمور على هذا المحمل . كل من يرتضى القتال نضمه الى صفوفنا .

قلت :

– لكننا لو فتحنا الباب على مصراعيه ، سوف يغرقوننا ويتصرفون على هواهم !

– لا تخف ان « المقاتل » تقوم ايضاً بعمل آخر ، فهى تفضح الأعمال الشائنة وتحاكم مرتكبيها . انها المحك كما يقولون . ذلك الذى يتفق معنا فى كل النقاط ينضم الينا .

– ولكن كيف تريد شخصاً مثل ياسيمى ، على سبيل المثال ، وقد أدرجته بالحروف الكبيرة فى قائمة المتعاونين مع العدو أن ينضم الينا ؟

قال غاريلاس :

– ياله من كلام كبير .. خلص الناس الى نظريتهم دون انتظار . هؤلاء لن ينجوا من الاعدام عندما يحين التحرير .

كان هذا سوء تأويل أفضى اليه انشغال جمالى لاخراج النشرة ! كان يجب توقع كل شئ ، والسهر على كل شئ .

وانتقلنا الى الموضوع الثالث . قال الرجل الصغير ان طيران الحلفاء تلقى تعزيزات جوهرية اثناء الطلعات التى لا تنقطع ليل نهار ، كان يقصف الخطوط الأمامية للعدو وقواعد امداداته . فى الوقت الحاضر الالمان مسمرون فى العلمين . وعلى غير سابق انتظار ، بدأت تظهر على الالمان بوادر ضعف غير مفهومة فى أسراب المطاردة وقاذفات القنابل ، بينما لا يتوافر للحلفاء التفوق العددى فحسب ، بل وايضاً كفاية الأداء العالية ، وفى اغلب الظن ، فان الالمان ينقلون طائراتهم الى الجبهة الروسية ، واذا صدقنا تصريحات جوبلز ، فأنه يبدو أن هجوماً يعد على باكو مستهدفاً آبار البترول .

– العلك ترانا قد صعدنا الى عربات النقل ، متأهبين لاجتياز الفرات والإلقاء بأنفسنا فى احضانهم ؟

وقال غاريلاس :

– لا اريد مزاحاً من فضلك يا سيميونيدس . كل شئ بأوانه .

مضى الرجل الصغير قائلاً ان ثمة معلومات مختلفة تجعله يميل الى

الاعتقاد بأن الانجليز يعدون لهجوم مضاد ، رغم انه لا يرى فرقاً جديدة من المدفعية أو المدرعات تصل بعد . وعلى كل الاحوال ، فبالنسبة لكتيبتنا الأولى ، فان الاستعدادات للتحرك قد بدأت بالفعل . وتلقت وحدة الصاعقة الامر بالرحيل ، وهى فى طريقها للنزول من سوريا . ولكن هذا لم يكن بأمكاننا ان نكتب عنه فى « المقاتل » : سوف يجد الفاشيون فى ذلك تكئه لاتهامنا بأننا نفشى تحركاتنا للعدو ..

– ... يحتاج الأمر هنا الى حذر شديد يا سيميونيدس كيف ننجح فى التعبئة النفسية لابناء وطننا ؟ يجب ان نصعد ونعزز كلمتنا الافتتاحية بعنوان مثل هذا « نريد ان نحارب » ويستتدبع ذلك منطقياً تكثيف التدريب ، السيطرة الكاملة على الاسلحة الحديثة ، الفعالية مائة فى المائة للقتال ؛ عدم التوقف عن التدريبات حتى فى حالة التحرك والانتقال ، ان نضغط على الضباط ، فاذا سئموا ذلك أو أبدوا عدم الاكتراث نتدرب بأنفسنا . كلمة الافتتاح : ان نصبح اكثر الوحدات صلاحية للقتال فى الجيش الثامن . يكفى هذا الأن ، وسوف نرى .

طلبت الكلمة :

– لو بدأت الكتيبة فى تحركاتها فعلاً ، سوف يحتاج الأمر ان تجدوا من يحل محلى فى عملى « بالمقاتل » وانى أقترح أن تعطونى احداً كى أدربه من الآن .

وقال الرجل الصغير :

– ان عملك ليس هناك فى الكتيبة ، بل الى جوار الآلة الكاتبة .

– اننى لا أقلل من أهمية الآلة الكاتبة ، ولكن مكانى فى حالة القتال هو

بين الجنود . لا أريد ان اتحول فجأة الى جندى فى المؤجرة !

تدخل غاريلاس قائلاً :

– هذا صحيح .

– كيف تقول له ان هذا صحيح يا فاسيلى ! جندى فى المؤخرة ! أن المهام المتواضعة لا تروق له . يريد أوسمة .

– ليس من أجل هذا ما يطلبه . أنا أعرف ذلك .

– ما أن يطل برأسه خارجاً ، ستمسك به الشرطة العسكرية . انه مطلوب بتهمة قتل . فهمت ؟

– لا تقلق بالك . سوف الجأ الى التنكر وسأتسلل مثل نفر بسيط . يكفى ان اكون مع الفتيان .

قال الرجل الصغير :

– آه ، بالطبع ، سيادته يريد أن يموت .

ان أموت ؟ متى حدث ذلك ، قبل كم من السنين حدث هذا ؟ كم بدت ايمي بعيدة عن تفكيرى ، ومنذ الليلة التى قضيتها ساهراً على حافة جرف القديس سابا وعواء الضباع فى الوادى السحيق يفد الى سمعى !

كم من تغيرات جلبتها الورقة الخضراء من ربيع متباطئ ... كنت أريد أن أعيش ، ولكن ان اعيش أخذاً قسطى من الأخطار ، مثل حصاة فى الجمع الذى استرد فجأة احساسه بالمسئولية وصار جيشاً .

قال غاريلاس :

– لا أحد يريد ان يموت .

– هو يريد . اسمع كلامى انا .

ادركت ان نينا قد حدثته عنى ، لم أغضب . كنت عاجزاً عن ان اغضب منه الآن ، ولكن مرارة كبيرة ملأتنى . ترى متى ، متى يعمل كل منا على احترام خصوصيات الآخر ؟ اكان التحدث على هذا النحو عنى من متطلبات المعركة والنصر ، اكان ضرورياً لذلك النبش بأصابع قاسية هكذا فى احاسيس المقربين الينا ؟

بأسم أية حتمية ، وأي مبدأ اخلاقى يحدث ذلك ؟ ماذا كان على ان أقول الأن ؟

– لا أعرف كيف خمنت ذلك ، ولكنه صحيح . اننى فى لحظة من اللحظات رغبت فى الموت اما الأن فقد انتهى ذلك .

– ألان آدم ما عاد هناك ؟

قلت لنفسى « مانولى تشبث بشجاعتك ، انه لا يفعل ذلك من أجل أشباع رغبته فى تعذيبك . انه جراح ويبحث بمبضعه عن جذور المرض ، كل ما هنالك انه درس أصول التشريح البيطرى ، ولم يتعلم فائدة التخدير .

– دع المسكين لآلامه ! انك أزهقت روحه !

لم اكن اتوقع من غاريلاس هذه الصيحة ، ولا من الرجل الصغير ما أعقب ذلك من كلام . فتح فمه ، وكف عن الرفس بقدمه . وجال بنظراته بينه وبينى . أغلق فمه ، وهز كتفيه ، مثل ذلك السائق الذى ذهب بنا الى القديس

سابا ، وضحك ضحكة مفتعلة .

قال :

- فلننتقل الى الموضوع الرابع .

عندما انتقلنا الى الموضوع الرابع ، رأينا بالأجماع انه كان قد استوفى بحثا خلال مناقشتنا للموضوعات الثلاثة السابقة . على ان الرجل الصغير اراد مع ذلك ان نجمل ما تقدم بأيجاز . انتهى ذلك ايضاً ، ونهض .

قال غاريلاس :

- مشكلة واحدة لم نعط لها حلاً . ماذا سيأكل هذا المسكين الليلة ؟

- لو ان الطبيبة عادت مبكراً ، سيرسلها تشترى له شيئاً من الطعام . وانت يا فاسيلي تحاش الذهاب والاياب . لا يجب ان تحضر إلا في حالة الضرورة القصوى .

- ليس بالكارثة ان أبقى ليلة دون طعام . الذى يصيبنى بالجنون ان اصير من جديد محاصراً واسيراً ، ولا أعرف هذه المرة كم من الوقت سيقتضينى ذلك . عند الغراب ، كنت على الأقل اخرج بالليل وأسرى عن نفسى . إرسلوا إلى كتباً .

- وجه طلباتك إلى الطبيبة ! انها هى التى ستكون من الأن فصاعداً عينيك وفمك وأذنيك ، بل ويديك وركبتيك أيضاً ، هيه ، هيه ، سلاماً .

قال غاريلاس عندما انصرف الآخر :

- ماذا لو اطفأنا النور ، وجلسنا فى الشرفة . اننى أختنق هنا .

لم يكن لدينا سوى مقعد واحد . أخذنا وسادتين ، وخرجنا الى الشرفة لم تكن على الاطلاق كما تصورتها . كانت محاطة بحائط ارتفاعه مترين وكان يحجب عنا الرؤية من كل الجوانب .

قلت :

– انظر . لماذا فعلوا ذلك ؟ بئر مربع حوائطه مكسوة بالورق وأرضيته مغطاة بالبلاط . ومن فوقه السماء تماما مثل زنزانة .

ربما تم ذلك من قبل الحفاظ على الخصوصية ، كي لا يرى الجيران سراويل قاطني الشقة المجاورة وملابس نومهم عندما ينشرون الغسيل .

– بل وحتى لا تراها الضباع . الصحراء تحيط بالمكان هنا ، يا رجل !

– عندما بنيت العمارة ، لم تكن الحرب قد قامت بعد ، كما انها ستنتهى فيما بعد وتبقى الحوائط ...

كانت هذه ميزة غاريلاس الكبيرة . كان على الدوام متشبثاً بالحاضر ولكن روحه كانت تتطلع إلى الامام ، الى المستقبل . كم سيكون جائراً ان يقتل هذا الرجل ... كانت البلاطات نظيفة ، ولهذا وضعنا عليها الوسادتين بلا تردد وجلسنا . شبك كل منا ركبتيه بساعديه ، ورفعنا أنظارنا إلى السماء . كانت النجوم تتلألأ في سماء زرقتها اميل إلى السواد . مثل احجار كريمة تناثرت بلا عناية على قماش ثمين من القطيفة . عثرنا على الدب الأصغر والدب الاكبر ، ولم يكن غاريلاس يعرف الكثير عن الفلك .

– أرأيت الاعيب الرقابة التي يلعبها معى ، أقصد الرجل الصغير ؟

– عدت تخطئ من جديد ، يا مانولي ، انه لم ير الطبيبة اليوم على الاطلاق . لقد اخذته من التاكسي ولم أتركه خطوة واحدة . وما الذى كنت

تريده ان يقول لك ؟ اننا فى الثانى من يوليه وقد عانى الكثير من انتظار خروجك كى يصعد للقائها ؟

– هذه هى الأمور التى لا تعجبنى منه ، اكاذيبه الصغيرة ، وطمس الحقائق ، والمقالب التى يدبرها . وهذا كله فى أمور لا تستدعى ذلك .

– ما عاد بالامكان ان تغيره . ثم هل أنت متاكد انه ليس بحاجة إلى كل ذلك ؟ هو أكثر دراية بذلك منا . كان مطارداً من القانون سنوات ، ومضطراً ان يقيم من حوله حزام حماية بالاستعانة بألف عنصر من عناصر ملتبسة وزائفة . وهكذا فى الوقت الذى يظنونه في كوكينيا كان هو فى الحى الآخر المقابل غوفا ، وذلك على سبيل المثال . اما انت الحديث العهد ...

– ولماذا انا حديث عهد ؟

– الم تختبئ فى نزل يدخل ويخرج منه شياطين كثيرة ؟ الم تكن تتصرف فى ذلك تصرف الهواة ؟ !

– اسكت ياڤاسيلى ، لا تذكرنى بذلك . مهما قلت ، فانك لن تخرج من دماغى على أى حال انه تحادث بشأنى مع الطبيبة وإلا فمن اين عرف إننى كنت أريد ان اموت ؟

– أكنت تريد الموت ، حقاً ؟ الا تخجل من ان تقول ذلك ؟

– فعلاً ، اننى اشعر بالخجل الآن ، وقد عثرت من جديد على مكانى الصغير بين رفاقى . تبينت كم كنت أحمق ، وقد اخطأت طريقى طوال هذه الشهور هائماً مؤرقاً بمخاوف غير لائقة ، ومكبلاً باحزان مضحكة . كل ذلك كان فى اصله تلك التنافسية غير المفصح عنها مع الرجل الصغير . اخذت الأمر مأخذاً شخصياً ، ولو اننى لم اكن أقول ذلك . ثم اكتشفت ان كل ما

حولى نخر فيه السوس ، وان مامن أحد يحارب الفاشية من قلبه . فقدت ايمانى . تعلقت بوهم مؤداه العودة إلى اليونان . وحتى فى بلدى هذه ما عدت اثق . كما اننى بسرعة فائقة تركت نفسى انزلق إلى الرومانسية والحب دون ان افكر بعد ذلك فى الحال الذى ترديت فيه ، ولكن عندما لا يستند المرؤ بقوة إلى ايمان ، فأن أول خيبة أمل تكفى للالقاء بك فى بحر كبير من اليأس . وقد كانت تلك الحيوانية التى رأيتها على فراش أماليتسا سبباً فى انهيار ثقتى الأخيرة فى الانسان . انها حقيقة اننى ما كنت أرى إلا قلة قليلة من الناس . وما أن توطدت معرفتى بفاريلاس ، حتى بدأت أفيق . وانى مدين له بتصريحه ذاك . فقد اعترف بلا تردد بانه كان مخطئاً فيما تصوره عن « المقاتل » والضباط . كم تصبح الاشياء كلها اكثر بساطة ونقاء عندما تتوافر الثقة .

– اننى أخجل من نفسى يا فاسيلى ، ولكنها كانت حقيقة اننى كففت عن الاعتقاد بأننا نؤدى عملاً مجدياً هنا . على ان نجاح « المقاتل » من ناحية ، وصحبتك من ناحية أخرى اعادانى إلى صوابى .

– لا تتسرع ، يا صديقى ، لأنك ستلتقى بما يرتفع بك إلى فوق ، وايضاً بما ينخفض بك إلى أسفل . ما الذى يعنيه النجاح ؟ انه يعنى انك من الآن ستبدأ المتاعب . يجب ان تعد نفسك لتلقى اللطمات ، والوقوف فى وجه الضغوط والمساومات والخيانة . ضع نفسك موضع الانجليز ، هؤلاء لايريدون أن يصنعوا منا جيشاً حراً . يريدوننا مجرد حراس لليونان . ولكن ليس جيش تحرير . ولكن هاهم الفدائيون يحاربون ويجب ان نحاج الانجليز نحن ايضاً باستشهادات وتضحيات وعندئذ فهم ملزمون بأعطائنا سلاحاً ، وتحديد جانب من المعركة نخوضها . قل اننا انتصرنا ، ونواصل التقدم .

« المقاتل » تصدر بأنتظام ، تؤدى مهمتها وهو ما يعنى بعبارة أخرى تحول هذه الفرقة من مجرد معسكر إلى جيش وطنى مسيطر على مقليده . أريد أن أقول يطيع معسكر التحالف فى شأن مسائل الحرب ، ولكنه فيما يتعلق بداخليات اليونان يقول له مهلك قف ، هنا الشعب هو السيد المطاع ، ما الذى سيفعله الانجليز ؟ امامهم طريقان اما ان يسرحونا ولكن كيف يحدث هذا ، بعد كل اكاليل النصر هذه وامجاده وعندئذ فبماذا سيجيبون على أسئلة الحلفاء ؟ أو ربما القوا بنا إلي عملية انتحارية ولنقل مثل بير حكيم ، فلا يبقى منا إلا القليل بعد ذلك ، لا تتعجل اذن . انك تريد ان تحارب ، هذا افهمه واناصرك فيه ولكن فلتدرك جيداً انه لا زال امام « المقاتل » الكثير مما يمكن ان يؤديه . فلنفتح عيوننا جيداً حتى لا نقوده الى خواء .

كنت أقول لنفسى «انظر إلى هذا المواطن من بيريه... ياله من دماغ !» لم أر من قبل بهذا الوضوح موضعنا قط . كان بإمكان الرجل الصغير ان يضيع ساعات من وقتنا ، ونخرج من الاجتماع منتفخين مثل ديوك رومية بعبارات طنانة وشعارات ، ومع ذلك لا يكون باستطاعتنا – لو طلب منا – ان نعطى فى بضع كلمات المنظور الذى أجمله غاريلاس .

– لا أدرى ، ولكنه يبدو انه قد خمن ماذا يدور بخاطرى فغير مسار الحديث .

– أريد أن أسألك شيئاً ، لكننى أخشى أن تسئ فهمى .

– ماذا تريد أن تسأل ، يا غاريلاس ؟

– من أين كانت تعرف آدم هذا ؟

– ضبطته .. كان عشيقاً للنمساوية التى حدثتك عنها .

– تصور .. زوجة وزير على علاقة بهذا القذر . ولكن ما ذنبه هو ، لابد انها هى التى كانت تريد ذلك .

لم أجب بشئ .

– قل لى شيئاً آخر ، انت الذى جبت انحاء كثيرة من هذا العالم . هل هن جميعاً على هذه الشاكله فى أوروبا ؟

– لماذا يا أخى تلجأ إلى التعميم ؟ ألا يوجد عندنا نحن ايضاً ، فى الاوساط الراقية ، بل وايضاً فى الاوساط الشعبية ... ألا يوجد المثل ؟ أعنى العديد من أعمال الاغتصاب وعشق المحارم والانحرافات ؟

– ربما لا اقول العكس . ولكن اذا انصرف الكلام إلى ما لدينا ، فاننا نكتفى قائلين انطلق الحيوان من إساره ، ونغلق باب الحديث على ذلك . تعرف هذا الذى يحدث عندنا . ولكن هؤلاء المتحضرين ، ولنقل عنهم ذلك ، يخيل اليك انهم يأتون بذلك شيئاً فى منتهى الصعوبة ، والندرة . يلفونه بالأسرار والابتهالات كما لو كان أمراً لا ترقى عقولنا إلى مستوى فهمه وإدراكه ، بينما المسألة فى جوهرها واحدة .. قذارة وبهيمية .

ومن جديد كان يلقننى من خلال ذلك درساً ، ولكن أهو محق فيما يقول ؟ كل هذه المعاناة ولذة تلك المعاناة ، ميتافيزيقيا الخطيئة تلك ، ألم تكن من رفاهيات الانحدار والتحلل ؟ كان يجب على ان افكر فى الأمر .

– قل لى ايضاً . الازلت تحبها ؟

– ماذا أقول يا فاسيلى ؟ يبدو لى اننى احبها .

– لماذا ؟

– أواه ، ومن استطاع ان يجيب على سؤال مثل هذا ؟

– مانوس ؟

وفد الينا صوت نينا مغرداً . كناقد تركنا عامدين ابواب الحجرة والشرفة مفتوحة ، حتى تجدنا لو حدث ان جاءت .

كان غاريلاس ونينا يعرف كل منهما الآخر . تصافحا في العتمة ولزما الصمت . كانت نينا قد تعلمت كلمتين أو ثلاثة من اللغة اليونانية فحسب .

– قل لها ان تنزل وتشترى لنا على وجه السرعة عرقاً واكلاً خفيفاً . سوف نقضى هنا وقتاً طيباً .

وراح يدعك يديه سعيداً بالهدوء والألفة اللذين اشاعتهما هذه الليلة التى سنقضيها معاً نتسامر ، ونحتسى قليلاً من النبيذ .

- ١٩ -

قضت إيمى ليلة هادئة . نهضت مرتين لتدخين سيجارة . وشرب الماء . وعندما شعرت أن النوم يفارقها بدأت فى إحتساء الويسكى . شربت من الزجاجة رأساً . لا تستطيع أن تتذكر ماذا حدث . تذكر فقط إنها وجدت نفسها على أرضية « براتر » المتحركة وحيدة ، بينما البيانولا الآلية تعزف لحنا منسيا من الحان المازوركا ، والفوانيس الملونة تتراقص من حولها . القت بنفسها أرضاً وهى تفتح ذراعيها وساقيها ، وتضغط الأرض بشدة ببطنها العارية . ولكن القرص الضخم راح يعجل من دورانه ، ويلقى بها فى رفق بين الوسائد السوداء فى وجود عدمى قلق محموم . ومن العمق البعيد ذاك جذبها الصوت الرتيب لماكينة مركب صغير . كان ثمة من يطرق الباب باصرار . أسرعت شبه واعية تصيح «انه جاء ! » من ؟ المطرود أم المسافر ، أم التائه ، أم الميت ؟ ولكنه كان أحد رجال الدفاع المدنى جاء يطلب منها ان تطفئ الانوار الكهربائية فى غرفتها فقد توسط القمر السماء وسطع نوره ولا بد انها نسيتها مضاءة عندما قامت لاحتساء الويسكى . عادت الى نومها فى الحال . عند الفجر ، الساعة التى اعتاد أفضل العشاق ان يفترقا فيها ، سمعت صوتاً يوقظها سائلاً « منذا الذى خنق آدم ؟ »

- لعلها روزا ، على ما أعتقد ؟

انتفضت ناهضة ، واغلقت فمها بيديها . كانت وحدها فى الغرفة . يا للمصيبة « أهى روزا إذن ؟ » أتي الويسكى فى فترة النوم القصير الذى

القى فيه بها أثره هتفت « القاتلة » ثم بمزيد من الايجابية « روزا » قالت لها يوم الجريمة انها ستتغيب نصف ساعة حتى تجهز الصيدلية لها المرهم بل وأخذت بعض النقود لتدفع اجر التاكسى . ولكنها بدلاً من ان تعود فى العاشرة عادت بعد الثالثة ورغم كل ما كانت تعانيه من ارتفاع فى درجة الحرارة واحساس بالصداع والدوار لم تكف عن مراجعة الساعة كانت قد ادخلت الرعب فى قلبها بتأكيدها ان العلامات لن تزول من على جسمها . وبطبيعة الحال ، عندما عادت بررت تأخيرها بأن الصيدلية أخرتها . ولكن البرطمان لم تكن عليه بطاقة الصيدلية . وتكاد تذكر الأن انها رأت هذا الوعاء على أحد الأرفف فوق سرير الأولاد بغرفتهم هناك فى الحى الالمانى . والأن كيف بامكانها ان تجرى ، أو كيف تنتظرها ؟

أخذت تدخل الغرف وتخرج منها . نفدت سجائرها . أوقدت البريموس ، وصنعت القهوة . كان اللبن قد فسد . وبعد ذلك شعرت بالجوع ، فأكلت ما وجدته متبقياً فى دولاب المطبخ . كانت تصور لنفسها المشهد الذى سيكون لها مع روزا . هل سوف تسقط بين احضانها باكية ، ام انها سوف توجه لها الشتائم وتطردها ؟ ولكن روزا لم تظهر . طال غيابها . وفى التاسعة لم تطق المزيد من الانتظار . أوقدت السخان . دفأت ماء ، والقت بنفسها فى البانيو الذى يتصاعد منه البخار . راحت تدلك نفسها برفق وتبكى . كان المرهم بحاجة إلى تدليك قوى حتى يزول من على الجسم ، وكانت تتذكر يدى روزا الحنونين وتبكى « فالأبق بالعلامات على جسدى . ماعدت اطيق الانتظار اكثر من ذلك » فرغت من حمامها . جففت جسمها ببشكير سميك ونثرت بودرة التلك على جسمها ، والتفت بغطاء من أغطية السرير . مضت الى الباب على أمل ان تكون روزا قد وصلت وتنتظر

لتفتح لها ، ولكن لا أحد جاء . عاودت التجول فى الغرف الخالية ، وهى تجرجر طرف غطائها مثل شبح ميت يجرجر أكفانه . تتوقف أمام كل مشربية وتنسى نفسها . وقرابة الظهيرة فتحت الباب ، على حالتها هذه ، لرابسكو.

– ماذا حدث ؟ أين هى ؟

– إفسحى لى الطريق ، سأقول لك .

كانت قد أحضرت حقيبتين خاصتين بإيمى .

– أرسلتهما روزا لك . لن تحضر . قبضوا عليها .

– إذن ...

لم تكمل كلامها . خارت قواها . وجدت نفسها فى الحضن العطر للوافدة صغيرة القد ، التى سحبتها معها إلى الاريكة . وهناك أخذت تصفعها .

صرخت بالالمانية :

– اماه ، لماذا يضربوننى ؟ هانز !

وعندما عادت إلى وعيها قالت « ياللمصيبة ، ماذا سيكون مصير اولادها والعجوز ، ماذا سيفعلون من بعدها ؟ »

قالت لها رابيسكو :

– هذا حسن الآن .

وراحت تحملق فيها بنظرات متعجبة ، فقد كان الغطاء قد انحسر عن

جسمها وبدا عريها وضاءً جلست إلى جوارها ، واخرجت علبة سجائرها الفضية ، ومدتها نحوها . وتناولت ايمى سيجارة فوراً . واشعلتا سيجارتيهما .

وقالت رابيسكو بصوت ممطوط ، وهى تخرج عامودين غير مكتملين من الدخان من فتحتى انفها :

– مس باتلر ، تلك الجاسوسة القذرة ، وشت بها .

– هل اعترفت ؟

– كلا ، انها تطلق الشتائم فحسب ، تشتم الميت والمحققين والسلطات والمجتمع ، تشتم الجميع . ولكن مس باتلر كانت قد استخلصت من اقوالها شيئاً عندما قالت أول ما بدأوا التحقيق « كلباً كان ، وميتة كلاب لقى . وددت أن أقبـل يـدى من أنقذ الناس من قذر مثله » ومن يدرى ما قالته لها غير ذلك ، عندما رافقتها إلى البنسيون .

– ياله من خطأ مخيف ! ضاع بسببه الرجل ، والآن تضيع روزا .

– ضاع الرجل ، هذا مجرد قول ، ولكن ما الذى نعرفه عن الأسباب .

– ولكننى لم أقل ان روزا هى التى فعلت ذلك !

– هذا أفضل . احترسى فيما تقولين . سوف يستدعيك شقيق الجاسوسة ، ذلك الناصح ! ليلة أمس ، ادى معنا دور شيرلوك هولمز « هذا بديهى ، يادكتور واطسون ، هذا بديهى يا صديقى » حكاية بأكملها . ولم يكن ذلك بفضل ذكائه أو بفضل مجهود بذله ، بل اعتماداً على ما أسرت اليه به أخته « يعود القاتل على الدوام الى مسرح الجريمة » ... فى طريقها لحضور التحقيق الابتدائى ، مرت روزا بحديقة القتيل ، وقطفت من هناك

ورداً ، لمن ؟ بالطبع لمستر باتلر ! ربما من باب التمويه « حتى اذا ما عثروا على آثار اقدام لها هناك وقع لديهم ارتباك . ولكنها ارتكبت خطأ ، الخطأ الصغير الذى يهدم ترتيبات الجريمة الكاملة .» هذا ما كان يقوله لنا ذلك الناصح . عندما جاءت تقطف الورد كانت ترتدى حذائها الجديد ، اما فى المرة السابقة ، مكانت ترتدى حذائها الذى تذهب به إلى العمل . وحتى هذه اللحظة هذا هو دليلهم الوحيد .

– ولكن الحذاء القديم انا التى اعطيته لها .

– دعك من هذا . اسقط الجاويش وينتر عنك كل شبهة ، مؤكداً انك كنت تلزمين البيت ولا تغادرينه اياماً عديدة .

– وينتر ؟ هو أيضاً كان يسأل امس عن روزا .

– هل تحدثت اليه ؟ هل كنت تعرفينه ؟

– كنت قد سمعت به من زوجى ، وقد جاء ليلة أمس يدق الباب ، لكننى لم أفتح له . لم يكن لدى ما ارتديه .

– ياله من خبيث ! ويالها من مصادفة ، ان تأخذ روزا ثيابك كلها ، انه مريض بالزهرى .

أقشعرت ايمى . القت بوجهها فى راحتيها ، وظلت بلا حركة قليلاً من الوقت . ثم قالت :

– اشكرك ، وانا التى كنت اكرهك .

– من أجل كالوبانيس ؟ كانت هذه مجرد نزوة ، رهان ، وسرعان ما نسيته .

ولما رأت إيمى يحمر وجهها قالت :

– يجب ان نتحرك من أجل روزا . أمل ، أن تكونى واثقة منى الآن . هل تعرفين انه فى يدك ان تنقذيها . ولكن الأمر سيحتاج إلى تضحية صغيرة . سوف نتحدث عن ذلك . سنضع خطة من أجل ذلك ، ولكن لعلك تريدين ان ترتدى بعض ملابسك الأن .

لفت إيمى نفسها جيداً بالغطاء ، واخذت الحقيبتين ، وذهبت إلى غرفة النوم ، وقبل ان تضع شيئاً على جسمها نظرت إلى نفسها فى المرأة الكبيرة من جديد .

سمعت رابيسكو تقول باعجاب :

– هذا هو الحال ، اذن !

كانت قد اسندت رأسها الى ضلفة الباب ، وراحت تنظر إلى ظهر ايمى .

– من هو ؟

إيمى لا تنطق بكلمة .

–الأن فهمت . راح الهمجى ضحية .

– ولكن لماذا ، لماذا ؟ هذا خطأ عظيم . كان عليها أن تسألنى مسبقاً .

– إنك تحرقين الشمعة من طرفيها . سوف تذبلين سريعاً .

إحمر وجه إيمى فجأة . أتسعت عيناها ، مثل زهرتى عباد الشمس تبرقان بوميض ذهبى بين جدائل شعرها الكستنائى النحاسى المحلولة .

واعترفت لها إيمى قائلة بكبرياء :

– هذا يعجبنى !

– ايتها المجنونة ! ومن لا يروق لها ، ولكن ما من واحدة تفصح عن ذلك ابداً ، ولا حتى همساً . لقد ضعت إن فعلت ! ستكونين مثل الجريح الذى يجرجر نفسه فى البيداء المهجورة ، بينما تجذب اليه رائحة الجرح الصقور التى تحوم فى السماء من حوله . سوف يهجم عليك الرجال . انهم يشمون ذلك ، ويتصايحون مخبراً كل منهم الآخر عنك . يتجمعون من حولك ، وينقضون عليك ، مثل قطيع مفترس ، ولا تنتظرى منهم فهما . انهم لا يشفقون على احد ابداً .

وعند الظهر ، جلست الصديقتان الجديدتان فى المطعم العربى ، بشارع الليمبى . كانت إيمى تشعر طوال الطريق بشئ مثل الدوار ، وقد خيل اليها ان كل اولئك هناك ينظرون اليها . كانت قد نسيت حتى المشى . مضت تتأرجح كما لو كانت لا زالت تسبح فى ثوب نومها القطنى الشفاف .

– هل نسيت نفسك ثانية ؟ حذارى من الصقور .

ضحكتا من أعماق قلبيهما ، وهما تتبادلان نظرة تفاهم وضاءة .

ربحت كثيراً بمعرفة ميشيل . كانت خفيفة الظل ، وان إتسمت بالقسوة على الناس ، وفى أمور الجنس كانت ماجنة . كانت تريد ان تكون استضافتها لإيمى هذه فى الأستوريا ، ولكنهما كانا سيجدان هناك اندريانو ، وكانت ايمى تمل صحبته ، ولم تكن تعرف كيف تواجهه بعد كل هذه الأيام وهذه الاحداث غير السارة . قالت ميشيل بالفرنسية :

– هذا المسكين ضحية بدوره لمنتدانا .

– أي منتدى ؟

– سوف أخبرك عنه عندما نجلس . هل تحبين السوفلاكى ؟

بعد ذلك دخل من خلفهما إلى المطعم ملازم يونانى مكفهر الوجه ، دائب التفكير . جلس بعيداً مولياًلهما ظهره . فجاءت الفرصة وتحدثنا عن مانوس . وأعترفت إيمى بأنه لم يقبلها قط . ولامت ميشيل على انها بإفصاحها عن علاقتها مع بينى تسببت فى ابتعاده عنها .

وقالت رابيسكو :

– يالك من مسكين يا كالويانيس ، ضحية أخرى أنت من ضحايا منتدانا .

حانت الساعة لتعرف اذن إيمى عن التنظيم الغامض الغريب الذى بالتوازى مع تنظيمات أخرى عديدة كان يحكم بدوره اورشليم وقد تحدد مجال نشاط هذا المنتدي فى التعامل مع أكثر العواطف انسانية ، أى مع الحب الحسى .

وقالت رابيسكو :

– بدأنا منذ عام تقريباً ، على أثر أمسية مضجرة فى مكتب الجنرال . وكان اجتماعاً أسبوعياً روتينياً لما كان يطلق عليه « التنسيق وتبادل المعلومات » ولكننا أطلقنا عليه أجتماع « حك الجمجمة » ، فالقائد المسكين رجل مثقف ، وعجوز طيب يعانى مما يثير الشكوك حول اصله الانجليزى : اعنى انه لا يملك روح الدعابة وعندما أقول نحن أقصد ضابط اتصال من كل قوة من قوى الحلفاء بالأضافة إلى مندوب عن السلطة المحلية ومستر انتونى باتلر ، وبطبيعة الحال لم يكن بيننا أى روسى . اما أنا فكنت أحضر

بصفتي عضواً بالمكتب الثاني للفرنسيين الاحرار برتبة رائد . وبطبيعة الحال ، لأننا لم نستطع لأسباب مختلفة عديدة ان نعتبر القائد ممثلاً لبريطانيا العظمى اكتفينا بالجاريش وينتر . ولكن ايضاً ما كان سيكون ثمة منتدي بغير هذا الرجل فمن غيره كان الملهم والمنظر لها ؟ فضلاً عن انه كان شديد الفائدة بسبب خبرته لسابقة ، ففي لندن كان يعمل مخبراً خاصاً : مسائل طلاق ، واجهاض ، وخيانات زوجية .. لا تضحكي ، سوف ترين كم هو شخص معقد . ويجدر ان ابادر بأن أقول لك ان احد اقتراحات بيتسيكوفيتش ، ضابط الاتصال اليوغسلافي بشأن قبول هانز بوبرتسبرج في المنتدي قد حورب بشدة ، وعلى الأخص من جانب وينتر ، لأن الامر يثير قبل كل شئ مشكلة تتعلق بالقانون الدولي (بالنظر الى عدم وجود قوات مسلحة للنمساويين الاحرار ، ولا حكومة لهم بالمنفى ، ولا حتى وثيقة من قبيل معاهدة تحالف) ثم بعد ذلك لأنه على الرغم من كونه كاثوليكيا ممارساً للشعائر مثله ، الا انه يثير اعتراضات كثيرة عليه خاصة ببعض معتقداته . وباختصار فان بوبرتسبرج لم يكن في نظر وينتر من اولئك الذين يحاربون الشيطان وجهاً لوجه بغية الانتصار عليه ، بل كان من اولئك الاخرين الذين يديرون له ظهورهم ويلوذون بالخداع كسباً لسكينتهم . وكخلاصة لذلك ، فان عضو المنتدي لن يأمن على نفسه ، وسوف يكون المنتدي كله عرضة للاخطار . وقد اقتضانا الامر بضعة ايام كي نكتشف ان معارضة وينتر تلك كانت مشوبة بالأهواء . وقد كان احد بنود النظام الاساسي غير المكتوب لمنتدانا – فلنقل – يوصي بحسن معاملة النصف الحلو لأعضاء الجمعية . وبمقتضى هذا البند كنت ستصبحين محرمة على وينتر وعلى غيره من الأعضاء . وقد أقترح هذا البند الأمير چان ليستوفسكي – وكان مندوب اتصال بولندياً وزوجاً للحسناء جرازيا

ليستوفسكى - العشيقة الرسمية للجنرال سيستكوفسكى اقترحه فى الاجتماع التأسيسى . ويمكن ان تدركى أننا من منطلق التضامن بين الزملاء قبلنا هذا البند بلا مناقشة ، كى نتفادى المآسى الأسرية ، ولكننى بذلك أمضى سريعاً ، وقد تختلط عليك الأمور من جراء ذلك . فمعذرة .

قالت ايمى مغتبطة ، وقد نسيت كل شئ حتى موضوع روزا ، بل وانفجرت ضاحكة :

- هيا ، تكلمى بحرية ، فأنا اتابعك بصورة رائعة .

- ذات ليلة ، ونحن ننصرف من احدى جلسات « حك الجمجمة » صعدنا الى السطح حيث كان وينتر قد اعد مجلس شراب على عجل ، أو بعبارة أخرى وضع ستة كراسى ومنضدة صغيرة من البامبو مسروقة من حديقة احدى الفيلات . وراحت زجاجة وسكى تنتقل من فم الى فم . ولم نكن نجرؤ على اخراج أقداح خشية ان يفاجئنا الجنرال . وما عدت أذكر من منا عاد الى الموضوع الذى حدثنا عنه رئيسنا مراراً وتكراراً : موضوع معسكرات الابادة النازية . آه ، اذكر . كان هو الأمير ليستوفسكى . وقد كان هو الذى زودنا بالمعلومات ، بفضل أحد رجال الجنرال أندروز الذى كان قد وصل عن طريق طهران . وعندئذ قارن صديقك كورتمير بين المدينة المقدسة التى كانت ساجية تحتنا بأديرتها واسواقها وحواريها واكواخها ومتاريسها - قارن بينها وبين معسكر للاعتقال . ولا بد انك تعرفين ولا شك ان الكباريهات والبيوت السرية قد جرى اغلاقها . وقال وينتر « وهنا ، عاليا ، برج مراقبة هذا المعتقل » وراح يقارن بين عمل كل منا فى مقاومة التجسس وبين أوضاعنا الشخصية ، سجانون ومسجونون نحن فى الوقت ذاته . وكان ثمة وسيلة أصيلة لنملأ أوقاتنا المملة بطريقة مقبولة فى نظره ، الا وهى الافادة

من مواقفنا الخاصة كى نتأمل الاهواء الانسانية . قاطعه كورتمير قائلاً « فلسفة ؟ انى أكره ذلك » واجابه وينتر « بل فلسفة بمعناها الأصيل . بمعنى دراسة ومعرفة يتبعهما تصرف . وكل ذلك بمقابل » على انه فيما بعد ، ونحن نختبر النتائج الأولى للتجربة ، اجرينا تعديلاً على هذا الشرط الأخير ، وبدلاً من المكافآت اقترحنا المراهنات ، وذلك للاسباب الاتية :

أ) تزايد الويسكى ندرة وتزايد شعور الأعضاء بالظمأ .

ب) جعل اللعبة اكثر اثارة ، وتحقيق مزيد من الترابط بين المنتدى واعضائه . وفى الوقت ذاته صوتنا على توجيه توبيخ خفيف الى الجاويش وينتر ، لأنه بمكافآته التى يقترحها انما ينقل الاساليب المطبقة فى مدارس العقيدة ، بل وربما كان يسعى الى تطبيقها علينا بغية ربطنا بفرع من الفروع العتيدة للبابوية . وبطبيعة الحال ، فان ليستوفسكى لأنه بدوره كاثوليكى القى ورقة بيضاء . ولكننا بادرنا أيضاً الى أقتراح ووفق عليه بالاجماع وبمقتضاه نعترف بأن الجاويش وينتر سيكون دواماً الرئيس الأيديولوجى والمنظر الوحيد للمنتدي .

– معذرة يا ميشيل ، وماذا كانت نظريته فى النهاية ؟

– آه يحتاج الأمر الى بعض الانتباه . ها هى المدينة المقدسة لتاريخ الأنسانية واهدافها ، هذه المدينة مقسمة الى أمم ، الى قبائل ، الى اديان ، الى معتقدات ومذاهب ، الى طبقات وفرق ، الى احياء ، واجناس ، ورجال ونساء ، واعمار . هى لوحة من الفسيفساء بالغة التعقيد والتداخل . ونحن هنا عالياً « بفضل وضعنا » نمتلك «الاحساس» بهذه المدينة المقدسة وحواشيها نحن « المخابرات » – هل تفهمين ؟ – نوع من الالهة الصغيرة العارفة بكل شئ ، على حد قول الجاويش وينتر بطبيعة الحال . ولكن مهلك

لحظة . هل قرأت « المراهق » لديستويفسكى ؟ كلا ؟ ولا انا . وعلى أى حال ، فليس هذا بالأمر الضرورى ذلك لأن وينتر قد استمد علمه الكونى من عبارة واحدة فى الرواية وهى عبارة حفظها اعضاء الجمعية عن ظهر قلب ، اجبارياً . وهذه العبارة تقول « تلك الكائنات التى لا تقاوم هى على الدوام متشابهة : انها تعرف ان الهاوية امامها ، ومع ذلك فهى تجرى اليها » وبناء على ذلك فهناك أولئك الذين يقاومون ، وأولئك الذين لا يقاومون . وهذا تقسم للأنسانية اكثر منطقية من ذلك التقسيم الذى تحدثنا عنه . على ان وينتر بفضل خبرته الشخصية والمهنية نجح فى أثراء هذه الظاهرة العلمية بأن اكتشف أو ابتدع سلسلة تفوق الخيال من التفريعات على ذلك . فهناك أولئك الذين لا يقامون ويتظاهرون بأنهم يقاومون . وهناك الذين يقاومون ويتظاهرون بأنهم لا يقاومون وبعد ذلك ضعى الآن فعل «يعتقدون» مكان فعل «يفعلون» وسنجد اولئك الذين لا يقاومون ولكنهم يعتقدون انهم يقاومون ويتصرفون وكأنهم لا يقاومون . هل تتصورين العدد اللامحدود من التنويعات والتفاصيل ؟ انه لشئ فظيع وكامل ويصدق على الكائنات كلها والفئات الاخرى : شعب ، جنس ، عمر ، ديانة ، طبقة ، الى آخره . ولكل ذلك شرط اساسى ، الا وهو ان الهاوية موجودة ، ولكن بسبب هذا نثق فى ديستويفسكى الذى يؤكد لنا وجودها وبطبيعة الحال ، لا بد انه يعرف اكثر منا : وعلى أى الاحوال ، فأن المسئولية عن ذلك تقع ايضاً على الجاويش وينتر الذى هو رسوله على الأرض . ولنأخذ مثالين لنوضح النظرية : انا لا أقاوم ، وأتظاهر اننى أقاوم معتقدة اننى اقاوم . وانت يا ايمى . لا تقاومين ، وتبدين كأنك لا تقاومين وتعتقدين انك لا تقاومين .

– اوه يا الهى ! اكاد اسقط فى الهاوية !

– وعلى حد قول وينتر وليستوفسكي ان هذا الانكار الثلاثي هو الصيغة التي تقود الى الجنة اكثر من غيرها . اما انا شخصياً فلا اوافق على ذلك ، فهناك تناقض جذرى فى التسوية بين الجنة والنار . اتعتقدين غير ذلك ؟ انى لا اصر ، ولكن من الممكن ذلك فحسب . اننى ضعيفة جداً فى اللاهوتيات ! بطبيعة الحال ، فان ما من نظرية تستخلص من الملاحظةيمكن ان توصف بأنها علمية ، الا اذا تأكدت فى وقت من الاوقات بالتجربة ، ولهذا فان الممارسة تتبع الملاحظة ، خطوة خطوة . وبعبارة أخرى ، يتدخل برج المراقبة بعلمه الكلى . ومن الأمثلة على ذلك الشهوات الشرسة التى يعانى منها أعضاء المنتدي ، والخلافات ، والمنافسات ، والصراعات ، والمكائد ، و ... المراهنات . ليس من الضرورى أن أقول إن طبيعة الامور تجعل أغلبية ما يطلق عليه حيوانات تجارب ، عفواً اليس كذلك ؟ ، من النساء . وذلك يرجع لوجود عضوية نسائية صغيرة فى المنتدي . والآن فلنذكر بضعة أشياء عن اللائحة التنفيذية . البند الأول : يترك الاعضاء السياسة وراءهم عند دخولهم الى المنتدي . وأعتقد ان وينتر اقترح ذلك حتى يقيد من حركتنا . فكما تدركين ما كنت أترك تلك الفرص العديدة المرسلة من الله دون استغلالها كى أعارض الدسائس الانجليزية ضد الوجود الفرنسى فى سوريا ولبنان . البند الثانى : ممنوع ممارسة أنشطة فيما بين أعضاء الجمعية ، وذلك ما حاول أن يخالفه أنتونى باتلر ولكنه نال عقابه – .

– كم عدد النساء بالمنتدي ؟

– واحدة ، وربما كان بمقدوره ان يتمكن منى وان يظل ذلك سراً بيننا ، ولكن وينتر حرص ان يبلغنى مسبقاً ان أية علاقة مع باتلر تتطلب إعداداً

كبيراً ، ومشهداً معقداً – مع وجود سكرتيره ذى الشعر الاحمر – مما يجعل الأمر مثل مهمة هرقلية . ولذلك فقد تجنبت خوض التجربة معه . اما انت فللأسف ، سوف يكون عليك ان تتحمليها اذا كنت ترغبين فى انقاذ صديقتنا . لقد تحدث باتلر عنك ، وسوف تكون مشاهدته لونتير يتمزق غيرة ويأساً الذ عنده من مذاق زجاجات الويسكى كلها . هذا الأخير يريدك كمقضى عليه بالهلاك منذ اليوم الذى جئت فيه ، وما دمنا قد وصلنا فلننه موضوع روزا . عندما ننصرف من هنا سنذهب الى الاسكا لنشرب قدحاً من القهوة الفرنسية . ومن هناك سنذهب معاً لنؤدى زيارة ودية لباتلر فى مكتبه . بعد الظهر تبقى اخته فى البيت ، وكى لايتنبه الى اننا متواطئتان سأتظاهر بمحاولة افساد ترتيباته . انت معينة من الـ« أوه . دابليو. دابليو » اليس كذلك ؟ سوف اقترحك محل كورتماير فى الجمعية طالما أنه متغيب وستسألين ببراءة « عن أى منتدي تتحدثان ؟ لابد أن اعرف » بطبيعة الحال ، سيرفض باتلر ، اما انا فسأنصرف بحجة ان احيط بقية الاعضاء علماً بذلك . ستبقيان وحدكما وربما قام بأستجوابك وربما استدعى السكرتير . ستؤكدين له براءة روزا لأن آدم الليلة السابقة على الجريمة قال لك ...

– ولكن هل على ان اخبره بعلاقاتى مع آدم ؟

– وماذا تخسرين ، مادام لا احد فى المنتدي يجهل ذلك ؟

– وبينى ؟

– وهل لديك شك فى ذلك ؟

– أوه ، يا الهى ! بماذا نسمى هذه الكوميديا ... استمرى يا ميشيل .

لا تعيرى الامر اكثر اثاً .

- .. لأن آدم الليلة السابقة على الجريمة كان يقول لك ان بعضاً من البدو من المهربين أو تجار المخدرات كانوا يتعقبونه كى يقتلوه ، وسيشرع باتلر فى التودد اليك ومغازلتك . وعندئذ ، سوف تقدمين له البضاعة التى يطلبها بمكر . آجل ، ولكن على شريطة ان يفرج عن روزا أولاً ، والملف يحفظ نهائياً . هنا ، يجب ان تفرضى ارادتك كاملة : روزا والملف ، و .. لن تكونى ملزمة على ان تخضعى له اكثر من مرة واحدة .

- ولكننى لم أقبل بعد ! لقد أفزعتيننى بذلك الرجل ذوى الشعر الأحمر . بعبارة أخرى ... ما الذى يفعله ؟

- أسمعى . طوال عشر سنوات كنت أحترف الدعارة على ارصفة باريس . وقد رأت عيناى الكثير ، ولكن معاينتك فضيحة الامبراطورية الانجليزية لهو من أندر المشاهد التى سوف يتاح لك رؤيتها . ولكن كيف استطيع أن أصف لك ذلك ، كى ابدد الخوف من قلبك ؟ كلا ، كلا ، لا ترفضى . انه يحكم عليك الحصار . لن يتركك تفلتين ، سوف يحاول اتهامك بانك المحرضة على الجريمة ، وعندئذ ماذا سيكون مصير روزا ؟

- ميشيل ، وأنت مع من تحدثت ؟

- مع وينتر . راهنته على انك ستفلتين منه ولكننى اعتقد انك انت ايضاً الآن وقد عرفت الأمر ستراهنين معى على الشئ ذاته .

- ومع باتلر ؟

- انه سيخسر الرهان ، ولكن كان ذلك الرهان قبل جريمة القتل ولا استطيع ان أغير رهانى الآن .

– وعن مانوس ، هل اجريتم مراهنات عليه ؟

– راهنت على انه سيطردنى من غرفته تلك الليلة الشهيرة وخسرت الرهان . ولست نادمة على ذلك ، ولاشك .

– ومن غيرك خسر رهانه أيضاً ؟

– ماكريديس على سبيل المثال ، المندوب اليونانى . وكان ذلك بشأن آنسة اسمها بوهيم ، فى غرفتك ذات الاكورديون ، كانت تقيم وكان قد ادرجها فى عداد أولئك الذين لا يقاومون ، ويتظاهرون معتقدين انهم يقاومون . ثم تبين انها تنتمى الى اولئك الذين يقاومون ولكنهم يتظاهرون فحسب بانهم لا يفعلون .

– هل كان ماكريديس يعرف بوجود مانوس فى النزل ؟

– كان يعرف ان ثمة من يدعى كالويانوس يقيم هناك ، ولا شئ غير ذلك . سبق ان قلت لك ان السياسة تترك خارج الباب قبل الدخول الى المنتدي .

– هل كسب بينى بعض المراهنات ؟

– رجلك بينى هذا كسب أهم رهان . وكان عنك على وجه التحديد . كان الجميع يرغبونك ، ولهذا فقد دبت بينهم الشقاقات .

– لم تكن صلاحياته كبيرة ، وكان يحتاج الى أخر كى يهمس له بالأسرار ومادام قد استخدم اساليب سياسية كى يجعلنا نجئ من القاهرة ، الم يكن يخالف لوائح المنتدي بذلك ؟

– أوه ، ياللغشاش ! بكل تأكيد . كان ذلك اخلالاً باللوائح . ولو اننا كنا

نعرف ذلك ، لفصلناه من المنتدي .

– وماذا عن وينتر ؟

– أوه ، حتى لو قلت لك ، فأنك لا تعرفين شركاءه . انه ينشط بصفة عامة فى المدينة القديمة وضواحيها ، حيث توجد أديرة . اما انت فقد كنت الاستثناء الأوحد واخفاقه الوحيد ايضاً .

– هل هو مريض منذ مدة طويلة ؟

– اغلب الظن ! وانى اكرر لك انه يتعامل مع اوساط أخرى . ان استعداده النظرى وشغفه بالبحث يدفعانه الى حيث يثير تدخله مآسى اشد تمزيقاً للضمائر ، انه يسعى الى الراهبات ، ويفضل الكاثوليكيات ثم الارثوذوكسيات الروسيات لأن تشنجاتهن تضئ الهاوية – على حد قوله – باضاءات روحية أكثر .

– ولكن الا تكفل الوسائل الطبية الحالية قدراً من الوقاية ؟

– ولكنه لا يريد أن يشفى . الوقاية تقولين ؟ ولماذا تسألين ؟ أوه ، ايمى ! أهو يستهويك الى هذا الحد ؟ سوف يكون ذلك اكبر انتصار لنظريته !

وقالت ايمى ، وقد أحمر وجهها :

– ما هذا الذى تتخيلينه ؟ كنت أسأل ، هكذا ، من باب الفضول .

– فى كل الاحوال ، يجب ان تتخذى احتياطاتك . ماذا لو انتقلت للأقامة من جديد عند فيلدمان ؟

– هذا ما كانت تريده لى روزا ايضاً .

– حقاً ؟ هل تعرفين ، هذا يجعلنى افقد احترامى لنفسى .

فـى الاجتماع القـادم للجمعية سوف اقترح اضافة لنظرية وينتر مؤداها : « كلما ضعفت مقاومة الكائنات ، كلمـا تطـوع اغبيـاء لوقايتهم من التردى فى الهاوية » روزا أول الامر ، وها انا من بعدها الآن ، بل ووينتر نفسه ! سوف تقولين انه كان مدفوعاً بالغيرة ولكن تصورى انه بيديه اقدم على هدم أكبر انجازات حياته . وان ابسط ما كان يتعرض له من خطر على ذلك هو الفصل .

– وما الذى فعله اذن ؟

– عندما كسب كورتمير الرهان ، كشف وينتر على الفور علاقاتكما للجنرال ، وهو بدوره – لفقدانه روح الفكاهة – أسر الأمر لزوجك .

– اذكر ذلك ، ولكن لم يكن هذا هو السبب بالضبط . على اننى لا أريد أن اقاطعك .

– ويبدو ان كورتمير تلقى بذلك صدمة فظيعة عندما سمع بوبرتسبرج يقول له « مع زوجتى ! انت تعرف ... » وقد اثار ذلك صخباً شديداً فى منتدانا عندما جرى الحديث عنه . وقد كنا اتفقنا فيما بيننا على جواز اللجوء الى كل الحيل ، ولكن بينى ادعى ان وينتر استخدم الجنرال كشخصية سياسية لأفساد خططه ، ولم ينكر وينتر ذلك ، وتذرع بأن تدخل الجنرال انما كان من منطلق سياسى ، ولم يكن له ادنى صلة بأنشطة المنتدي . اما فيما يتعلق بافشاء السر الى من يهمه الأمر مباشرة ، أى الزوج ، فان آثاره متوقعة ومحسوبة . وبعبارة أخرى لن يكون لذلك اى آثار . وفى الواقع ، كما يمكنك ان تتحققى بنفسك ، اثبت وينتر انه عليم محنك ببواطن النفس . وقد كان سيدفع غرامة لو انه كان قد بدر من بوبرتسبرج أى رد فعل .

– أمن الممكن ان كل ذلك قد حدث كما تحكينه ؟ متى حدثك عن أدم ؟

– لكننى لا أذكر ما اذا كان وينتر هو الذى حدثنى عنه . الأغلب ان يكون ماكريديس . كنت قد انتقلت وذهبت للسكن عند كورتماير ، عندما أخبرنا انه سوف يسافر لمده يومين الى القاهرة ، وعلى التو ، جرت المراهنات وقد راهنت على كالوبانيس ، وعارضنى بينى . وراهن ماكريديس على رجل من هذا البلد ، دون ان يذكر على أى حال اسمه حتى لا تفسد خطته اما كل من وينتر وباتلر فقد راهن على نفسه . اعترض بينى وسافر بدوره فى اليوم التالى . وفى هذه الاثناء اخبرنا ماكريديس انك تسكنين حى بكير أغا ، ويبدو ان ماكريديس كان قد أسس فرعاً للمراقبة فى الحى اليونانى بأروشليم ، وان كان لا يعترف بذلك ، وكان بالطبع شيئاً مزيفاً ، وهو ما كان من الواجب ان نتوقعه فأنهم هناك محدودون بالمظهر الملموس ، وسواء بسبب السوقية المادية أو بسبب النقص الروحى يجهلون كل تلك البنية الفوقية للمعاناة النفسية ، وللمشكلات الفلسفية والتوق الى الاستقصاء والى معرفة الاغوار الديستويفسكية . ولو لم اكن مخطئة ، ذلك الرجل ابن البلد اعنى أدم بصحبة ماكريديس رأياك ذات يوم فى «الأستوريا » وعلى الفور شخصا حالتك : انت لا ، او بعبارة اخرى انت واحدة من أولئك اللاتى لا تقاومين .

– اذكر ذلك . كان يوم الاحد ١٤ يونية . يوم حاسم ، ولكن الأمر لم يكن بالضبط هكذا .

– وعلى اى حال ، فما ان رحل كورتماير ، ارسل ماكريديس إليك أدم . هذا ما نعرفه ، وكان النجاح الذى حققه كاملاً ! اما من راهنت عليه ، فمن يدرى ، لو انه لم يكن قد تلقى بعد الرسالة التى اخبرته فيها بعنوانك

الجديد ...

ارادت ايمى ان تقاطعها ، لكنها احجمت .

– كان عليك ان ترى نوبة الهستيريا التى عصفت بونتير ! بكى بكاء حقيقياً ، وكان يلطم وجهه وراح يقول انه بخطئه نتيجة رهافة سيكلوجية مفرطة من جانبه ، لم يتوجه اليك الليلة ذاتها لرحيل بينى وذلك كى يترك لك ان تشعرى قليلاً بعزلتك ، وها هو آدم يسبقه ! ومضى يطلق التهديدات . سوف يطلب من باتلر ان يتحرى ماضى هذا السيد ضمن العديد ممن يتحرى عنهم ، ويهمنى ان اخبرك ان باتلر ما عاد يحضر الى اجتماعتنا لأن اللاجئين كانوا يلقون على عاتقه عملاً كثيراً ، أو على الاقل كان هذا ما يدعيه . وفى الحقيقة ، ما عاد يحتمل بيتسيكوفيتش الذى راهن على « الآنسة باميلا باتلر » وقد اثار أخوها المادة الثانية من اللائحة فأخبرناه بالأجماع ان هذه المادة لا تنصرف إلا الى الزوجات . كف باتلر عن الحضور ، وليلة أمس فحسب تمت المصالحة وتجدد رهانه عليك ، ومن الواضح اننا قبلنا ذلك ، فقد كنا ايضاً نجهل حقيقتك انه لا زال فى جعبته ورقة اتهام روزا ، يلعب بها ويربح .

– اذن ، كان بينى في القاهرة عندما أحطتم علماً بعلاقة آدم بى .

– اعتقد اننى قلت لك ذلك من قبل ، كان باتلر آخر من علم بالأمر وقد كلمه وينتر تليفونياً أمس فحسب ، وربما كان ذلك بمبادرة منه هو شخصياً ، أو ربما بأمر من الجنرال . اما بالنسبة لنا ، فقد كنا نعتبر باتلر مقصياً ، ويقول وينتر انه كان مضطراً الى ان يفعل ذلك ، ولكنه لم يبد اسباباً ، وربما كان امر القبض على كالويانيس قد صدر تحت ضغط من الجنرال ، أو ربما كان بقرار اتخذه باتلر ، وعلى أى حال ، فعلى الرغم من ذلك فأن روزا

مقبوض عليها الآن ، فذلك الامر لم يلغ بعد .

– ما الذى فعله بينى عندما اخبرتموه ... بعلاقتى بآدم ؟

– كنا نريد ، أعنى انا وليستوفسكى وبيتسيكوفيتش ان نخفى عنه الأمر . اما ماكريديس ، فقد كان يريد ان ينتقم لنفسه من اخفاقه مع فراولين بوهيم ، او ربما ايضاً كان بحاجة الى الويسكى ولكن باتلر كان يريد ان نطلعه على الامر كى يثبت صحة احد احكامه ، الا وهو ان بينى سوف يواجه الامر بفلسفة ، على الرغم من انه قد راهن ضد الخمسة جميعاً ، وفى الواقع انه أخذ الأمر ببرود كبير أول الأمر « انها فرصة طيبة كى اتخلص من جبل الثلج الذى يكبت انفاسى » ولما كان ماكريديس ماضياً فى مراوغاته ، فقد راهنه على امكانه نقلها منه الى واحد من اصدقائه ، امريكى ، ولكنه خسر الرهان . ثم ما لبث بعد ذلك ان غير موقفه ، وبدت عليه الاعراض ذاتها التى كانت قد بدت على وينتر : أعنى انه افصح عن نوازع كراهية شديدة ضد آدم . وراح يتحدث عن مسدس وقتل .. ومن حسن الحظ ، انهم استدعوه بدوره الى القاهرة وعلى وجه السرعة ، وبفضل ذلك بقيت صفحته ناصعة البياض فى هذه القضية .

خيم الذهول على ايمى ، وراحت تقول :

– اهذا ممكن ؟ اهذا ممكن ؟ ما دمتم قد راهنتم على كالويانيس لماذا اذن تكشفون له عن علاقتى ببينى ؟

– انك لم تفهمى شيئاً على الاطلاق ! كان ذلك من قبل . اسمعى . لقد فقدت رهانى على كالويانيس ثلاث مرات . الاولى : انه سيطردنى من غرفته . ولم يطردنى ، والثانية : انه بعد ذلك لن يطردنى وقد طردنى وكان ذلك فى تلك الليلة التى انتظرك على الاريكة . وقد كان ذلك ما جعلنى اكشف له عن كل شىء ، والثالثة انه سيلحق بك ويجدك قبل ان يدركك آدم ، وها هو لا يظهر حتى الان .

– كيف يمكننا العثور عليه ؟

– هل تريدين رؤيته من جديد ؟

– الأن ؟ كلا ، على الاطلاق . فيما بعد ، فيما بعد بكثير . حقاً ، لماذا اعتبرت اندريانو ضمن ضحايا المنتدي ؟

– لأن باتلر هو الذى كشف له عن علاقات زوجته بالحارس . كان قد تراهن فى هذا الشأن مع وينتر ، اما الباقى فكان يجهله لأنه لم يعد يجئ الى المنتدي ، الا ان يكون قد عرف بالأمر من الجاسوسة أخته . ولكن فى الأعماق ، انت لم تتبينى اشياء كثيرة . لقد تحدثنا طويلاً عما يحدث فى بيت واحد فحسب . لا تنسى ان أروشليم بها ثلاثون الف ساكن ، وربما مثل هذا العدد ايضاً من الجنود ، وكل هؤلاء من حولنا الان ، انها الحروب ، وهل بأمكانك ان تتوقعى غير ذلك ؟ المنتدي برج المراقبة ، وهو وليد هذه المدينة فماذا تريدين منى ان اقول لك ؟ لا أعرف ما اذا كان الجنرال هو الذى يقود وينتر أم ان وينتر هو الذى يقود الجنرال ، ولكن النتيجة أن المنتدي يستخدمهما على أكمل وجه ، حتى اذا كانت لوائحه تقضى بأن تترك السياسة خارجاً ، ولو لم يكن ذلك يناسبهم ، لعملوا على حله . وانه لترف كبير ان يكون بين يديهم المخاطرة بكل هذه الاسرار المنتمية الى الخدمة التى يؤدونها ، وذلك عندما ، على وجه التحديد ، تعلمهم دراسة سيكولوجية الهاوية – ماتعلمهم من خيانات ، ومخاتلات والأعيب مزدوجة ، الى أخر ذلك – تعلمهم اين يكمن الخطر على وجه التحديد .

– ولكن انت ، يا ميشيل مادمت ترين كل ذلك ، لماذا تبقين بها ؟ التقط رزقى ، انا ايضاً . اليست هذه هى الحرب ؟

- ٢٠ -

أروشليم فى ٧ يونيو ١٩٤٣

مانوس ، حبيبى أكتب اليك . عندى أشياء كثيرة أقولها لك . كل ما أعرفه أنك حى ، وأننى لا اتحدث الى شبح . ماذا تفعل ، كيف حالك ، اين انت ؟ علمت أنك جرحت فى العلمين . وأن خطر الموت كان لعدة ايام يسحبك الى عرض البحر ثم يلقى بك من جديد الى شواطئنا ، وينساك هناك . هذا ما اعلمه عنك فحسب . أواه ، كم كان اصدقاؤك قساة القلب ، ولم يكن يريدون ان يقولوا لى اين انت ! احاول ان أتخيل كيف تبدو الأن . هل تركت الجراح ندوباً على وجهك الحبيب ؟ هل عاد لنظراتك تلك الوضاءة التى كانت تمنحنى الثقة فى نفسى ، أم انك يا حبيبى ظللت بعينيك المريرتين غير المكترثتين اللتين كنت اتوسل الى نينا ان تصفهما لى فى فترات خدمتها الليلية ؟ كيف ، يامانوس ، كان لتعارف عابر لم يدم ولا حتى أسبوعين وبلا أدنى قبلة ، اعنى مغامرة قصيرة من مغامرات الحرب فى معسكر مؤقت للاجئين ، حيث ليس بأمكان المرء ان يختار اصدقاءه او الاحتفاظ الى جواره بأولئك الذين يختارهم ، ان يترك كل هذا بيننا ؟ لماذا هذا ما دمت قد اخبرتك بذلك بل انك بسرعة تحققت بنفسك - لماذا ولم اكن سوى نمساوية سطحية وغير اهل لتحمل المسئولية ، متخلفة من متخلفات العصر المنحل لفرانسوا - جوزيف ، على غاية من التقلب ، على غاية من الدلال ، وجد غير قادرة على مقاومة اى رجل نزولاً على اى اشارة رغبة من جانبه - لماذا

رفعت من قدرى وأقمتنى تمثالاً على قاعدة عالية ، لماذا حملتنى مسئولية الأسى والقلق اللذين فى عينيك ؟ هل تعرف ماذا كان حبنا ؟ وحش صغير ، فهد وليد راح يتمسح بركابنا ، ويحمر وئيداً منتظراً منا الأفعال البسيطة الطبيعية التى تهدئ من روعه . ولكننا ترددنا كثيراً ، نسينا اننا نوجد فى معسكر تراحيل ، حيث غيرنا يقرر القادمين واللقاءات والراحلين وفقاً لخطط ما كان بأمكاننا حتى ان نتخيلها ، وفى اللحظة التى ندرك ما يحدث لنا فيها ، يكون الوقت قد تأخر كثيراً ، وانا من جانبى فقدت الفهد الصغير ، اعتقدت انه نجا بجلده فى الغابة حيث مكانه الطبيعى ، ولكن انت خبأته تحت قميصك . وها هو يكبر ويمزقك . لماذا ، لماذا ، ياحبيبى ؟ وانى استحلفك بأغلى مالك فى الوجود ، قل لى بصراحة ، هل كان الامر يستأهل ذلك حقاً ؟

لعلك تذكر عبارة هولديرلين التى قلتها لى ذات يوم " Denn alles ist gut "

اجل ، انت بخير . كل شئ يمر . كل شئ يزول . الاحزان مثل السعادة كلها تتخذ ذات يوم لها فى الماضى موقعاً ، وتمضى الحياة . هذا هو الأساسى ، اعنى التناسق . بالنسبة لى ، كل شئ حسن . كم أود أن اقول ذلك عنك ايضاً . الوقت الأن مساءً . شجرة الأوكاليبتوس اضحت كثيفة الأوراق امام النافذة ، وما عاد بامكانى ان أرى السقف الأحمر للكاتدرائية ولكننى ما عدت بحاجة الى ذلك . فى هذا المهد تحت لوحة دورير ينام سعيداً فى براءته ، ضاماً قبضتيه الرقيقتين - ينام ابنى ، ولا أمل من أن أربت بنظراتى على بشرته الوردية ، معجبة بهذا المخلوق الكامل الذى اهداه الى جسدى . ما ان استيقظ فى الصباح ، وافكر بأنه موجود ، ويتنفس الى جوارى اشعر كما لو كانوا يمنحوننى العالم كله وان حياة جديدة من

الأمل والفرحة تبدأ من أجلي . أتعرف الى من أدين بسعادتي ؟ الى نينا ميللي . انها هي التي أقنعتني بأن احتفظ به ، اما ميشيل ، ومن بعدها هانز ، فقد كانا يستحثاني على التخلص منه ، ولكن نينا ، قبل ان نصبح صديقين كانت تعتني بي ، وقد شرحت لي التغيرات التي سوف يجلبها هذا الطفل الى حياتي ، واقنعتني بأن احتفظ به . ولم يكن الا فيما بعد ان سمعتني استعمل – ولا اذكر الموضوع الذي كان مثاراً – الوصف الذي كنت قد علمتني ان اصف به المتشدقين بالاخلاقيات فحدثتني عن ذلك الرجل الذي كان يقول كلاماً مثل « الرؤوس المقطوعة »

أوه ، مانوس يا حبيبي ، عندما أفكر في المباهج التي تنتظرني مع هذا الطفل أشعر بانني اتوق الى ان أرقص . سوف أعلمه كل شئ عن عالم الاشجار والعصافير ، سوف اعلمه ان ينطق بأسماء اشجار الاوكاليبتوس ، والقسطل ، والدلب ، والحور ، والتين ، وبأسماء الطير من كناري وبلبل ويمام وحمام . ولن اعلمه فحسب ان ينطق بأسمائها بل وان يراها ويلمسها ، وان يعرف بالضبط كل شئ عنها : ما شكل اوراق واغصان الشجر وما الذي يأكله الكناري ، كم هو خفيف وزن العندليب ، ومتى يعود السنونو . سأعلمه الا يعذب الحشرات والزواحف ، بل وان حدث ان وجد حرباء على الأرض ، يضع هذه المسكينة على الشجرة . سأعلمه ان يسمي بكل دقة درجات الألوان التي تكتسي بها السماء من الفجر حتى منتصف الليل . سأعلمه السباحة والتصوير . سأعلمه ان يحب البشر جميعاً . ان يرغب التشبه بالطيبين ، اما الاشرار ، هيه ، الاشرار ، فسأعلمه ان ينساهم ياحبيبي الآن ، بفضل طفلي اهتم مثلما تهتم انت ، بعالم الغد . اتحدث مع نينا ، مع نانسي ، مع ميشيل – هل كان لديها الوقت حقاً كي تخبرك انها ليست

رومانية ، بل فرنسية مولودة في باريس ؟ – كثيراً ما يجئ لزيارتنا صديقك المترجم القديم وزوجته ، وهما منتهى اللطف تجاه طفلى ، وقد جلبا له خشخيشة وحلية ذهبية . وقد رجوتهما ان يجدا له اسماً يونانياً ، ولكنهما لم يتفقا بعد على اسم ، وسوف ينتهيان على ما أرى الى تسميته ايمانيويل . وسوف يكونان له إشبيناً . سوف اربيه وأعلمه هنا . يقول العجوز ان ذلك ممكن ، وهو صديق للبطريرك ، وسيرتب الأمور كى يذهب الصغير الى المدرسة اليونانية ، وهى بعيدة عن هنا قليلاً ، فى كاتا مون .

أجل ، عاد هانز وقد انتابه تغيير كبير . ابيض شعره ، ولكن روحه – فلنمتنع عن قول ما هو سئ – وهل كان خطئى انا ايضاً انه صار عجوزاً ، خشناً ، غير مكترث و يمتلئ بالتوجس وعدم الثقة ؟ اثناء مهمته ، استبد به الخوف من الموت . تذكر قطعة النحاس التى وضعها فى يدى قبل صعوده الى الطائرة ؟ لوقت طويل ، اعتقدت انه فعل ذلك لأنه يخشى ان تسرق منه حبيبتك ، وكان يريد – لو ان مكروهاً اصابه – ايقاظ نوازع من تأنيب الضمير فى داخلى حتى انتهى الى الندم ، ومن ثم الى سكينة الروح . ولكنه بنفسه اوضح لى عبارة « اننى لا أخاف سوى اليونانى » كانت تتعلق بمهمته فاذا وجد فى خطر ، فلن يكون ذلك الا بسببك ، اعنى بسبب قومك . وهناك وجد نفسه فى خطر – تعرض لحادث غبى . اولئك الذين بعثوا به حاولوا اقناعه بانه لو لم تكن هذه مصادفة فلا بد ان ذلك من تدبير من تعرفه ، واحد من مواطنيه ، على أى حال ، رجل محل ثقة أثبت له ، كما يثبت ان إثنين زائد إثنين يساوى أربعة ، أن سائق السيارة التى كانت ستدوسه يتبع ذات الدائرة التى ينتمى اليها بينى ، وعندئذ كل شئ وضح فى اعماقه . لقد كان اذن شاهداً غير مرغوب فيه ، مدعوا جبراً عنه الى الاختفاء الآن ،

وقد تغيرت فرص الحرب . وبدلاً من الابتعاد جعله ذلك اكثر التصاقاً بهم . لانه يخاف من الموت ، فقد كل ايمانه . يقول ان ستالينجراد قد اغلقت الطريق نهائياً امام عودة آل هابسبورج الى العرش . الله يريد ذلك ! ولن اندم عليه على الاطلاق .

واذ أكتب كلمة ستالينجراد ، فأنني افكر فى شئ فظيع جرى على وجه التحديد ، عند احتفالنا بالنصر الكبير . لعلك تذكر شجرة التين تحت نافذتى ، ناحية اليمين ، هناك حيث توجد الاريكة ، يا حبيبى . كنا فى الاسابيع القليلة الباقية على ولادتى ، واذا بنا نجد عند الفجر الجاويش وينتر معلقاً بأغصانها مشنوقاً . انزلوه وقد جمده الصقيع . قالوا نوريستانيا تزعم ميشيل انه من المستحيل انك لا تعرفه فقد كان أشد معذبيك ضراوة ، وهو الذى بنى ملفك ورقة ورقة ، ولو صادفتك فى المستقبل مضايقات من قبل السلطات الانجليزية ، فأعلم ، انه هو المسئول عن ذلك . كان يعرف انك تحبنى ، ولم يدع لى بسبب ذلك لحظة راحة واحدة . كان على الدوام يدور من حولى ، على أمل ان ترتكب الخطأ بالأقتراب منى يوماً ، من أجل ان يلقى القبض عليك .

كم تغير هانز ، كنت سوف تدرك ذلك ازاء اصراره على التخلص من الطفل ، وهو الامر الذى يعتبر بالنسبة لكاثوليكى خطيئة مميتة بمعنى الكلمة . عندما اعلنته بقرارى النهائى اعلننى بأنه أبداً ، أبداً ، لن يعترف به ولن يسمح « لبذرة يهوذا هذا » ان يحمل اسمه . انه يعتقد انه من بينى ، ولم افعل شيئاً لأبين له خطأه . كان بالأمكان ان يكون من بينى ، وسوف كنت أشعر بمنتهى التعاسة ، وان كنت سأحتفظ به ايضاً . انه من آدم حبيبى . لا تسألنى كيف أعرف ذلك . اننى اعرفه حق المعرفة ، يمكننى ان

اخبرك باليوم وبالساعة وباللحظة ، التي احسست فيها احشائي تحتبس بداخلها غيوراً عليها هذا الوعد بالسعادة ، وبخلودي رغم انني في تلك اللحظة كنت أجهل ان الامر كذلك . يمكنني ان اصف لك الوضع الذي كان عليه جسمي ، يمكنني ان أقلد لك صرخات ابتهاجي المبهمة ، ابتهاجي الذي اعتقدت انه سوف يكون مؤقتاً . آه كم انا مدينة لهذا الرجل الذي لم يعطني قط لا تعاسة ولا ندم ، والذي بأسلوب متحرر مدرب قدم لي الوسيلة التي تغلبت بها على انحطاطي وقد رحبت ميشيل العجوز ان يأخذنا الى المدافن اليونانية حيث وضعت على قبره كل ما وجدت في أروشليم من زهور . كنا في الخريف وقالت لي ميشيل بخبث عندما بقينا وحدنا ، إنني كنت أرملة على غاية من الوقار وممتلئة بالحزن ، واجبتها بأنها كانت مخطئة ، وانني لم اكن ابكي آدم وانني ما بكيته قط ، بل كنت أحبيه . كان مخلوقاً كريماً ، ودون ان يعرف كان واقعاً في شباك صيادي وحوش . كان طفله يركلني في بطني أثناء ان كنا نتجول بين المقابر ، ونحاول ان نتبين الاسماء المكتوبة في أغلب الأحوال بالأحرف البيزنطية غير المألوفة لدينا .

قاطعتني روزا . جاءت تذكرني بان الوقت قد حان لأرضاع الطفل ، وابدال أقمطته وانها فيما بعد سوف تدفيء ماء من أجل حمومه . أعلنت نانسي ذات مرة ان روزا جد صارمة في تأدية واجبات الرضاعة ، للحد الذي كان سيجعل الملكة فيكتوريا نفسها تشعر بالغيرة من ذلك . وقد رددت ذلك على مسامع روزا فاذا بها ترد على قائلة « هذا الطفل ، انت مدينة به لي ، وان كان ابوه قد عاش فلسوف كان يحملك على التخلص منه » ربما كانت على حق في ذلك ، ولكن كم هو فظيع التفوه به ، بل ومجرد التفكير فيه . تؤكد لي نينا انك كنت عالماً بالقضية حتى الافراج عن روزا ، ثم

فقدت هى أثرك ، وتجهل لو كنت تعلم بما حدث بعد ذلك ، وفى الواقع ليس هناك ما اكتب عنه اخذنا على عاتقنا رعاية الاطفال وحمايتها ، وما ان القى القبض على روزا عدت للاقامة بالبنسيون ، وقد ابدت لى فراو آناه آمارة فرحة كبيرة بعودتي . فيما بعد عرفنا منها انها عارضت الآنسة باتلر التى تدخلت كي استعيد غرفتى القديمة ، ثم رضخت بعد ذلك تحت ضغط من أخيها عندما اقنعوها انهم يعتمدون عليها ، على حد قولها ، لمراقبتى كى تبلغهم فى حالة ما اذا عدت الى الظهور فى الحى ، ولكن روزا التى تعرفها معرفة أفضل تدعى ان ثمة شيئاً اخر جعلها تقبل : انها بذلك لن تكون مضطرة الى سداد عمولة تأجير الغرفة الى الآنسة باتلر . إن قدسية الطـابق الثانـى تمتهن ، اتفاقات هدنة تنتهك ، تحالفات تنفض واخرى تنعقد ، مسرح الحرب والاخطار العاجلة تبتعد عن منطقتنا ، والغالبية العظمى من لاجئى مصر عادوا الى ديارهم ، ولكن شهوة الغضب المستبدة بفراو آناه لا تريد ان تهدأ ، بل العكس هو الصحيح . وبصراحة ، فأننى اعتقد انها تنزلق الى الجنون . ان لها ابنا يكاد يكون شاباً الآن ، ولا تطيق رؤيته . وطوال أيام وأيام حاولت ان تقنعنا ، مشيل وزوجين اسبانيين على غاية من اللطف وانا ، حاولت ان تقنعنا بأن الشتاء الماضى كان عليها ان تصد عنها كل ليلة هجماتك ، وكى تجد هدوءها اضطرت أن تعطيك الغرفة العلوية تحت السقف ، التى يشغلها الأن ايطالى عجوز ، وان تذهب لتنام بعيداً تحت السلم أو فى المطبخ . ولما ادركت ان الأكذوبة لم تنطل علينا بسهولة ، استحال حديثها الى جنون مطاردتك لها ، تراك تارة تجرى وراءها ممسكا بسكين ، وتارة تراك منكفئاً عليها ممدود الذراعين تحاول خنقها « مثل آدم » ... تقول انك لن تغتفر لها ابداً تعرفها على ثيابك ، ولكنها ادت بذلك واجبها تجاه القانون . وبعد معركة العلمين رحل الزوجان

الاسبانيان وظلت غرفتهما خالية بضعة ايام فأستقرت بها ، وفى الليل كنت أسمعها تنادى مستغيثة ، وتبكى وتتوسل وكانت تشرب الخمر وتسكر بأستمرار ، وراحت ميشيل تشكو من انها لم تكن بقادرة ان تحتفظ بزجاجة عرقى واحدة . ثم اذا بواحدة من قمصانها الداخلية تختفى ، وجاءنا الايطالى العجوز يسألنا اذا ما كنا نعرف ما إذا كانت صاحبة البنسيون ساحرة وتمارس طقوساً سوداء فأجبناه غير مصدقين ساخرين ، وقلنا له « لا بد انها طارحتك الغرام ورددتها عنك ، هذه المسكينة » فابدى الايطالى غضبه منا . لو كنا نتحمل البرد والسهر فليس علينا سوى ان نراقب من فتحة الباب العلوية ماذا يجرى فى الطرقة عند الفجر ، فى تلك الآونة كانت بطنى منبعجة مثل برميل : وكان هانز لحسن الحظ قد انتقل نهائياً للاقامة بالاستوريا ، ومن ثم كنت حرة فى غرفتى ، ومع ذلك كنت أخاف السقوط من على الكرسى . كما اخذتنى ميشيل خفية للنوم فى سريرها ، ولم يغمض لكلينا جفن ، وفى النهاية جاء الفجر ، وراحت ديكة الحى الالمانى تصيح . وعندما سمعنا فراو أناه تفتح بابها ، سارعنا الى اعتلاء مقعدينا ودثرتنى ميشيل بفرائها ، وامسكت بى بين ذراعيها كى تحول دون سقوطى فى حالة احساسى بالدوار ، همست فى اذنى « قميصى الداخلى » وقد كانت فراو أناه بجسمها الجرم النحيل ، غير مرتدية سوى القميص الداخلى الأسود هذا المثير للضحك ، القصير بالنسبة لها ، حافية القدمين فى البرد ، تروح وتغدو كما لو كانت منومة ، من باب ميشيل الى باب غرفتك وهى ترفع فى يدها كوباً من البللور به شمبانيا . لابد انك رأيت القسس يهزون ويأرجحون المباخر لطرد الشيطان ؟ كان ما يحدث مثل هذا بالضبط « يالها من مسكينة هل تعرف ماذا تفعل ؟ انها تقلد زيارتى لصديقنا » قالت ميشيل ذلك « فلننزل . هذا مخيف» «لحظة لنرى كيف سينتهى ذلك » عندما رأيتها تتمدد

على الأرض ، وتحرك بطنها على نحو مهيج للغرائز وهى ترتعد احسست بالغثيان « سيغمى على ، يا ميشيل . الطفل ، يا الهى ! »

انفصلت نانسى عن السفير . هل كنت تعرفت ان زوجها كان سفيراً ؟ عندما قتل رون جاءت المسكينة ... ولكن كيف كان بأمكانك ان تعرف ان رون كان طياراً وفقد فى احدى تلك الغارات القاتلة التى مهدت لهجوم العلمين ؟ كانت ترتدى السواد ، وقد مشطت شعرها ، على النحو الذى تعرفه . وبدت فى غاية الهدوء ، وكانت تقول انها ما ان تسوى موقفها مع زوجها ستأتى لتعيش هنا . هنا ، حيث رأت الجنة مثلما رآها النبى ، وسوف تقرر بعد الحرب ما اذا كانت ستعود الى وطنها أم لا . وقبل حتى ان يولد طفلى ارادت ان تنقده هدية مالية ، ولكننى لم أقبل ذلك . ان هانز يعطينا معاشاً ، ونعيش حياة ليست بالطيبة ولا هى بالسيئة ، فليرعه الله على أى حال ، فهو غير ملزم بذلك ، وقد خلصنى من اموال الامريكان ، التى كان يمرضنى ان المسها . وقد دفعت نانسى بسخاء الى فراو أناه . واعتقد ان هذا اصلح ما بينهما كى تخبرها ما ان يرحل الاسبانيان . وهكذا منذ نوفمبر ، تسكن نانسى الغرفة المجاورة وفى الغرفة المواجهة لغرفتى تسكن ميشيل ، وفى الردهة ذات الحائط الزجاجى فراو أناه . لم يعد ينقصنى سواك ، وفى الغرفة تحت السقف الخفيض حيث كنت تقيم الايطالى يا حبيبى ، حتى يكون كل شىء مثلما كان فيما مضى . اعرف انك لن تعود ، ولا يجب ان تعود . طريقك مختلف ، هذا ما تقوله لى نانسى وميشيل ونينا . سوف تغادرنا ميشيل قريباً جداً . انهم يطلبونها فى الجزائر . طلبت منى نانسى ، قبل ان يولد الطفل ، ان تنام معى فى سرير الحب – كان ذلك فى ذكرى من ذكرياتها مع رون ، وقدتحدثنا كثيراً تلك الليلة ، ولكنها كانت على

الدوام هادئة ولم أراها تبكى قط . كانت تقول ان رون لا بد قد مات سعيداً واثقاً من النصر ، وهى متأكدة من ذلك ، لقد مات فى اللحظة التى اصبح للتضحية بحياته معنى . ولو كان قد مات قبل ذلك بقليل ، لمات غارقاً فى الشك ، ولو مات بعد ذلك بقليل لمات فى حسرة لأنه كان سيرى العالم الجديد وهو على وشك ان يولد . وقد كان يقول لها كثيراً ان حضارتنا سوف تنجو ، ولكن الأيدى التى ستتعهدها بالحماية سوف تكون غير مدربة وفظة . كان يمنحهم ثقته ويباركهم من كل قلبه ولكن كان يفضل الا يكون هناك لحظة التغيير . فربما انهارت اعصابه واهان بكلام جارح على وجه التحديد اولئك الذين سوف يكون لهم الحق فى الاحترام . فقد دفعوا ثمناً للنصر اكثر من غيرهم . وعنك ، يامانوس ، كان يقول انكما متشابهان ، وانك ستعانى الكثير عندما تدق الساعة ايذاناً بالتغيير ، ولكنك ستكون قادراً على الخلاص ، فأن الروح التقليدية وسموم الانحلال لم يتسع لها الوقت لافسادك . ونانسى ؟ تقول نانسى ، ان المرء اعتباراً من سن معينة عندما يبلغ النضج يكون بحاجة الى استبدال الكلمات بأشياء ملموسة ، يكون متعطشاً للحقيقة ، وليس لدينا ابداً معرفة منضبطة بالواقع . نحن نعرف جزءاً منه فحسب ونقوم بتفسير جزء أخر منه على نحو معكوس . يعرف المرؤ هذا ولكنه يجهل ما نعرفه نحن ، وتنساب حياتنا هكذا من انصاف الحقائق الى انصاف أخرى أسئ فهمها ، وعندما تبين الاشياء على حقيقتها كثيراً ما يكون الألم أو الفرحة التى زودتنا به هذه الاشياء قد خلفناها وراءنا ، فتشغلنا اكاذيب وحقائق اخرى . وكى نفهم من نحن يجب ان نتقوي ونمضى قدماً بحذر والوسيلة الوحيدة لنضع حياتنا على الطريق السليم هى ان نتعلمها من الألف والباء مع شخص لا يعرف شيئاً . أعنى مع طفل ، ولكن الأن ... وقد بدأ النهار يطلع انت تعرف كيف تنهار مقاومة

الانسان بعد ليلة سهر عند لحظة تكثفت فيها الذكريات ، والعطش الى الصدق ، والحاجة الى رؤية ما يدور بداخل النفس بأكبر قدر ممكن من الوضوح ، وانهد ازاء كل ذلك غرور الانسان الدنيوى وتعللاته المصطنعة . فى تلك اللحظة ، لحظة انبلاج الفجر بضيائه الوردية والخضراء من وراء مربعات الزجاج بنافذتى الصغيرة ، اعترفت لى نانسى انها انما جاءت على أمل ان تلقاك من جديد . أعرف انها لن تغضب لو عرفت اننى قلت لك ذلك ، ولكن يجب الا يعرف أحد بخطابى هذا سوى نينا . معذرة إذ اكتب لك ، ولكن ليس فى هذا اى ضرر ، ولكن مهما صار العالم الحر مترامى الاطراف ، كبيراً ، فليس ثمة ما يمنع ان تلتقيا يوماً من الأيام ، نانسى وانت الحياة . على غاية من الغرابة ويجب ان تعرف عندما كنت لا ازال حاملاً ، وكانت نينا تصر على ان امشى كثيراً ، كنت أخرج مع نانسى ، وكنا نذهب الى كاتامون . الآن وما عاد لجماهير الجنود وجود هناك ، أصبح الدخول سهلاً الى النادى اليونانى . ذات ليلة ، كانت السماء تمطر رذاذاً ، وكنا نتنزه متجولتين بين اشجار البرتقال ، ونزلنا فى الحوض ثم جلسنا على درجات الفيلا ذات الاعمدة الايونية . كانت كل منا لديها كمية من الذكريات لترويها وكنا متفقتين على انه بالرغم من كل شيء ، فأن تلك الليلة التى ذهبت بنا ورقصنا هناك كانت ليلة مباركة ! وكان فى مقدمة ما فعلته نانسى عندما جاءت تقيم معنا ان وضعت حداً لزيارات مس باتلر . ذهبت ذات يوم وقابلتها وذهبا معاً الى أخيها . قالت لهما نانسى كلمتين متزنتين وقاطعتين . ومن ذلك الحين تركانا فى حالنا . بالطبع واصل ونتر تحويمه هنا مسنوداً فى ذلك من السلطات بحجج أمنية . كثيرون يعادونك ، يا حبيبى و أعتقد انهم فى ذلك يبالغون . أكان ذلك لأنك أفسدت عليهم خططاً كثيرة ، حتى أنهم منذ مارس هذا العام ، يتقلبون على الجمر ،

ولا يهدأون ؟ ولكننى لا اعرف غيرك ، ويكفى هذا ليدق قلبى كلما جلبت الى ميشيل بعض الأخبار عن الشئون اليونانية أعرف انكم نجحتم منذ شهرين فى إجراء تعديل وزارى ، وربما كان ذلك بالنسبة لكم افضل الان ولكن ميشيل تعتقد انه مازال امامكم طريق شاق طويل عليكم اجتيازه ، وشراكاً عديدة عليكم تجنبها ، وخونة عديدون عليكم ان تفضحوا خياناتهم ، وتضحيات شاقة وكثيرة تتحملونها ، وذلك قبل تحرير اليونان وقبل ان يكون باستطاعتنا ان نحضر اليك ابنى الى كيفيسيا يقبل يدك ويقول لك بلغتك « صباح الخير ، يا عمى »

تؤكد لى نينا ان هذا الخطاب سيصل الى يديك ، دون ان يقرأه احد غيرك ، ولكنها تقول ايضاً انه من اجل مصلحتك على ان أرجوك الاَّ تكتب الى ، والا تسعى لمقابلتى ، وانى ارضخ لذلك واطيع الأمر . سوف تكون أغلى امنياتى ان تتلقى خطابى هذا وتقرأ كل ما كتبت لك . لا أريد ان تحبنى ، لو كنت ستواصل ان تحبنى على النحو الذى كنت تحبنى عندما التقت نينا بك ، يا حبيبى ، ياحبيبى .

ملحوظة : انظر كم هى صدفة ، ياحبيبى ، ان يكون قد مضى اليوم عام على رؤيتى لك أول مرة ومائة عام على وفاة هولدرلين .

٥ أغسطس ١٩٦٠

هذه رواية المنتدى الجزء الأول من ثلاثية المدن الجامحة ويليها الجزء
الثاني رواية آريان ثم الجزء الثالث رواية الخفاش

الأديب اليونانى الكبير ستراتيس تسيركاس وفنه الروائى

بقلم الدكتور نعيم عطية

فى يوليه من عام ١٩١١ ولد الروائى اليونانى ذائع الصيت ستراتيس تسيركاس بحى عابدين بالقاهرة ، من أسرة كانت تحيا بهذا الحى الشعبى ، الذى سيستوحيه تسيركاس كثيراً فى أعماله الروائية والقصصية . وكان للصغير ستراتيس جد أسمه ستيفانوس يعيش بالاسكندرية . يذهب اليه لقضاء أجازته الباكرة .

ولم يكن ستراتيس الاسم الرسمى للأديب ، ولا كان تسيركاس لقب الاسرة ، بل كان الاسم الحقيقى للأديب « يانيس خادزياندرياس» وكان « تسيركاس» مجرد اسم عرفت به الاسرة ، وقد أختار الاديب لنفسه بعد ان شب عن الطوق وانخرط فى سلك الكتابة أسم « ستراتيس تسيركاس» يوقع به اعماله الأدبية من نقد وقصة ورواية .

وفى ابريل ومايو من عام ١٩٢٧ نشر تسيركاس ترجماته الاولى لقصائد من هاينى وموسيه وشيلر فى مجلتى «الباقة» [بوكيتو] و «الاسرة» [ايكوينيا] وفى السادس عشر من يوليه من ذلك العام ، ولم يكن تسيركاس قد تجاوز عامه السادس عشر ، نشر أولى كتاباته بعنوان «القمر» وقد امتدح الشاعر والناقد لوكاس خريستوفيدس آنذاك موهبته الباكرة ، وكتب لوكاس خريستوفيديس فى ذلك العام يقول : نشعر بالفخر اذ ننشر هذه الاقصوصة لفتى يونانى من ابناء مصر لم يبلغ بعد الستة عشر ربيعاً . ان الشاب يانجوس خادرزياندرياس القاهرى ، كما يبين من عمله الادبى الاول ، يتحلى بموهبة نادرة يدل عليها خياله المتوقد ، واحساسه بالجمال ، فضلا عن ادراكه لما لا لزوم له فى العمل الفنى ويتعين حذفه ، وهو الأمر الذى لا يألفه الشباب الذى فى سنه .

وفى عام ١٩٢٨ أنجز تسيركاس الدراسة بالقسم التجارى بالمدرسة العبيدية بالقاهرة ، وأشتغل لعام واحد مشتخدماً بالبنك الاهلى المصرى . ثم انتقل الى الصعيد عام ١٩٢٩ ليعمل بمحلج للأقطان فى ديروط ، حيث بدأ فيه بوظيفة محاسب ثم اسندت اليه ادارة المحلج كله . وبقى فى عمله هذا مديراً للمحلج عشر سنوات .

وفى الثانى من فبراير عام ١٩٣٠ نشر صفحات نثرية بعنوان «ساعة الظهيرة» بمجلة «بروتوبوريا» [الابداعات الاولى] وفى مايو من ذلك العام نشرت أولى قصائده بمجلة «الاداب السكندرية» ، وفى العاشر من يوليه التقى بالشاعر السكندرى قسطنطين كافافيس . وعن هذا اللقاء يقول تسيركاس «اذ أحصى مقدار الوقت الخالص الذى قضيته مع كافافيس وجلسنا وحدنا أجد أنه لم يزد على ثلاث عشرة ساعة وثلاثين دقيقة فحسب ، اذ كان يتردد عليه فى ذات الآونة آخرون غيرى . وهذه الساعات والدقائق أمضيتها فى الفترة من ١٠ يوليه ، وهو اليوم الذى جرى فيه أول لقاء ، الى ١٥ أغسطس ، وهو اليوم الذى سافرت فيه الى الصعيد عائدا الى مقر عملى هناك [من حديث تسيركاس الى مندوب مجلة « اقرأ » قبيل وفاته بخمسة ايام] .

وفى يونية عام ١٩٣٣ مرض أبوه بذات الرئة ، فأرسل الى ربوع لبنان للعلاج ، وتولى العم الاكبر اعباء الاسرة ، فأنتقلت الى الاسكندرية حيث عاشت . ولا يطول مرض الاب فيموت فى اكتوبر من العام ذاته . وفى يونية من عام ١٩٣٧ يتزوج تسيركاس بأنتيجونى كيراسوتى التى شاركته حب الثقافة والادب والنضال من اجل قيم عليا . ويسافران معا فى رحلة شهر العسل الى اليونان ، وايطاليا وفرنسا ، والنمسا ، وتشيكوسلوفاكيا .

ويفصح تسيركاس عن ميوله السياسية مبكرا ، فينضم عام ١٩٣٥ الى منظمة لمقاومة الدكتاتورية ، ويشترك فى اعمال المؤتمر الدولى للكتاب فى

صيف عام ١٩٣٧ للدفاع عن الثقافة ضد الحرب والفاشية ، ويكتب مع زميل له «قسم الشعراء» على شرف الشاعر الاسبانى فريدريكوجارسيا لوركا الذى كانت قد اغتالته الفاشية آنذاك فى بلاده . وقد قدم هذا القسم الى المؤتمر بمساعدة لوى اراغون الشاعر الفرنسى الكبير . ووقعه اربعون كاتبا عالميا . كما صدر فى هذه الفترة ديوانه الأول بعنوان «الفلاحون» وفى ديسمبر من العام التالى صدر ديوانه الثانى بعنوان «الرحلة الوجدانية» مطبوعاً بالاسكندرية حيث طبع ديوانه الأول ايضاً .

وفى يوليه ١٩٣٩ ترك ديروط عائداً الى الاسكندرية حيث استقر به المقام وعمل هناك مديرا لمدبغة جلود . واذ صدرت عام ١٩٤٢ مجلة «اليونانى» لمواصلة النضال ضد الدكتاتورية والفاشية أنضم ستراتيس تسيركاس الى هيئة تحرير هذه المجلة . وكثيرا ما كان يوقع مقالاته بإسم «لوقا العربى» .

وفى يونيه من ذلك العام ترك الاسكندرية مع زوجته انتجونى ، عندما وصل روميل الى مشارف هذه المدينة . وفى فلسطين الى حيث نزح ، اتيحت له الفرصة ليجمع المادة الاولية لروايته «المنتدى» التى ستكون الجزء الاول من ثلاثيته الروائية الكبيرة بعنوان « مدن جامحة» . وفى نوفمبر من العام ذاته يعود تسيركاس مع زوجته الى مدينته الحبيبة الاسكندرية ، بعد ان زال ما كان يتهددها به روميل من خطر الغزو وابادة المناوئين للفاشية والنازية من أمثال تسيركاس .

وفى يونية عام ١٩٤٣ ، صدرت بالاسكندرية المجموعة القصصية الاولى لتسيركاس بعنوان «اناس مزعجون وقصص أخرى» كما مضى تسيركاس ينشر مقالات بأسم مستعار هو «عدو الفاشية» . ومنذ عام ١٩٥٤ ازدادت علاقاته بالمجالات اليونانية الثقافية توطدا فنشر بعض أعماله فى مجلة «الآداب الحرة» كما نشر أعمالاً أخرى فى «الآداب السكندرية» و«باريكوس»

و«أصوات» و«مراجعات الفنون» و«الفجر» و«الاداب القبرصية» .

وفي أكتوبر ١٩٤٦ نشر بالاسكندرية ديوانه « الوداع قبل الاخير وموشحات التأبين الاسبانية» . وفي عام ١٩٥٠ نشرت مجلة «الاداب السكندرية» دراسته التي لم تكتمل عن «القصاص نيقوس نيقولائيدس» الأديب القبرصي الذي عاش في بولاق . وكان قد نشر ايضاً في هذه المجلة من قبل دراسة أخرى لم تكتمل بدورها عن «القصاص ديموستينيس فوتيراس» وكان أحد الرواد الاول للأدب القصصي الحديث باليونان ، وعاش بدوره سنوات باكرة من حياته بالاسكندرية .

وفي يناير عام ١٩٥٤ صدرت في الاسكندرية مجموعة تسيركاس الثانية «نومة الحصاد وقصص أخرى» وفي نوفمبر من عام ١٩٥٥ نشر في مجلة [مراجعات الفنون] أولى دراساته عن قسطنطين كافافيس بعنوان «حالات الرفض الكبير» ويبدو ان تسيركاس ترك دراسته عن فوتيراس ونيقولائيدس دون اكمال مكرساً جهده للشاعر السكندري كافافيس .

وفي عام ١٩٥٦ انكب تسيركاس بكل حماسة يكتب في عشرة أيام روايته القصيرة « نور الدين بومبه» في اعقاب تأميم قناة السويس ، وفيها يمجد النضال القومي المصري ضد الاحتلال والاستعمار . وقد نشرت هذه الرواية القصيرة عام ١٩٥٧ بالاسكندرية ضمن مجموعته «نور الدين بومبه وقصص أخرى» .

وفي ابريل عام ١٩٥٨ انجز تسيركاس دراسته المستفيضة عن «كافافيس وعصره» التي ستصدر في سبتمبر من ذلك العام ، وقد منح عن كتابه هذا باليونان جائزة الدولة في يوليه من العام التالي . ثم شرع في ابريل من عام ١٩٥٩ يكتب «المنتدى» وهي الجزء الاول من ثلاثيته الروائية الطويلة بعنوان «مدن جامحة» التي اشرنا اليها ، وقد صدرت في يناير عام ١٩٦١ . ولا يلبث في فبراير من العام ذاته ان يشرع في كتابة «أريان» وهي

الجزء الثانى من ثلاثيته الروائية المذكورة ، وصدرت فى خريف العام التالى . وكان قد نشر ايضاً فى ديسمبر السابق دراساته عن ديوان جورج سيفيريس «مذكرات على ظهر سفين» .

وفى صيف عام ١٩٦٣ غادر الاسكندرية ، واستقر فى اثينا بصفة نهائية ، ومنذ اكتوبر من ذلك العام وحتى ١٩٦٧ تولى باب نقد الكتب بمجلة «تاخيذروموس» وهى المجلة التى اصدرها بأثينا يونانيو مصر الذين غادروها الى بلادهم ، حاملين معهم حصيلة ضخمة من التراث والذكريات والانتماءات ، وفى فبراير من عام ١٩٦٤ نشر ماركوس افيريس أول دراسة عن ادب ستراتيس تسيركاس ، وقد أثارت هذه الدراسة جدلا كبيرا فى الأوساط الادبية . وفى اكتوبر عام ١٩٦٥ صدرت رواية تسيركاس الثالثة «الخفاش» لتكتمل بها ثلاثيته الروائية الكبيرة «مدن جامحة» سالف الاشارة اليها . ومنذ فبراير عام ١٩٦٦ مضى ينشر فى «التاخيذروموس» تحقيقات عن موضوعات اجتماعية وسياسية وكان يوقع على هذه التحقيقات بأسم «فوتيس مالينفوس» ويبدو ان الاديب الكبير كان متيما بالأسماء المستعارة ينشر تحت ستارها انتاجه .

وبسبب الرقابة المشددة على المطبوعات فى اليونان تحت ظل حكومة الكولونيلات الدكتاتورية توقف تسيركاس عام ١٩٦٨ عن نشر تحقيقاته الاجتماعية والسياسية ، وانصرف الى الترجمة الادبية عن اللغات الاجنبية ، وقد كان ضمن مانشر له ابان ذلك العام ترجمته «للأمير الصغير» لسانت أكسوبرى ، و «من اعماق السنين» لبيرجان جوف و «اساطير ايسوب» بالاضافة الى رواية الآن فيليب بعنوان «قدرما تستغرقه تنهيدة» التى كان قد ترجمها عام ١٩٦٥ . ثم واصل عام ١٩٦٩ نشر ترجماته لأعمال مثل «العالم المدهش للأخوة جريم» . ويشترك تسيركاس فى يوليه عام ١٩٧٠ بقصة عنوانها «الاسكندرية» فى مجلد بعنوان ثمانية عشر موضوعا

أصدرته دائرة المثقفين فى اليونان ، للتعبير عن مبلغ معارضتهم لحكومة الكولونيلات . وقد قدر لقصة تسيركاس هذه ان تترجم الى عدة لغات اجنبية .

وفى نوفمبر من عام ١٩٧١ ترجمت كاترين ليروفر وخريسا بروكوباكى ثلاثية تسيركاس الى الفرنسية ، وحصلت على جائزة أحسن كتاب مترجم الى الفرنسية . وفى ديسمبر ١٩٧١ أصدر كتابا جديدا عن كافافيس بعنوان «كافافيس سياسيا» وقد حاول ان يثبت فى هذا الكتاب ان الشاعر الذى لا يبدو على شعره ظاهريا اهتمامه بالسياسة ، كانت له آراؤه السياسية . ويحاول تسيركاس ان يبينها لجماهير القراء الذين احبوا كافافيس شاعر التاريخ والعزلة . كما صدرت فى عام ١٩٧٣ الترجمة الفرنسية لرواية تسيركاس القصيرة « نور الدين بومبه» . وفى ديسمبر من العام ذاته صدرت « ذكريات تسيركاس عن الثلاثية» وقد اتسمت هذه الذكريات بالصدق ، كما تضمنت نصائح قيمة لمن يريد كتابة الرواية ، وهى على غرار مذكرات ورسائل الروائى الفرنسى ستندال . ومما يقوله تسيركاس فى مذكراته هذه انه كان قد حاول كتابة الرواية من قبل ، وعلى وجه التحديد عام ١٩٣٠ بل أنجز بالفعل عملا روائيا كاملا آنذاك ، الا أنه مالبث ان احرقه لأنه على حد قوله اكتشف انه لم يكن يقول الصدق على صفحات تلك الرواية التى لم يبق منها الا فصل واحد ، كان قد نشر استقلالا فى أحدى المجلات الادبية فى ابريل ١٩٣١ وبذلك سلم هذا الفصل من التدمير ، وان كان لم ينشر على انه فصل من رواية . ويقول تسيركاس فى موضع آخر من مذكراته عن الثلاثية انه كى تكون اديبا يجب ان تبعث الحياة فى الشخصيات التى اخترتها لعملك ، ولن يكون ذلك الا اذا كنت تتكلم او تتناول بالعرض شخصيات حقيقية ، فالحرارة والدفء هما من مقومات الادب الصادق . ولو لم تكن صادقا فيما تكتب فالاجدر بك الاتمسك القلم وتكتب ، وفى موضع آخر يقول انه راودته كثيرا فكرة كتابة جزء رابع

للثلاثية ، يستطرد فيه الى متابعة شخصيات الثلاثية أو من بقى منهم على قيد الحياة ، ويقتفى اثرهم فى حياتهم بعد ان وضعت الحرب العالمية الثانية آوزارها . وكثيرون منهم عادوا الى ارض اليونان ، ولا بد انهم اشتركوا فى الحرب الاهلية التى انقسمت اليونان فى خضمها الى فريقين كبيرين بسبب الخلافات الايديولوجية التى خرجت من الحرب العالمية الثانية اكثر تأججا ، ولكن تسيركاس عاد يقول انه اكتشف انه لا يستطيع ان يكتب هذا الجزء الرابع لأنه لم يعش أحداث تلك الحرب الاهلية ، وانما تابعها من مقره بالاسكندرية . ولذلك ، فلو كان قد كتب هذا الجزء لكتبه من خلال ما وصل اليه عن تلك الاحداث سواء من خلال الصحف أو ما كتب عنها ، وكم كان سيكون مصطنعاً غير صادق فيما يكتب .

وفى موضع من مذكراته ينطلق قلمه صادقا ليبين عن معاناته كروائى فيقول : ... لست راضيا ، امضى ببطئ ، وعلى الاخص لا اعرف ماذا سيكون مصير شخصياتى . ايعنى ذلك انه ليس لدى قضية اعرضها ؟ لدى بالطبع ، ولكننى لا اتخذ قرارى بالنسبة لبطلى الرئيسى . ماذا افعل له ؟ هل اتركه تائها فى خضم السياسة دون ان الهمه الصواب ؟ وعلى أى حال ، فمن المقطوع به ان هذا العمل لا ينتهى على النحو الذى انتهيت عليه «نور الدين بومبه» وقد كتبت هذا العمل فى عشرة أيام . عشر جلسات بعشرة فصول . بالطبع ، يجب ان اكون على حذر ، فلدى ميل ان انقاد الى محاكاة هيلدرلين ، او نشيد الانشاد . الامر يحتاج الى كثير من التكتيك ، من السيطرة الحقيقية على الصنعة الروائية ، ولست على الدوام راضيا .

وفى عام ١٩٧٤ ترجمت كاى تزيدزيللى الثلاثية الى الانجليزية ، وجرى تداول هذه الترجمة فى الولايات المتحدة الامريكية . وفى سبتمبر ١٩٧٥ صدرت فى الارجنتين الترجمة الاسبانية لرواية «المنتدى» بقلم «خليانو ميجيل كاستيغيو – دنيدى» . كما صدرت فى يونية ١٩٧٦ وفى الارجنتين

ايضا رواية تسيركاس «اريان» مترجمة الى الاسبانية . ثم صدرت «الخفاش» مترجمة الى الاسبانية فى يونية من عام ١٩٧٧ .

أما آخر أعمال تسيركاس الابداعية بعنوان «الربيع الضائع» فقد رأى النور ، وتداول عام ١٩٧٦ . وفى ديسمبر عام ١٩٧٨ صدرت فى مجلد واحد الاعمال القصصية الكاملة لتسيركاس .

وفى السابع والعشرين من يناير ١٩٨٠ توفى ستراتيس تسيركاس فى مستشفى هيبوقراط بأثينا .

ونكتشف مما تقدم كاتبا يونانيا كبيرا ، ناقدا ، وشاعرا ، ومترجما ، وقصاصا ، وروائيا ، وقد ارتقى هذا الكاتب السكندرى المعاصر بأدبه الى مصاف العالمية ، واعْتُرِفَ به روائيا قديرا وواحداً من مبدعى القرن العشرين . وقد شبهه البعض بسولجينيتسين الروائى الروسى الحاصل على جائزة نوبل فى الآداب . ونكتشف ايضـاً ، وهذا بالغ الدلالة بالنسبة لنا ، انه ولد فى عابدين ، وعاش فى القاهرة والصعيد والاسكندرية القسط الاكبر من حياته ، ثلاثة وخمسين عاما بأكملها ، وكتب أعماله بشقة صغيرة بالمندرة ، برمل الاسكندرية ، كان يختلى فيها الى نفسه ويعكف على الكتابة .

وفى روايته القصيرة «نور الدين بومبه» نلتقى بفقرات بديعة من الوصف للطبيعة فى الصعيد ، ترقى الى ما أورده أستاذنا الكبير يحيى حقى عن منفلوط فى كتابه «خليها على الله» . ولنستمع الى تسيركاس فى هذا المقام يقول «فى الليالى يضحى الجو رطبا ، وتفوح ديروط برائحة الماء والشجر الذى يغمس جدائله فى القنوات حاملا زهور البنفسج ويفوح الماء برائحة البرسيم . أما وقت الفيضان فتفوح رائحة الطمى . وكان ثمة شلال يملأ السكون خرير مياهه المتساقطة على اللجة المنسابة تحته . تغطى الكبارى غمامات من رذاذ ماء خفيف . وعلى شاطئ الترعة الكبيرة يخيم ضباب يلف

اضواء المحطة والمقهى ، فتبدو المصابيح على الكوبرى فى خضمه كأنها بالونات تسافر فى السماء . وكنت تشم رائحة السمك ، ولم تكن هذه الرائحة مثل تلك التى تفد من أسماك البحر الممزوجة بالملح ، بل كانت شيئا آخر ، شيئا حلو وحريفا فى الوقت ذاته ، ثم تأتيك من بعيد ، من داخل الارض الداكنة عبق الخضرة ، ودخان نار موقدة . وفجأة تفد اليك رائحة زخمة ، فقد كانت الترعة تحمل تارة جيفة حمار وتارة جيفة شاة تطرق بوابات القناطر الصلبة كى تستكمل رحلتها الى البحر ، وهى رحلة ما كانت تكملها قط .

وتتضح الرواية بحب المؤلف لأرض مصر ، والمامه بتفاصيل الحياة فى ريفها وحضرها ، وتقديره لشعبها وكفاحه المرير نحو الاستقلال والحرية .

ويقول ينى ميلاخرينوذى مترجم هذه الرواية الى العربية فى مقدمة ترجمته انه مما هو جدير بالذكر فى هذه القصة اننا بصدد تحليل للحالة الاجتماعية فى منطقة من الصعيد ، وفى أعوام محددة هى اعوام ثورة ١٩١٩ . والتحليل الذى تتضمنه القصة يبدو من وجهة نظر اجنبيين عاشا فى خضم أحداث هذا المجتمع ، وهما ينتقدان الاحتلال البريطانى لمصر والاستغلال الاجنبى لها ، حتى لو كان هذا الاستغلال يأتى من مواطن يونانى مثلهما .

وفى ثلاثية تسيركاس الكبيرة «مدن جامحة» أو «مدن بلا حكومات» تبين مقدرته على الاستفادة بواسع المامه بفنون الشعر والرواية على المستوى العالمى والمعاصر ، فضلا عن سعة اطلاعه على التاريخ ومدارس النقد وابداعات الفن التشكيلى . وقد تجلى فى الاجزاء الثلاثة لهذه الثلاثية نبضان اساسيان على الاخص . قد يبدوان متعارضين ، ولكنهما فى النهاية وبالحقيقة يتكاملان ، أولهما هو النبض الشخصى بكل الذكريات ، والعواطف والانفعالات والتطلعات والاحباطات الذاتية ، بكل الشهوات

والنزوات التى تنطوى عليها الكيانات الفردية فى تصادمها وتلاقيها . وثانيهما هو النبض الجماعى الذى تنسحق تحت وطأة اقدامه حيوات ، وتنصهر فى بوتقته المصيرية شخصيات وشخصيات . فلا يبدو فى النهاية المصير الانسانى الا كخليط ملتحم - ولهذا فقد جاءت ثلاثية تسيركاس ، مثلما كانت من قبل «الحرب والسلام» لتولوستوى و «رباعية داريل عن الاسكندرية» . ويتجلى تسيركاس فى ثلاثيته واسع المعرفة بالتاريخ والاساطير والفلسفات والمعارف دون ان يترك السياسة تطغى على الفن ، ولا الفن يطمس السياسة .

عشرات ، بل مئات التفاصيل الحياتية لعديد من الشخوص ، تربو على مائة وعشرين شخصية مابين حقيقية وخيالية ، تتداخل فى نسيج حياتى متنوع ومعقد الخيوط . مدينة مثل «بابل» هى كل من تلك المدن الجامحة : أورشليم ، والقاهرة ، والاسكندرية . يتلاقى ويتنافر ويتصادم فى هذه المدن أفراد من اجناس وعرقيات شتى : ألمان ويهود ويونانيون ونمساويون وانجليز وطليان وامريكان وفاتيكانيون ومصريون قاهريون وفلسطينيون عرب ، ولايبين على صفحات الرواية من كل منهم الا ما يلبث ان يغيب سريعا وراء الآخرين وينوب فيهم . موجة تلو موجة ، تصطخب وتزبد وتفور وتتكسر على رمال شطئان ساجية وصخور ، كى تعود فتصطخب من جديد دوامات تغرق وتخنق وتلفظ جثثا واشلاء من عواطف وأمنيات بشر ، ليس لهم فى نهاية الامر أى اعتبار أو حساب . فالحصّاد يذرع الحقول ، يحصد بمنجل العدم محبات واحقاد وخفقات قلوب . وفى الختام ، رغم وحدة المصير يظل العجز عن التلاقى كامنا فى الاعماق ، مثل الدودة فى بطن الثمرة ، لا يبين عن وجوده الا فجأة ، فإذا طفا على السطح مزق وحطم مثل الصواعق المنقضة والبروق الحوارق ، فهى بحق مدن جامحة ، مدن فيما بين قيام الحرب العالمية الثانية وانتهائها ، فيما بين عامى ٣٩ و ١٩٤٥ وعلى وجه التحديد بين عامى ٤٢ و ١٩٤٥ ، مفلوتة العيار ، ملقى بها فى مهب

الريح ، تحاك فيها المؤامرات ، وتوضع فيها المخططات وترسم مصائر شعوب وأوطان ، وتجرى فى أروقتها وحاناتها ومحافلها خيانات ، وتسدد طعنات ، ولا يعمل حساب لفرد ، فالحرب لا ترحم احدا ، ولا تكترث بآلام ، والنصر لا بد ان يتحقق ، فهى حرب مصيرية يتوقف عليها وجود البشرية كلها ، ومن خلال كل ذلك يمضى التاريخ متسربلا ، خفيا ، محاطا بالغوامض والاسرار ، دون ان يكون بأمكان أحد بصفة عامة ان يتبين أو يتكهن بما سيكون عليه المستقبل ، المحفوف بشتى المخاطر والاحتمالات . كل شئ يجرى كما لو كان شديد الوضوح لاخفاء فيه ولا التواء . ولكن الحقيقة بعيدة بعيدة ، تكمن وراء قناع ، ولا أحد يعرف ما وراء القناع ، ولا يجرؤ على ازالته عن الوجه المختبئ هناك . هذا هو الجو النفسى والسياسى والقدرى الذى كان يسود تلك الايام ، التى كانت تقرر فيه مصائر البشرية لأجيال وأجيال .

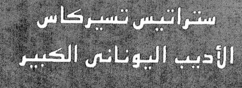
على ان تسيركاس لم يشأ ان يقوم فى «ثلاثيته» بدور المؤرخ ، بل اراد ان يكتب ادبا . وعلى الرغم من ان تلك الحقبة بتفاصيلها واسرارها تغرى المؤرخ ان يتناولها بقلمه . ويكتب تاريخها ، وقد عرف عن تسيركاس غزارة المعلومات وموسوعيتها ، الا ان الفنان بداخله صرفه الى غير ذلك ، وعلى وجه التحديد الى استخدام المعلومات التاريخية كمجرد تكئة لصرح روائى متماسك شامخ البنيان .

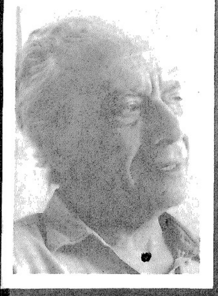
وحول هذا المحور صور الروائى اليونانى الكبير شخصيات حية تتطور فى حركة درامية متفاعلة مع نفسها ومع الآخرين . تبدو بنحو أو بأخر على نحو فالت ، ولكن هذه الحركة تدخل الحيوات الفالته فى المسار الملحمى ، مهما كان قصيرا أو عابراً ، الا انه يكتسى أهمية مزدوجة للكيان الروائى ككل ، فهو من ناحية يكشف للبطل حقائق كانت ستظل خافية عليه لولا ظهورها له ، وهو يسمح من ناحية أخرى بمواجهات مختلفة للأحداث

والمآسى ، فتضفى على نظرة البطل الى الوجود أبعادا ما كانت ستتأتى له ، لو لم تتعقد الروابط وتتشابك العلاقات من حوله ، واذا كان مانوس سيمونيديس بطل الرواية ومحورها الاصلى يحكى حكايته بضمير المتحدث ، فهناك أيضاً شخصيات أخرى تناقض ما يقوله فى منهج جدلى يسرى فى العمل الروائى ككل . وهناك على سبيل المثال أناه فيلدمان العاشقة المهانة على الدوام ، وأريان المرأة البسيطة الغنية بشجاعتها وحبها للأنسان ، وهناك روبيرت ريتشاردز الذى يخلع رداءه الاكاديمى لينخرط فى صفوف المقاومة ، ونانسى التى تعثر عبر حبها على احساسها العميق بالحياة ، وبراسكوس اليونانى السكندرى الممزق بين الماضى والحاضر ، وهناك جيراليس وفانيس والرجل الصغير وفوتيروس ، وهناك ايمى التى تغرق فى نزواتها الجنسية لتنسى مخاوفها ، وبيرتون الاثرى الفرنسى المحب للهلينية ، واليجرا الايطالية المتزوجة بمن يكبرها فى السن ، وغيرهم وغيرهم .

واذا كان الانسان فى زمن الحرب هو الموضوع الرئيسى الذى لا يمكن تصور أن الثلاثية تقوم بغيره ، الا انه يجب التحرز من اعتبارها مجرد عمل روائى من روايات الحرب ، فهى عمل مركب ممتد مثل سيمفونية من ثلاث حركات ، حافلة بالرموز والايقاعات . ويجدر بالقارىء ان يلتفت وهو يقرأ ثلاثية تسيركاس الى الدفاع المتحمس الذى يشنه المؤلف من آجل الانسان والحرية .

د. نعيم عطية





* ناقد وشاعر ومترجم وقصصى وروائى ممن يعتز بهم الأدب اليونانى الحديث فى مصر واليونان .
* ولد عام ١٩١٢ بحى عابدين بالقاهرة .
* أنجز الدراسة بالقسم التجارى « بالمدرسة العبيدية » بالقاهرة عام ١٩٢٨ .
* عمل بمحلج للأقطان فى ديروط بالصعيد عام ١٩٢٩ وترك ديروط عائدا الى الاسكندرية عام ١٩٣٩ .
* أستقر به المقام بالاسكندرية حتى غادرها الى اثينا باليونان عام ١٩٦٣ .
* توفى فى ٢٧ يناير ١٩٨٠ .
* أشهر أعماله الروائية «مدن جامحة» التى صدر الجزء الأول منها بعنوان «المنتدى» فى يناير ١٩٦١ والجزء الثانى بعنوان «آريان» فى خريف ١٩٦٢ والجزء الثالث بعنوان «الخفاش» فى اكتوبر ١٩٦٥ . وقد ترجمت الثلاثية الى الفرنسية عام ١٩٧١ وحصلت فى العام التالى على جائزة أحسن كتاب ترجم الى الفرنسية . كما ترجمت الثلاثية الى الانجليزية عام ١٩٧٤ ثم الى لغات أخرى . وقد لقيت نجاحا كبيراً ، وصدرت منها عدة طبعات .
* من أعماله الروائية أيضاً «نور الدين بومبه» عام ١٩٦٥ و «الربيع الضائع» عام ١٩٧٦ .
* من أشهر مجموعاته القصصية «اناس مزعجون» (١٩٤٤) و «ابريل أشد ضراوة» (١٩٤٧) و«نومة الحصاد» (١٩٥٤) .
* من أشهر دراساته الادبية «كافافيس وعصره» (١٩٥٨) وقد حصل عن كتابه هذا على جائزة الدولة فى اليونان .
* من أشهر دواوينه الشعرية «الفلاحون» (١٩٣٧) و «الرحلة الوجدانية» (١٩٣٨) و «الوداع قبل الاخير ، وموشحات التأبين الاسبانية» (١٩٤٦) .
* كتب ونشر أغلب ما كتب ونشر بالاسكندرية .